مذكرات أبو فريد

(٢٠١٠)

بقلم اسبر البيطار

إعداد وتقديم محمد دكروب

محرر من سيطرة الرأسمالية
لتثقيف الجماهير
من قبل
حكايات اشتراكية

مقدمة

جوانب من صورة:

«المقدَّم» إسبر البيطار (أبو فريد)

[الجندي الشيوعي المقاوم - أستاذ التدريب - والصديق الأنيس]

محمد دكروب

●

ـ انبطاح!.. سدِّد!.. إرْمِ!.. (بعد قليل، يرتفع صوت أبو فريد، بحزم).. إنتباه!.. زحف الضفدعة!.. إلتصاق تامّ بالأرض.. (زحف الضفدعة: هو أن تزحف كما لو أنك تزحف تحت أسلاك شائكة، ملتصقاً بالأرض، محاذراً أن يعلق جسمك بالأسلاك المدبّبة!)..

... ويواصل أبو فريد تدريباته الصباحية، بصوتٍ فيه كل الحزم وكل الودّ، معاً...

التدريب هو التدريب، لا مزاح هنا!.. أما خلال فترة الاستراحة، فيعود أبو فريد الى طبيعته: إنساناً ودوداً، مرحاً،

ساخراً، في نبرة رجولية عكّاريّة، وبنظرات وإشارات طفولية مؤنسة.

المدرّب «المقدَّم» ـ (هكذا كنّا ندعوه، ولكنه في الواقع: رقيب أول) ـ إسبر البيطار (أبو فريد) أحببناه كثيراً، في حالات الحزم وحالات المرح وحالات التنكيت على الرفاق، ومع الرفاق.

* * *

كان هذا خلال أحداث العام ١٩٥٨.

تلك الأحداث التي اتخذت صفة: «ثورة شعبية» ضد حكم **كميل شمعون**... وهي، في جانب أساسي منها: انتفاضة وطنية ضد التحرّك الأميركي الهادف لأن يتولّى قيادة القوى الاستعمارية كلها في المنطقة، أولاً ـ وتالياً: لإحكام سيطرة شاملة على البلدان العربية تحت مسمّيات عديدة منها، مثلاً، الارتباط بـ «حلف بغداد» أو بالاتفاق العسكري مع أميركا والدخول في الحلف المسمّى: «مبدأ إيزنهاور» و «حماية» البلدان العربية من «الشيوعية الدولية» التي ستصبغ العالم كله باللون الأحمر ـ والعياذ بالله! ـ أما الهدف الأساس، المباشر، في واقعه وحقيقته، فهو: تطويق الاتحاد السوفياتي، في حينه، ومحاصرته، ضمن سياق حرب باردة قد تتحوّل الى حرب أو حروب ساخنة، هنا وهناك... لضمان استمرار السيطرة الأميركية على المنطقة.

كان الجو متوتّراً في لبنان ـ وفي المنطقة! ـ كما لو أن حدثاً كبيراً ما سينفجر في مكان ما، مجهول!..

... وكان أن تفجّر حادث اغتيال الصحفي نسيب المتني (يوم ٨ أيار ١٩٥٨)... وكأنه أريد لهذا الحدث أن يكون هو «إشارة الانطلاق»، فاندلعت الأحداث الساخنة وراحت تتفجّر هنا وهناك!...

وبدأ يبرز، بوضوح، انقسام القوى واصطفافها: قوى تدافع عن الحكم الشمعوني وتدفع في اتجاه إخضاع الوطن للسيطرة الاستعمارية (الأميركية أساساً) تحت يافطة «حلف بغداد» أو «مبدأ إيزنهاور» بوجه «الشيوعية الدولية»!.. وقوى تقاوم هذا الحكم الشمعوني وأسياده الانكلو أميركيين، وتناضل من أجل إنقاذ الوطن وتحريره من أخطار هذه السيطرة الاستعمارية واستعادة الاستقلال الوطني.

الحزب الشيوعي اللبناني كان في القلب من هذه المعركة التحرّرية.

وقد استطاع، تدريجاً، أن يحصل على السلاح من هنا وهناك، وأن يقيم مراكز له، مسلحة وغير مسلحة، ضمن المناطق المقاومة لحكم كميل شمعون، ثم استطاع أن يقيم مركزاً عسكرياً أساسياً، في البناء الواسع لمدرسة «عائشة ام المؤمنين» الواقع في منطقة «قصقص» أول «حرش بيروت» المواجه مباشرة لتواجد مراكز تابعة للقوى الشمعونية. وكانت

مهمة هذا المركز: التدريب والتوجيه وتجميع القوى وتنظيم التحركات الشعبية والمسلّحة ضد عناصر الحكم الشمعوني.

ومع الأيام، استطاع هذا المركز استقطاب المئات من الوطنيين الذين رأوا في الحزب الشيوعي موجهاً سياسياً ومساعداً في إعدادهم وتدريبهم على أعمال المقاومة الشعبية بما فيها التدريب على السلاح وطرائق استخدامه. وصار هذا المركز أكثر جذباً للمئات من العناصر الوطنية عندما انضمّ الملازم ـ (وكما أتذكّر فإن بعضنا، وأنا منهم، كان يدعوه «الملازم» وبعضنا الآخر كان يدعوه «المقدَّم») ـ **اسبر البيطار** وعدد من الجنود الشيوعيين الى قوى «المقاومة الشعبية» ضد حكم شمعون، وتولّى أبو فريد القيادة العسكرية للمركز وتنظيم التدريب ليس فقط لقوى الحزب الشيوعي، بل للعديد من القوى الوطنية في المراكز التابعة لها.

فكيف وصل الملازم اسبر (أبو فريد) الى المركز العسكري للحزب؟

* * *

في خلال فترة من الإعداد الهادىء، الدقيق، والسرّي جداً، حزم أبو فريد أمره، مع عدد من رفاقه الجنود، وغادروا مراكزهم في الجيش، وانضمّوا بالتدريج، وحسب الخطة المرسومة، الى قوى المقاومة الوطنية الشعبية، وقوى

الحزب الشيوعي اللبناني، وتمركز أكثرهم في المركز الأساسي، المسلّح، للحزب في منطقة «الحرش».. وبدأوا نشاطهم التدريبي، والقتالي، حيث شكّلوا حالة خاصة، متقدمة، في طليعة القوى المقاومة لحكم كميل شمعون وللقوى الانكلو أميركية التي تستخدمه للسيطرة على لبنان وامتداداً منه الى المنطقة.

ولكن، كيف كانت حياة الملازم اسبر البيطار في الجيش؟.. كيف مارس التقاليد العسكرية للجيش وقوانينه الصارمة؟.. ثم، كيف مارس انتماءه الحزبي ونشاطه الحزبي، الشيوعي والسرّي، داخل الجيش؟.. وتالياً: لماذا وكيف قرّر، مع عدد من رفاقه الجنود، الانضمام الى «ثورة ١٩٥٨»؟.. وبعدها: كيف قدم إسهامه الحيويّ وتنظيمه الأساس للقطاع الأهمّ في المركز العسكري، في حينه، للحزب الشيوعي: قطاع التدريب، ليس فقط على استخدام السّلاح، بل التدريب على كل ما تتطلّبه المعارك ذات الطابع المسلّح، وحالات الهجوم والدفاع والتسلّل، الخ؟؟

... هذا الكتاب الفريد لـ «أبو فريد»، يروي مختلف هذه المراحل، بوضوح، وتكثيف، وتوتّر تشويقي يجيده بعض

كتّاب الروايات!.. وبالطبع، لم يكن أبو فريد قد جرّب، مثلاً، كتابة الرواية أو ما أشبه، بل هو لم يفكر بهذا أصلاً، وربما لم تكن الروايات من ضمن قراءاته في ذلك الزمان!.. ولكن ما يُدهشك أن أبا فريد يجذبك الى هذه المناخات كلها، فيُدخلك، عبر كتابة تصويرية، الى أحداث حياته داخل الجيش، ثم الى أحداث حياته داخل دهاليز «ثورة ١٩٥٨»، كأنك في فيلم سينمائي مشوّق وحافل بالأسرار والتوقعات، كأي فيلم بوليسي أو شبه بوليسي!.. ترافقه، هو ورفاقه الجنود، في رحلة الخروج السرّي من ثكنات الجيش، والعقبات غير المتوقّعة، ثم الوصول، بعد جهود وتعقيدات، الى المركز حيث استُقبلوا بفرحة الرفاق العارمة بالحدث العظيم.

هذا المركز من مراكز الحزب، في تلك الفترة المتوترة جداً من حياة البلاد، كان يعجّ ـ عادة، ويومياً ـ بالرفاق والأصدقاء والزائرين: حلقات هنا وهناك لدراسة جوانب مبسّطة من معالم الماركسية، والمادية الجدلية، ومراحل التحوّلات الى الاشتراكية فإلى الشيوعية... وحلقات في الشؤون الثقافية: الأدب، السينما، المسرح والموسيقى. وكان يتواجد باستمرار من يُتقنون الحديث في هذه الفنون، سواء من الرفاق المتواجدين دائماً في المركز، أو من

الزائرين: (مثقفون وكتاب وفنانون وطلاب جامعيون...) وأحياناً كان يوجد من يعزف الناي أو «الفلوت» أو ينقر على العود والدربكّة، ويوجد من يغنّي ولو بدون موسيقى... وحلقات يصخب فيها الحوار غالباً والجدال الحاد في الشؤون السياسية واحتداماتها وتناقضاتها سواء في لبنان أو في العالم العربي وبلدان العالم.

وكان يزور هذا المركز عدد من الكتاب والفنانين يشاركون في الندوات والنقاشات وتسقّط «المعلومات» والتوقّعات من قائد المركز الرفيق محمد الخطاب، وأحياناً يشترك البعض منهم ببعض التدرّب، وبعض آخر يشارك بحلقات الدبكة وجوقة الغناء...

أبو فريد عبّر عن مناخات تلك الأيام بفقرة في كتابه هذا مشحونة بالتجربة والخبرة الجميلة، قال:

«... أيام لا يمكن لأي من المشاركين فيها أن ينساها، فالروح الرفاقية، بكل ما تعني هذه الكلمة من مشاركة في السرّاء والضرّاء، كانت سائدة بين الرفاق، مندفعين ومستعدّين لتنفيذ أية مهمّة».

وكان أبو فريد يهلّل فرحاً وهو يرحّب بالزائرين من الكتّاب والفنانين، ولكن ترحيبه الأخص والأهم كان يوجّهه

الى قيادات ووجوه الأحياء الشعبية ذوي النفوذ القوي في مناطقهم، وأدوارهم الواضحة ـ أيامها ـ في تجمّعات «المقاومة الشعبية» ضد الحكم الشمعوني. وغالباً ما كان يختلي بالواحد منهم، إما بصحبة قائد المركز الرفيق **محمد الخطاب**، وإما لوحده، يتداولان بالوضع عموماً وبحاجاتهم لتدريب عناصرهم، والخطوات اللّاحقة.

ومن الكتّاب والأدباء والفنانين الزائرين أتذكر من تسعفني الذاكرة باستحضارهم. في طليعتهم الأديب الباحث **حسين مروه**: (وهو كان يتواجد في معظم الأيام، ويقدّم أحاديث في التراث العربي، ويحرص أن يشير الى تباشير وطلائع من الأدب الجديد الذي كانت بدايات منه تتوهّج هنا وهناك) ـ **محمد عيتاني**: (وكان اهتمامه الأدبي الأساسي: تصوير حالات ونماذج إنسانية من سكان منطقة رأس بيروت بشكل خاص، ونماذج من البحارة والصيادين بشكل أخص ـ وكان العيتاني يشيع الفرح وأجواء التنكيت في كل حلقة أو زاوية، حتى ولو كانت نكزاته وتنكيتاته وسخرياته تطال جوانب من المظاهر الماركسية وزهو، أو غرور، بعض «الماركسيين»....) ـ **الدكتور علي سعد**: (كاتب باحث، كتب العديد من الدراسات المتميزة في الأدب الحديث ـ وأنجز أجمل ترجمة لأشعار من ناظم حكمت أصدرها عام ١٩٥٢ ـ وهو، الى هذا، طبيب بيطري بارع) ـ **حبيب صادق**: (كاتب شاعر، له كتابات نثرية تتوهّج بالروح الشعري وجماليات اللغة، منشّط ثقافي، مناضل فاعل في الميدان

السياسي) ـ **أحمد أبو سعد**: (باحث وشاعر، له دراسات في التراث العربي والعادات الشعبية. وأصدر لاحقاً «معجم أسماء الأسر والأشخاص". وكان مع محمد عيتاني يشيعان المرح في «المعسكر» كله..) ـ **أحمد سويد**: (محامٍ وقصّاص، وله مقطوعات في السياسية بأسلوب أقرب الى النثر الفنّي ـ وقد ترجم لاحقاً مجموعة من أشعار: بابلو نيرودا) ـ **منير البعلبكي**: (كاتب باحث ـ وضع موسوعة مبسّطة باسم «المورد»، وخلال «ثورة ٥٨» كتب مقالات سياسية شبه يومية نشرها في كتاب بعنوان «أوراق ثورية») ـ **أسعد سعيد**: (شاعر شعبي شهير ـ وألقى العديد من أشعاره في أمسيات المركز) ـ **ناظم إيراني**: (رسام معروف، وقد رسم صورة جميلة لأبو فريد تعبّر عن حبه له وتقديره) ـ **يوسف خطار الحلو**: (قيادي شيوعي، كاتب وباحث في الاقتصاد والسياسة والذكريات ـ كان يتواجد في المركز باستمرار، ويشارك بفعالية في الحلقات الدراسية) ـ **أحمد غربية**: (كاتب ومترجم، نقل الى العربية عدة كتب تقدمية، وأصدر كتيّباً سرد فيه وقائع من أحداث انتفاضة ١٩٥٨) ـ **نزار مروة**: (ناقد موسيقي أولاً، وكاتب في النقد الأدبي، وكان يشارك في الحلقات الخاصة بالآداب والفنون، ويُنعش أرواحنا بعزفه أحياناً على «الفلوت»..) ـ **أحمد عُلبي**: (كاتب باحث، وله كتب في التراث العربي، واشتهر بكتاباته عن ثورة الزنج) ـ أما الرفيق **كريم مروة** فلم يتواجد في المركز بصفته ككاتب سياسي، بل كان يشرف على العصب

الأساسي للمركز: كان رئيساً للحرس، ومسؤولاً عن غرفة السلاح.

لقد حرصت على إيراد اختصاصات هؤلاء الكتاب والفنانين، بهدف تعريف القارىء، في أيامنا هذه، على قوة الجذب التي كان هذا المركز، الشيوعي، يتمتع بها في بيروت (الغربية!) بحيث يجذب هذه النوعيات من الكتّاب والفنانين، وتلك الوجوه من قادة مراكز «المقاومة الشعبية» في أنحاء هذا القسم «الغربي!» من بيروت.

... وبهذا ظلّت مدرسة «عائشة أم المؤمنين» مدرسة، ولكن من نوع آخر: وذلك في دروسها وتدريباتها وطلابها من المقاتلين والمثقفين المعروفين في لبنان وعلى النطاق العربي.

وكاتب هذه السطور (**محمد دكروب**) كان من هؤلاء الكتاب ومن المداومين على التدرّب باشراف العزيز الصديق والرفيق **أبو فريد**، الذي كرّمني فألحقني بفريق الحرّاس الليليين، في الخنادق الأمامية المحيطة بالمركز وداخل «حرش» بيروت.

في هذا الكتاب «خبريّة» رواها أبو فريد عن رفيقه في الحزب، وتلميذه في التدرّب على السلاح، وجاره لاحقاً، في بناية واحدة، حيث قرأ له العديد من كتاباته السابقة واللاحقة: صديقه محمد دكروب، فكتب عنه يقول:

«... الرفيق محمد دكروب، كنتُ أعرفه من خلال مقالاته في جريدة (التلغراف)، ولم أعرفه شخصياً إلا عام ١٩٥٨ في المركز، وقد نجا من الموت بأعجوبة خارقة. إذ إنه بينما كان يقوم بالحراسة ليلاً أصيب بطلق ناري في عنقه من الجهة الخلفية، ولم تخترق الرصاصة سوى الجلد ومسحته. وأعتقد بأن هذا القطوع هو أصعب ما مرّ على هذا الرفيق الأديب مؤلف كتاب (جذور السنديانة الحمراء)..».

... هذه الجملة المكثّفة جداً، تحمل ـ بذاتها وعلى إيجازها ـ عدة تواريخ من حياتي، وحياتنا. وقد أقول، إنها تجمع بين قطبين من تاريخي الكتابي: منذ مقالاتي الأولى في جريدة «التلغراف» التي كان يصدرها الصحفي التقدمي نسيب المتني، والتي حملت مقالات لي خلال العامين ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠ (أي: قبل استشهاده الفاجع الذي أريد له أن يكون «سبباً مباشراً» لانفجار الانتفاضة الشعبية نفسها التي أكتب الآن عن أحداثها) مروراً باشتراكي المباشر في أحداث ذلك العام (١٩٥٨) وصولاً الى إصدار كتابي الأساسي «جذور السنديانة الحمراء» الأحبّ الى نفسي بين جميع كتبي.. ولعلّه أن يكون ـ كما أظن ـ أحب كتاب لي قرأه أبو فريد، هو وأفراد عائلته!

* * *

يمكنني القول (كما أوحت لي تلميحات أبو فريد ومسارات حياته لاحقاً...): إن مرحلة خروجه من الجيش، عام ١٩٥٨، شكّلت حدثاً مهماً في حياته النضالية، ومشاركته، عملياً وعلنياً، في العمل التعبوي للمناضلين الشيوعيين والأصدقاء والوطنيين عموماً ـ في تلك الفترة ـ وبالأخص وسط جماهير العروبة وعبد الناصر وذوي النزوع التحرري التقدمي... فمارس أبو فريد نشاطاً كفاحياً متعدّد الأشكال والأبعاد والتأثير.. وكانت قيادات هذه الجماهير ترى فيه قائداً عسكرياً وسياسياً وحتى إنسانياً، محاطاً من هذه الجماهير بالحب والتقدير والاحترام، على الرغم من وجود أصوات قليلة جداً كانت تشير بنوع من التشكيك الى «مسيحيّته»!. أما الأصوات الأعلى والأوسع والأجمل فكان أبو فريد بالنسبة لها: قائداً وطنياً، عروبياً، غير طائفي بالمطلق، بل ضد الطائفية بحزم ووضوح، وعلمانياً يجاهر بعلمانيته التي تعني ترسيخ فكرة المواطنة بين الناس، والعمل من أجل التحرر والتقدم، والمساواة أمام القانون، واحترام جميع الأديان وضمان حريتها وممارسة شعائرها، وضمان ممارسة هذه الشعائر.

... لهذا كله، ولصفات إنسانية فيه أعمق وأشمل، كان أبو فريد يتمتع ـ عفوياً وعملياً ـ بصفة قائد عسكري وقيادي سياسي بين مختلف الناس والفرقاء في هذه المنطقة.

ولن أنسى، ما حييت، تلك الجولات المسائية الطريفة والأكثر من ضرورية، التي كان من مفاعيلها المباشرة إنقاذ الوطن من مآسٍ قد تؤجّج الشعار الطائفي: فقد كان بعض المسلحين «غير المنضبطين»! يبادرون الى التوجّه بسيارة «ڤان» الى وسط البلد، يشحنون فيها عدداً من المسيحيين، كيفما اتفق! ثم يزجّون بهم في مخافر المقاومة!! فكان من مهمات أبو فريد الأساسية وشبه اليومية: أن يجول مع عدد من المناضلين، على مختلف هذه المخافر ليعمل على إطلاق سراحهم جميعاً... وذات مرّة كنت من ضمن الشباب المرافقين لأبو فريد، أرى كيف كان يتاح له ذلك، وهو المسيحي؟!

كان واضحاً: إن كل قيادات المراكز/ المخافر، في «المنطقة الغربية»، كانت تعتبر أبا فريد واحداً من أهم قادة المقاومة والسياسة الوطنية في المنطقة. ولكن هذا وحده لم يكن يكفي لاطلاق جميع المعتقلين، فكان أبو فريد يشير الى كل واحد منهم يسأله عن اسمه، بدون أي تدقيق، ثم يقول الى رئيس هذا المخفر: هذا الشاب من الشيوعيين أنصار الثورة!.. وعن الآخر: أعرف أنه عروبي!.. وثالث: إنه من محبّي عبد الناصر!.. ورابع: أعرف أنه وطني آدمي!.. وهكذا يُطلق أبو فريد ـ بعد الإذن من رئيس المخفر ـ سراح جميع «المعتقلين».

وذات مرّة صدف أن سأل أبو فريد أحد هؤلاء عن اسمه

فقال إنه من بيت بسترس.. فأسرع أبو فريد الى القول لقائد المركز: إنه شيوعي معروف!.. فأبدى قائد المركز دهشته واستغرابه قائلاً بنبرة المتسائل المندهش: ولو يا أبو فريد؟.. من عيلة غنية كتير، وشيوعي؟!.. كتير هيك!..

أبو فريد يجيب بهدوء: بيصير يا أبو الزعيم، بيصير!.. في كتير أغنيا شيوعيين!.. ولو، ما بتعرف المهندس الكبير انطون تابت؟.. ليس فقيراً أبداً، وهو ماروني أيضاً، ويمكن يصير رئيس جمهورية، ولكنه شيوعي على راس السطح.. يلّلا يا أبو الزعيم، اترك هالشيوعي كرمالي.

ـ والله لولاك يا أبو فريد لكنت عملت وسوّيت بِهلْ ابن الـ ...الأغنيا... بس إنت عزيز، عزيز علينا كلنا.. (والله والنبي محمد) أنت وانطون تابت على راسنا من فوق يا أبو فريد.

... وأجزم أن أبا فريد استطاع أن يطلق سراح المئات من أمثال هؤلاء «المعتقلين» بقوله إنهم إما شيوعيين أو وطنيين أو عروبيين أو مجرد أوادم!.. فقال له رئيس أحد هذه المخافر: ولو يا أبو فريد؟. يعني هلّق صاروا كل سكان الشرقية والأشرفية شيوعيين؟. تخينة، ما هيك؟.. بس شو منعمل، أنت بِتْمون يا أبو فريد.

وكان أبو فريد موقناً أنه لو لم يلجأ الى هذه «السياسة» مع رؤساء مخافر «المقاومة الشعبية»، وترك الأمور تجري كما يُراد لها، لكان قد سقط ـ قصداً أو مصادفةً ـ عدد من

الضحايا.. ولكان الشعار الطائفي قد أحرق البلد بأكثر مما هي تحترق، مسبّباً المزيد من الآلام والفواجع للعديد من العائلات، وبالأخص الفقراء... فمن الذي كان يقصد وسط البلد سوى الفقراء، من المسلمين والمسيحيين، يسعون وراء لقمة عيشهم والحصول على بعض الأجر لقاء أعمال لا يقوم بها إلا الفقراء والمحتاجون والذين شرّدتهم الأحداث عن أماكن عملهم؟!

وفي هذا السياق نفسه من العمل بهدف إطفاء الحرائق الطائفية أو ازالة أسبابها المباشرة، أذكر: أن **الخوري طانيوس منعم**، الأب المستنير والكاتب التقدمي، كان أيضاً يزورنا في المركز، في زيه الديني الأسود، ولحيته الوقورة أحياناً والضاحكة غالباً... وذات عصر صحبه أبو فريد مع عدد من الرفاق للتجوّل في شوارع المنطقة وزيارة عدد من القيادات، فكان الترحيب **بالأب منعم** أسطورياً: تهليل وزغاريد ورصاص ابتهاج في الهواء ورشّات أرزّ فوق رؤوس زوّار الوطنية والسلام والمقاومة.

مثل هذه المبادرات المتتالية، عزّزت كثيراً من نفوذ أبو فريد في هذه الأحياء ورسّخت المحبة الشعبية له، وتعاطف الناس مع الشيوعيين، وهذا هو هدف أبو فريد الأساسي وبالأساس.

ولعلّ هذه المبادرات، وكثير غيرها، كانت في ذهن أبو فريد وضميره، عندما كتب في مذكراته هذه الكلمات الطالعة من خبرة شيوعي مجرِّب:

«إن أقوى دعاية يقوم بها الشيوعي ليس فقط ما يتكلّم به، أو يطرحه من شعارات، أو يتعمّق بدراسة الماركسية، وبخاصة أولئك الذين يردّدون آياتها بشكلٍ ببغائي وينسون بأنها، أي الماركسية، مرشد للعمل... أقول: إن أقوى دعاية يقوم بها الشيوعي هي ممارسته العملية وتفانيه العملي وربط الكلام بالعمل...».

* * *

نصل الآن الى فترة حرجة ـ ومحرجة ـ من حياة الرفاق، وحياة البلاد، وحياة أبو فريد:

فقد سبق لكميل شمعون أن طلب من الأميركان التدخل العسكري لحماية حكمه، ووضع حدّ لهذه الانتفاضة ضده!.. فكان هؤلاء الأميركان ـ لأسباب وأسباب! ـ يطوّلون بالهم ويطلبون منه أن يطوّل باله!!. ولكن، ما أن وقع الانقلاب في العراق ضد النظام الملكي وحكم رجل الانكليز نوري السعيد، حتى أسرعوا لإرسال قواتهم إلى لبنان لأهداف لا تتعلق بلبنان فقط، بل بالعراق أساساً وبالمنطقة كلها وبالخوف على فقدان الثروة البترولية من سيطرتهم.

أصدر الحزب الشيوعي بياناً، بتوقيع **نقولا شاوي** الأمين العام للحزب، يدعو الشيوعيين بأن يردّوا على أي عدوان أميركي بكل ما يملكون من سلاح أو شتى الوسائل والأدوات لتوجيه ردود مؤلمة على كل اعتداء اميركي مسلح... وقد كان واضحاً أن «زعماء» البلاد، على اختلاف توجّهاتهم، لا يريدون أي مجابهة ولا حتى أي تحرّش بسيط بالأميركان، بل هددوا بقمع أي عمل يستفزّ الأميركان!!

الشيوعيون كانوا **جزءاً من كل** في المعركة ضد شمعون... فاضطروا الى ممارسة أعمال فردية، هنا وهناك، ضد الأميركان بوسائل غير الوسائل المسلحة: من ضرب لجنود أميركان، وتجريدهم من سلاحهم الفردي، وبعض تفجيرات جرت بدون إذن من قيادة الحزب.. وبعض عمليات جرت ـ باذن وتوجيه ـ ولكن بشكل سرّي «حرصاً على الجبهة الداخلية، الهشّة أصلاً!»..

وحدث أن تمركزت قوة أميركية بالقرب من المركز العسكري التابع للحزب في مطلع حرش بيروت، وفي شكل يوحي بأن هذه القوة هي بمثابة حركة تمهيدية لتطويق المركز، فتجمهر المئات من الشيوعيين هرعوا من مختلف شوارع بيروت، بسلاح وبدون سلاح، وتمركزوا على بعد أمتار قليلة من القوات الأميركية، مستعدين للموت لو بدر من الأميركان أية بادرة تقدّم أو اقتحام أو إطلاق رصاص ولو إرهاباً في الهواء..

أما أبو فريد ـ (الذي كان يعرف جيداً حقيقة مواقف «القيادات التقليدية والزعامات»، وحتى البعض أيضاً من غير التقليديين!) ـ فقد كان يغلي في داخله، ولكنه يتصرّف بكامل الهدوء (الديسبليني)... في ظاهره!

كان واضحاً، إذن، أن الدبابات الأميركية تتقدّم، ببطء شديد، في اتجاه مركز الشيوعيين المقاوم... وكان واضحاً أكثر أن الشيوعيين، الذين يتزايد تجمهرهم، قد تمركزوا بمواجهة الدبابات مستعدين للقتال في أية لحظة ومستعدين للموت دفاعاً عن المركز وعن الوطن...

... وقد صار واضحاً ـ فيما بعد ـ أن اتصالات «زعماتية عليا» جرت مع القيادة الأميركية تحذّرها بأن هذا المركز هو للشيوعيين، وأن على الأميركان أن يتجنّبوا أي صدام مع الشيوعيين، الذين يتوافدون ويتجمّعون حول المركز، قادمين من كل أنحاء العاصمة، لا يهابون الموت.

.. فتوقف تماماً زحف الدبابات!!

ولكن، على الرغم من كل هذا الجو الكابح والضاغط والمحذّر، نظّم أفراد من الشيوعيين بعض العمليات والتفجيرات هنا وهناك، وقد شارك أبو فريد في واحدة من هذه العمليات أرعبت القوات الأميركية المتمركزة في وسط المدينة ـ (أبو فريد يسرد، في مذكراته هذه، بالتفصيل وبالأسماء الكثير من هذه الأمور).

* * *

. . . ولكن مذكرات أبو فريد تقف هنا فجأة!

ينقطع السرد، تصمت مذكرات أبو فريد، فلا نعرف منها شيئاً عن نشاطاته اللاحقة (بعد أحداث ١٩٥٨) لا داخل الحزب والعلاقات مع الرفاق، ولا في المناطق والمنظمات!

ولا أدري سبب هذا التوقف! فهل تعب أبو فريد من الكتابة، هو الذي لا يتعب؟.. أم أن الصفحات الباقية قد ضاعت؟.. لا أدري!

ولكن، هل لا يزال في الامكان استكمال حكاية أبو فريد، يسردها من يعرفها ممّن بقي منهم في الحياة، وفي الحزب، لتكتمل صورة هذا المناضل الشجاع، المخلص والواعي والمقدام، والقريب القريب الى قلب كل من عرفه؟

* * *

لاحقاً، أتيح لي أن أجاور هذا الانسان المتعدّد الصفات والقدرات، القوي جسدياً والقوي أخلاقياً... الصلب حزبياً، والمرن ـ حزبياً أيضاً ـ الى أقصى حدود المرونة لتوطيد علاقات الحزب مع الناس... الحازم دائماً، والضاحك المزوح والظريف دائماً أيضاً.

وعندما جاورناه في واحدة من طبقات عمارة واحدة، صارت علاقاتنا أكثر قرباً وأشد متانة.. صرنا جميعاً أفراد عائلة واحدة، معه، مع أم فريد، المؤنسة والخجولة والناعمة

جداً، الصبورة جداً، والصلبة جداً الى جانب أبو فريد والأولاد الأعزاء عليه، عليها، وعلينا.

واذا كانت حكايات هذه الجيرة العزيزة والجميلة لا تدخل في موضوعات هذا الكتاب، وموضوعات هذه المقدمة، فهي تدخل ـ بالتأكيد ـ وتتمازج في موضوعات القلب وعمق الصداقة وحلاوة الجيران.

(أيار ٢٠١٠) **محمد دكروب**

مذكرات أبو فريد

ولدت عام ١٩٢٥ في "عندقت" قضاء عكار من عائلة تعتبر حتى الآن من العائلات الرئيسية في القرية، "عائلة البيطار"، ومن أب احترف الجندية وكان الوجه البارز الطيب الشعبي المحبوب المتفاني في خدمة الناس. هذا بالاضافة إلى أنه كان وجيه العائلة، وأحد وجهاء القرية الفاعلين في مختلف نشاطاتها.

وطبعاً "عندقت" كبقية القرى اللبنانية النائية، تفتقر إلى كل شيء، الماء والكهرباء وحتى المدرسة، هذا بالإضافة إلى الوضع الاقتصادي السائد آنذاك، حيث الإقطاعية لا تزال حتى الآن لها الكلمة الأولى في تقرير مصير أي إنسان، ولا يوجد وسيلة انتاج آنذاك سوى بعض الأعمال اليدوية وأدوات الحراثة البدائية، وكلا العملين لا يسد الرمق ولا يمكن الإنسان من العيش إلا بالكفاف.

من هنا نرى بأن معظم أبناء تلك القرى كانوا يتركون قراهم، إما للمهجر أو إلى الوظيفة الحكومية أياً كانت تلك الوظيفة، لأن الموظف كان له امتياز نوعاً ما من حيث تمكّنه من ممارسة وظيفة تبعده عن الأجواء التعيسة التي كان يعيشها محيطه القروي والمكبّل بالممارسات الاقطاعية.

من تلك الوظائف كان الانخراط في الجيش وهو الطابع الوظيفي الغالب على قريتنا "عندقت" إذ إن ٩٠٪ من وظائف "العنادقة" هي للجيش ثم الدرك ثم الامن العام أو الهاتف، ومن النادر أن تجد موظفاً عندقياً خارجاً عن هذه الإدارات الأربع.

و"عندقت" من تلك القرى العكارية الجميلة حيث تقع على رابية ترتفع ٧٥٠م عن سطح البحر، وتتقاطع في وسطها الطرقات المؤدية إلى "شدرا" وإلى "عيدمون"، وإلى بقية القرى الحدودية العكارية الشمالية. وهذه القرية لم تعرف التعصب الطائفي برغم أنّ هذا المرض اللعين قد أصاب معظم القرى المارونية، وإنْ مرّ عليها هذا الطاعون فقد كانت محصّنة ضده، والضحايا لا تذكر بالنسبة لما كانت تبثّ لها تلك القوى الشريرة العاملة دائماً تحت شعار "فرّق تسد". وأفضل الأفراح في عندقت كانت الاعياد الدينية حيث كنت ترى في أعياد المسلمين أفراداً أو عائلات من القرية يقومون بزيارة أهل المشاتي "مفردها مشتى" حسن وحمود وأكروم والبيرة الخ.. للتهنئة بالمناسبة. وكذلك في الأعياد المسيحية كانت عندقت تعيش أحلى أعراسها. في هذه الأجواء كانت تعيش الطوائف عندنا في إلفة قلّ نظيرها. وهي لا تزال حتى الآن، على الرغم من كل ما حل ببلدنا من مصائب، تعيش تلك الأجواء المفعمة بالمحبة والتفاهم.

وكان يزيد تلك الاعياد بهجة وفرحاً عودة أولئك

العكسريين أو الموظفين إلى القرية بمأذونياتهم السنوية، فيقام في كل بيت فرحة بالعائد، حيث يجتمع معظم أقربائهم، وكلّ ينقل معه العرق وما تيسر من طعام في البيت، فتصبح الطاولة عامرة بمختلف أنواع الأطعمة و"خود بعدين عتابا وميجانا وأغانٍ مختلفة" حتى منتصف الليل فيعود كلّ إلى بيته بعد ان يكون قد تمتع بأمسية لا يشعر بمتعتها إلّا من شارك فيها. مع العلم بان تقاليد كهذه كانت ولم تزل، على ما أعتقد، موجودة في معظم القرى اللبنانية، إذ إن هذا النوع من المشاركة في الافراح هو تقليد عام في معظم القرى.

كان والدي جندياً في الجيش الفرنسي "جيش الشرق" حيث تألفت أول سرية من ذلك الجيش في عندقت على ما أعتقد. وعند عودته كان يلتئم شمل العائلتين فخر والبيطار. وكانت والدتي إذذاك في قمة بهجتها وزينتها! مع أطيب المأكولات التي تكون قد هيأتها لزوجها وأشقائها وللأقرباء من العائلتين الذين هم بدورهم، كما أسلفنا، ينقلون معهم ما أمكنهم من مشرب ومأكل.

في هذا الجو المتعاون والمتعاطف، كنت أتمنى لو يمرّ الوقت سريعاً، وقد وضعت نصب عيني الدخول في الجندية. وقد حققت طموحي في انخراطي في الجيش سنة ١٩٤٣. وهي سنة دخولي أو بالاحرى تعرفي على الأحزاب السياسية في البلاد. حيث كنت لا أعرف من السياسة إلا أن فرنسا

"أمّنا الحنون" وهذا ما كانت تلقننا إياه راهبات اليسوعية في مدرسة القرية.

لم يخطر ببالي ابداً ان اكتب ما حدث لي في الحياة لولا أنني أريد أن أحث كل إنسان، مهما كان مركزه الاجتماعي، أن يندفع في خدمة وطنه وبلاده وشعبه إلى اقصى حدود الاندفاع، ذلك أنني من خلال ممارساتي للعمل الوطني تأكد لي بأنه كلما ارتفع وعي الإنسان العادي واندفاعه في العمل الوطني كلما كانت النتيجة أفعل وأجدى. على أن يكرس المرء معظم جهوده لتحقيق قناعاته غير آبه بما يعترضه من صعوبات ومخاطر، لا أن يأمل من نتيجة عمله أن يحصل على المراكز المرموقة أو غيرها. وعليه أن يعمل على سعادة الكادحين أينما وجدوا.

كنت على اتصال ببعض الادباء والمؤلفين، وكنت اراهم يخلقون اعمالاً أو أحداثاً أو أبطالاً من تخيلاتهم أو تصوراتهم أو استناداً لما مرّ بهم بشكل عابر تقريباً. وفي كل مرة أقرأ إحدى الروايات أقارن بين محتوى هذه القصص والروايات وما تصوره من بطولات ومعجزات وبين ما حدث معي بالفعل. وقد حفّزني ذلك لكتابة ما صادفني من أحداث وصعاب كان من بينها تنفيذ أحكام إعدام! وأن أسردها كما هي، دون زيادة أو نقصان. وليس لي هدف من تقديم قصة حياتي هذه سوى ما أسلفته من إفادة معنوية لمعارفي وأقاربي، ورفاقي الذين كان لي شرف مواكبة مسيرتهم الطويلة

والشاقة والذين سيتابعون المسيرة على طريق تحرير الكادحين الشرفاء، ليس في لبنان فحسب، بل في العالم أجمع، مظهراً ومؤكداً بأن النضال الاجتماعي ليس وقفاً على الأفراد والأبطال، بل يتوقف على ما يبذله كل عنصر في مكانه مهما كان وضعه الاجتماعي. أرجو المعذرة فيما لو كان أسلوبي مغايراً لأساليب الآخرين من المؤلفين والأدباء، أو لأنني وضعت بعض الحواشي الكلامية في غير موضعها، ذلك إنني لست مؤلفاً ولا أديباً بل إنني مناضل عادي رأى من المفيد تقديم سيرة حياته، وفق ما سمحت له ذاكرته في استيعاب الاحداث ولم تسمح له أحياناً بتحديد تواريخها.

إسبر البيطار

في مدرسة القلبين الأقدسين: لم تكن في قريتنا سوى مدرسة للراهبات، وأعتقد بانها بُنيت في سنة ١٩٢٢ مع قدوم بعثات فرنسا اليسوعية، حيث كانت تلك المدارس تأسست في القرى ذات الطابع الماروني.

كنت من الأوائل دائماً، ولم أسجّل نتيجة الدرجة الثانية ولا مرة طيلة حياتي الدراسية، بل كنت الأول في جميع الأشياء، بما فيه المقالب والاعمال العشائرية كالغزو والسطو على املاك الغيرّ حيث كنت أنتمي "لعصابة" من شباب العائلة، وكان ترتيبي الثالث من حيث العمر. ولقد كان ابن خالي الياس اكبرنا سناً وهو الريّس طبعاً وبعده شاهين ثم أنا. ولكنني لم أتخلّ عن ترتيبي الأول في العمل، أي نوع من العمل، سلبياً كان أو إيجابياً، حيث كان يوجد في المدرسة كل نهار اثنين محاسبة عما صنعه كل منّا من "سيئات" أو ردود على شكاوى من أهالي القرية المتضررين من اعمالنا، خلال فترة الاستراحة الاسبوعية "السبت والأحد" وفرصة الأعياد.

ترتيبي الاول كان يزعجني في معظم الأحيان حتى أنني

كنت أول من يحاسَب نهار الاثنين لشقاوتي حيث لقبتني الراهبة المعلمة بشيطان ماربولا، ومراراً كانت تقول لي: شيطان بيت اسبر، وهذان اللقبان رافقاني مدة طويلة، وحتى الآن لا يزال بعض رفاقي في الصف يذكّرونني بلقبي الشيطاني.

لائحة الشكاوى: ولا مرة كانت لائحة الشكاوى نهار الاثنين تُعلن إلا وكان اسمي هو الأول، فتنادي الراهبة شيطان مار بولا أو شيطان بيت إسبر، حسبما يخطر على بالها، ويظهر أنّ الشيطانين متساويان في نظرها. طبعاً كان الجواب بالفرنسية **present ma soeur**. حاضر يا أختي: "لماذا صنعت كذا"؟ و"لماذا صنعت كذا"؟، وتعدّد الشكاوى وأنا أعددها وراءها، وفي معظم الأحيان كنت أشكر الله على أنّ معظم شيطناتي كانت غير معروفة أو أنها لم تصل. فأبدأ بالدفاع والقسم، وكان القسم بالله ممنوعاً عند الراهبات، فالقسم هو كلمة: بالصدق يا مسير ما عملت شيء. وكانت تحمل الطبشة، وهي "عصا من خشب مبسطة مخصصة لضرب المقاصصين" صارخة في وجهي: "اشلاح" من إجرك واركع على البنك! في الايام الجميلة لم نكن ننتعل احذية إلا قصراً، والى المدرسة فقط. فكنت أطيع ولكن متمهلاً في فك الحذاء الذي كنت أنتعله كل نهار اثنين إلى المدرسة، ولكنني كنت احسب حساب العقاب، فأربط الشريط عقدة بدلاً من

أنشوطة، وهذا العمل كان يساعدني على تأجيل العقاب وأصيح "يا مسير مش عم يفك معي الشريط!".. وهنا كانت تثور ثائرة الراهبة وتبدأ الضرب على اي جزء من جسمي، فأبدأ بالصراخ والاستغاثة والركض في باحة المدرسة إلى أن أنال ما تعتبره الراهبة حصتي من القصاص. وكنت بعكس شاهين ابن عمتي الذي كان يفتح يديه الاثنتين ويقول للراهبة بصوته المرجّل باكراً: "ضْربي حتى تشبعي". وكانت الطبشة تعلو وتهبط على يدي شاهين بكل ما أوتيت الراهبة من قوة، وعبثاً كان يصرخ أو يرف له جفن، وفي معظم الأحيان كانت تنكسر الطبشة ولا ينكسر شاهين، لأنه كان يتمتع بقوة جسدية وقوة احتمال غريبين، ولا اذكر أنني سمعته طيلة حياتي بأنه تفوّه بكلمة آخ لا قتالاً ولا حرقاً. وإني لا أزال حتى الآن أحترم تلك الرجولة المبكرة والتي رافقته طيلة حياته حيث كان دائماً قليل الكلام وكثير العمل وغير متألم على الرغم من أنه ذاق الأمرين في شبابه. وهكذا كنّا كل نهار اثنين أو اليوم الذي يلي نهاية الفرص المدرسية نستعد للعقاب فلقاً من الراهبة.

العمل، قبل الذهاب إلى المدرسة: كنت كبير اخوتي ووالدي في الجيش، ومسؤولية البيت تقع على عاتقي، هذا ما كانوا يقولونه لي، وهذا تقليد عشائري متّبع وهو بأنه في حال غياب الوالد، فالابن الاكبر هو الذي يتولى تدبير شؤون

البيت والعائلة. وبحكم هذه المسؤولية كان المفروض أن أقوم بتموين البيت بالوقود، أي الاحتطاب من الحرش الكبير الذي يلف عندقت من جنوبها إلى شمالها. وبما انه لا يوجد لدينا دابة (حمار أو حمارة) لنقل الحطب فكنت استعير دواب اقربائي وأعمل بالمناصفة، أي يوم لي ويوم لصاحب الدابة (رغم صغر سني البالغ ١٢ سنة). عند ذلك خطر ببالي الكتابة إلى والدي للحضور إلى القرية ليشتري لي دابة. (حضور الجندي كان نادراً في ذلك الوقت ٣٦ و٣٧) وقد تحققت امنيتي بشراء تلك الدابة. فكنت يومياً انهض باكراً إلى الحرش بمفردي غالباً، ومع رفاق احياناً. احتطب وأنقل الحطب إلى البيت. ولم يسجل عليّ غياب يوم واحد طيلة حياتي الدراسية بل كنت أصل في معظم الاوقات قبل حلول الوقت بربع ساعة. ويا ليت مسؤوليتي توقفت عند ذلك، بل فُرض عليّ، أن أساعد والدتي في تكنيس البيت ومساعدتها في إطعام أشقائي واشعال النار في الموقد صباحاً. وبالفعل لم أرتع بطفولة مرحة في حياتي الا عندما يحضر أبي بإذن من قيادة الجيش، حيث كانت تصله اخباري المدرسية بانني ناجح جداً والرئيسة تقول له: ابنك فلتة. فهذه الكلمات جعلت مني معبود ذلك الوالد الذي لم اسمع منه خلال طفولتي كلها سوى التشجيع والثناء حتى على اعمال الشقاوة والشجار مع الاولاد، وقد كان ينهرني عندما اعود باكياً إلى البيت. فكان يشجعني دائماً على احتمال المشاق ومساعدة الضعيف، وهذا

الانطباع الذي غرسه فيّ رافقني منذ صغري وحتى الان. إذ إنه كان يمارس توصياته بالفعل، ولا يكتفي بالكلام فقط، فقد كان دائماً من صانعي الخير ونصيراً للمستضعفين. وإنني اذكر بانه بعد ١٩٤٨، أي بعد منع الحزب الشيوعي من العمل العلني، بقي والدي الوحيد المتمسك بالحزب.

لم أسجل على ذلك الوالد أي سلوك مشين، ومن المحتمل أنّ حبي وتقديري له كانا يمنعاني من رؤية أي نقيصة فيه. إذ إنه منع الراهبات من ارسالي إلى فرنسا للدراسة على نفقتهم، حيث كنت المرشح الوحيد للذهاب. وعلى الرغم من الضغط الذي تعرض له والدي من الاب الفرنسي شيفري، وهو أب يسوعي، كان مفتشاً للمدارس اليسوعية في الشمال ومن ضابط فرنسي لا اذكر اسمه. وحين خُيّرت بين الذهاب والبقاء قلت لهم: "الأمر يعود إلى والدي"، وكان عمري آنذاك لا يتعدّى الأربعة عشر ربيعاً.

وهكذا بقي والدي مصراً على رأيه معتبراً ذهابي للدراسة في الخارج سيفقده ولده البكر وهو ذراعه الأيمن بالنسبة للبيت، وقد كان خائفاً أن يجعلوا مني أباً يسوعياً، لأنني كنت أيضاً افضل شماس في المدرسة وكنت اخدم القداس يومياً. ولا اعلم اذا كان والدي على حق في هذا التصوّر أم انه كان مخطئاً. فحياة الإنسان محطات، وفي كل محطة هناك عدّة مفارق.

مساعد لراعي البقر: كانت قريتنا ككل القرى آنذاك تعيّن راعياً للبقر، حيث تجتمع كل الحيوانات صباحاً في المكان المخصص مشكلةً قطيعاً كبيراً مؤلفاً من البقرات الاناث والعجول الصغيرة والمتوسطة والحمير. ونظراً لضخامة القطيع كان الراعي يغرينا بمساعدته لرعاية القطيع ببقائه في أمكنة محددة بعيدة عن الأراضي المزروعة أو المثمرة. وكنا نقضي معظم النهار في مشاركة الراعي الاهتمام بالقطيع حتى المساء، فتكون المكافأة عند ذلك امتطاء الحمير واجراء السباقات المتعددة القصيرة منها والطويلة حسب منعطفات الطريق، إلى أن نصل إلى القرية ويعود كل حيوان إلى مزربه، فيقوم مالكوه باستلامه، فيربط ويعلف ويحلب البقر.

عادات اندثرت: كان يوجد بين النساء عمل تعاوني او نوع من "الاشتراكية". فالنساء اللواتي يملكن بقراً حلوباً يؤلفن جمعية فيما بينهنّ، فيجمعن الحليب يومياً عند واحدة منهن لمدة أسبوع او أسبوعين بحسب مقادير الحليب التي تقدمها كل واحدة، وتحفظ كل منهن كمية الحليب التي قدمتها طيلة مدة الدورة. وهكذا، ينتقل الدور، من بيت إلى آخر، فتبدأ كل منهن بتقديم الحليب وتعيد ما استدانته اثناء دورها ثم تسلّف الأخريات، إلى ان ينتقل الدور إلى بيتٍ آخر الخ... حتى يأتي الدور على الجميع ثم تعاد العملية مرة اخرى. وكانت اجمل الاوقات الصباحية عند الاستماع إلى اصوات النسوة وهنَّ يتشاجرن ويصفن بعضهن بعضاً بأوصاف

ونعوت لا توجد في اي قاموس في الدنيا. فالتي تتهم رفيقتها بسوء الامانة كمزج الحليب بالماء، أو الزعبرة بالكيل أو الكذب بقيمة الحليب المسلف. ومعظم الاوقات تنتهي المشاجرة بالكلام البذيء، ونادراً بشد الشعر أو طرد المشاجِرة من الدور. فهذا العمل التعاوني لم يبق منه سوى الذكريات. وما أجملها تلك الذكريات.

شمّاس في الكنيسة: القداس اليومي هو اجباري للراهبات ولتلامذة المدرسة، وكذلك الزياحات المسائية لشهر المريمات وشهر قلب يسوع وشهر الصوم وتسعاوية الميلاد، إلى آخر ما هنالك من مناسبات دينية، وطبعاً كل مناسبة تختلف طقوسها عن الثانية، فكنتُ ايضاً مجلياً في الصلاة والترتيل وكنت الشمّاس اليومي لكنيسة ماريوسف "دير الراهبات" حيث كنت على اتفاق تام مع الخوري سمعان الذي كان بالفعل من الخوارنة الذين لا يعرفون القراءة إلا بشبيّته (كتاب خاص بكل خوري يتلو فيه صلواته اليومية) وكان لا يعرف من الفراميات سوى "نهديك السلام يا مريم..." و"يا صالحاً أبد الوجود". وهذه الصلوات الأخيرة كان يتلوها بالقداديس الاحتفالية. مع العلم بان لكل قداس إفرامية[1] شِكِلْ. والكل كان لا يلوم الخوري سمعان باعتبار

(١) إفرامية: نسبةً إلى مار إفرام أحد المرتلين الأوائل في الكنيسة.

انه لا يعرف اكثر من ذلك، وكانوا يقولون: الصلاة بالنيّات وليس بالتراتيل. وكنت آخذ عنه دوره في الترتيل بينما هو يفتعل الانهماك بالصلوات وترتيب أدوات التقديس.

الصلاة من أجل الفقراء: كنت مولعاً بالصلاة من اجل الفقراء، وكنت اطلب كثيراً من الله ومن العذراء مريم ان تكون مواسم الفلاحين جيدة، الشتوية منها والصيفية. بحيث كنا نقوم بصلاة خاصة بكنيسة السيدة، خصوصاً عندما لا تمطر السماء فيزداد التضرع وترتفع حرارة التوسّل واستجداء المطر من الله بشفاعة قديسيه، وكنت على يقين بأن الله والقديسين سيستجيبون لتضرعاتنا وتوسلاتنا، وكنت أصل في بعض المراحل إلى البكاء. وكان الله يخيّب آمالنا في معظم الاوقات، ولكن عندما يصادف هطول الأمطار ولو متأخراً، كنا نعيد ذلك إلى صلواتنا.

هذه الصلوات كانت تكلفني جهداً كبيراً. وبما انني كنت المتفوق دائماً في صفّي، فكنت أجمع جميع اقربائي وزملائي من الصف أو من غير الصف، وأعلّمهم دروسهم وأنفّذ لهم فروضهم اليومية، وكل ذلك الجهد الذي أبذله كان لقاء مرافقتهم لي إلى الكنيسة لنصلي من أجل الفقراء ومن يتخلف عن مرافقتي أمتنع عن مساعدته واشكوه إلى اهله حيث ينال جزاءه، ولم يتخلف عن الصلاة الا القليل منهم.

كلب خالي عبدو: كنا في صلاتنا نبتهل إلى العذراء كي تلهم خالي الميسور ليوزع ما لديه في المستودع من مواد غذائية وزراعية إلى فقراء العيلة. ولكن خالي الميسور واحد من الوجهاء الفاعلين في القرية. كان يحب النساء وعطاءاته لا تشمل الا المحظوظات بعطفه، والصلوات لم تكن تقدم أو تؤخر في ميوله مما اضطرني للجوء إلى السرقة من المستودع ليلاً. ولكنني اصطدمت بالكلب الذي كان ينبح في كل مرة اقترب فيها من المستودع فما كان مني إلّا أن أصادقه حيث بتّ أجلب له معي كل مرة بعض الخبز والطعام، وألعب نهاراً مع أولاد خالي حتى أصبح يعتبرني من العائلة، وهذه الصداقة سهلت لي سرقة بعض المواد التي كنت أوزعها على الفقراء من دون أن يعلم أحد مصدرها، وقد اعترفت للخوري سمعان الذي هو صديق لي بفعلتي هذه فقال لي بأنها أعمال مشروعة وليست خطيئة، وعلى كل حال سأمنحك البركة فيغفر الله لك، ولكن إياك أن تسرق لنفسك. وعندما اطلعته على اضطراري للسرقة لعدم استجابة القديسين لصلواتي انتهرني ونبّهني بأن أغير اعتقادي هذا وإلا!!!

الاعتداء على أملاك الدير: من المحرمات عندنا، نحن المسيحيين، مس أي شيء يخص الدير، فمال الدير هذا مال وقف، فمن يمسّه أو ياخذ منه شيئاً فعقابه عند الله شديد، والعقاب لا يشمل الفاعل فقط بل يشمل جميع أفراد العائلة.

وفي إحدى المرّات كنت ماراً بالقرب من حديقة الدير المغروسة بأشجار اللوز، وكان يومها موسم اللوز الأخضر، فمددت يدي حذراً، وطبعاً بعد أن تأكدت بأن أحداً لا يراني، وما ان اقتربت يدي من الغصن حتى انتابني خوف شديد لئلا تبقى يدي ممدودة (أي يصيبها الياس كما كانت تقول الراهبة) فأعدتُ يدي إلى وضعها الاول ولم أحس بشيء تغير فيها مما شجعني لمحاولة ثانية حيث أمسكت بالغصن وقطفت ما تيسر لي من حبات اللوز التي أكلتها من دون أن أصاب بشيء. وقد تعددت محاولاتي هذه وشملت كرم العنب وغير ذلك من المزروعات التابعة للدير، وفي كل مرة كان الخوري سمعان يمنحني البركة والغفران، ودائماً فرض التوبة بعد الاعتراف: خمس مرات أبانا الذي في السموات... وخمس مرات السلام عليك يا مريم. وهذا النوع من الجزاء كان هو الوحيد عند الخوري سمعان مهما كانت الخطايا التي يعترف بها التائب.

عدائي للأغوات والبكوات: كانت ستي حنّة "أم والدتي" تخبرني عما حلّ بنا من الحكم التركي، وكيف أن المسيحي مهما كان وضعه الاجتماعي كان عليه، عندما يمر في قرية البيرة"[٢] أن يترجّل عن الحيوان الذي يمتطيه، ويسير على

(٢) قرية من قرى عكار وكل سكانها كانوا بكوات.

الطريق حانياً رأسه، وبالتالي يُمنع عليه الالتفات يميناً أو يساراً، ومن يخالف هذا التقليد، طبعاً من المسيحيين فقط، كان يشنق على شجرة من الدلب كبيرة لا تزال موجودة حتى الآن، أو يُجلد، وكان الوحيد غير الخاضع لهذا التقليد هو جدّي اسحق داود البيطار، وهو الوحيد أيضاً في عندقت الذي كان لديه حصان، وفي الوقت نفسه كان مختاراً للقرية. وعندما كنت أسأل ستي عن سبب هذا الإعفاء كانت تقول لي: جدّك رجال آدمي ومحترم وكان قبضاي، وما بعرف يا ستي اذا في شي اتفاق بين بعضهم، ويكتر خير فرنسا ياللي خلصتنا من هالحالة.

لهذه الحكايا كنت أثور غضباً، لذلك بت أبيّت الشر لكل من يركب حصاناً ويمر في قريتنا عندقت، فأعتبره إما بك أو آغا. لذلك كنت أتربّص في أحد السياجات التي تحيط بالبساتين والتي تقع على الطريق العام، مزوداً بنقّيفتي[٣] أو ببعض الحصى الصغيرة التي تُستعمل في هكذا حالات، وما أن يمر بي الخيّال ويبتعد عني مسافة عشرة أمتار، حتى أبدأ بقذف الحصى من نقّيفتي على الحصان وعلى صاحبه. فيجفل الحصان ويركض بالسرعة القصوى، وفي معظم الاحيان كان الخيّال يفاجأ بحصانه يجفل. قد تذهله المفاجأة ويرتبك، وفي

---

(٣) نقيفة: هي إحدى الأدوات البدائية التي كانت تُستعمل لصيد العصافير. وقد استعملت اثناء المظاهرات الطلابية في بيروت لرشق رجال الدرك بالحصى الصغيرة.

معظم المرّات، كما قلت، يقع أرضاً. فما أن يكون الآغا أو البك قد أفاق من المفاجأة، إلا وأكون قد ابتعدت كثيراً من المكان. ولم أذكر مرة واحدة أن وشى أحد بي على الرغم من أن بعض أبناء قريتي يعرفون بأنني عدو الخيّالة التي تمر في قريتنا، باعتبارهم بكوات أو أغوات ومن واجبي أن انتقم منهم لأهلي.

بدأت عاملاً مع بداية الحرب: في العام ١٩٣٦ بدأت الحرب العالمية الثانية، وبدأ معها التقنين واستيلاء الدولة على المواد الزراعية، ولم يعد بمقدور الفلاحين وغيرهم، والذين هم بالاصل غير قادرين على تلبية حاجاتهم الأولية في الأوقات العادية. فكيف بالحرب قد وقعت وأصبحت الدولة الفرنسية، المنتدِبة آنذاك، لا تُبقي شيئاً للفلاحين، وكان جلاوزتها دائماً يطبّقون القوانين الضرائبية على الفقراء والمعدمين بينما كانوا يتغاضون عن الوجهاء لقاء بعض الاكراميات. وهذه الأساليب لا تزال سارية حتى الآن وقد أصبحت وراثية إذ إن الوظيفة معتبرة باباً للرزق وليس خدمة اجتماعية.

في هذا الجو القلق على المعيشة رأيت نفسي مضطراً لمساعدة والدي المتقاعد في إعالة أشقائي الستة. وأصبحت عاملاً في معمل للحرير كان يملكه إيطاليان. وفي هذا المعمل بدأت أشعر بفداحة الظلم والقهر والعذاب الذي ينزل

بعاملات هذا المعمل حيث كانت ظروف العمل شاقة جداً؛ كنا نعمل بين ١٢ و١٤ ساعة في النهار، عندما تكون الأيام طويلة، وكي لا تنقص تلك الساعات أحضر صاحب المعمل مولداً للكهرباء لإنارته وتمكين العاملين به من إبقاء عدد الساعات كما هي. هذا بالإضافة إلى الإهانات والضرب والطرد التي كانت توجه للعاملات من قِبل المناظرين، وهم ثلاثة رجال فقط وسلّاكين اثنين بين ما يقرب من المئة عاملة. وكنت أحد السلاكين الذي يشعر مع العاملات ويعاملهن بالشفقة ويساعدهن ما أمكن، وقد كلفتني تلك العاطفة كثيراً.

كادوا أن يقتلوني: كان يوسف الطحان، وهو كبير المُناظرين، يتفقد العمل وهو إنسان ظالم فاسد لا يعرف للرحمة معنى. وإذا به يناديني كي آخذ أحد دواليبه للتسليك لأنَّ صاحبة الدولاب وتدعى مارتا جرجس، قد أخطأت في زيادة الشرانق على "السلاك" وهو الذي يقيس وزن الحرير، وعندما تخالف إحدى العاملات كانت تقع شرنقة أو شرنقتان بالناقص أو بالزائد، وتترك الآلة التي تعمل عليها، وطبعاً هذا العمل كان عن غير قصد إذ إن الكل يعلم بأن عملاً كهذا عاقبته وخيمة. ونتيجته حسم الراتب الذي كان لا يتعدى الـ ٢٠ قرشاً يومياً، بالاضافة إلى الضرب والشتيمة ورشق المياه الساخنة على وجه العاملة. وهذا النوع من العقاب كان معمماً ولا يُستثنى منه أحد. فكل مخطئة من العاملات،

صانعة كانت أم معلمة، تنزل بها العقوبة ذاتها من المُناظرين، بخاصة المناظر العام يوسف الطحّان. قلت: ناداني هذا الأخير لآخذ الدولاب للتسليك، تاركاً قسماً من الخيط المقطوع في يده بينما نزعت الدولاب من مكانه وأخذته على التسليك.

صاحبة الدولاب هذه كانت من أحسن المعلمات في معمل الحرير، وقد توفي زوجها بمرض السرطان أو ما كان يسمى في ذلك الوقت "بالريقان الحبشي" تاركاً لها ما يقارب خمسة أو ستة أولاد ولا معيل لهم سواها. فأخذت الدولاب ورأيت شعيرات الحرير كم هي مخالفة للأوزان المخصصة لهذا النوع، وتصورت ما هو نوع العقاب الذي سيُنزل بها، فسمعتها تتوسل اليّ دون أن تتكلّم، وعيناها الجاحظتان عكست شعورها بما ينتظرها من عقاب، نظراً لأنني الوحيد الذي يمكنه إنقاذها بنزع جميع الشعيرات السيّئة وإبدال الوزنة بغيرها. ومعروف عني من قبل جميع المعلمات بأنني كنت أخبئ بعض الوزنات المخالفة نصف درجة أو درجة، وهذه مخالفة نوعاً مقبولة لاستبدالها عند الحاجة. ولكن شعرة الحرير، على دولاب المعلمة مارتا الجرجس، كانت مشابهة لخيط القنب أكثر منها لخيط الحرير. فما العمل؟ وانا لا أزال أسمع توسلات تلك المعلمة وكأنها تكلمني مسترحمة، لذلك قررت مساعدتها وتخفيف المخالفة مهما كانت النتيجة.

وبسرعة وضعت الدولاب على سيبته وتناولت طرف الخيط وبدأت السّحب على دولاب مخصص لذلك، حيث يجب أن يدور مئتي دورة، وهذا الدولاب مزود بعقرب يشير إلى الرقم مئتين حين يصل البرم إلى هذا الحد، عند ذلك يجب على السلّاك نزع الوزنة ووضعها على شنكل صغير وكالعقرب أيضاً يبين كم هو ثقل الوزنة.

ثقل الوزنة كان يجب أن يكون اقصى حد للمخالفة ١/٢ ١٥، ولكن للمرة الأولى أرى مخالفة يتخطى وزنها العشرين. وهنا رأيت ذلك الشرير "يوسف" يأتي باتجاهي بينما كانت العاملات تنقسمن إلى قسمين: صانعة، ومعلمة. فالصانعة هي التي تسلق الشرانق بمياه حامية جداً ثم تقدمها إلى المعلمة التي بدورها توزع الشرانق على الآلات المتصلة بدولاب الحرير المتحرك.

والوزنة هي كناية عن سلة من خيطان الحرير (٢٠ دورة الدولاب ١٠٠ متر تقريباً) ومعيارها يتراوح بين ١٣ و١٤١/٢ وكل زيادة أو نقصان يعرض المعلمة للعقاب المعروف.

وكأني به قد أدرك ما أصنع، وللحال وضعت الوزنة في صدري وأبدلتها بوزنة لا يزيد ثقلها عن ١٥١/٢ وأبقيتها معلقة في الميزان لحين وصوله ثم تابعت التسليك حيث كانت الشعرات الثقيلة قد انتهت وعاد الى الحرير وزنه العادي.

وصل الطحّان وسألني: قديش طلعت الوزني ولاه؟ فأجبته ها هي أمامك ١٥١/٢ إنها مخالفة درجة واحدة.

فضحك ضحكته الصفراوية المعهودة وأخذ الوزنة وقابل شعيراتها بالشعيرة التي كان لا يزال محتفظاً بها. وقال: ولى شعرات هالوزنة هاي متل هالشعرة ياللي بايدي. فأجبته والله يا معلمي ما بعرف، هذا دولاب الحرير وهذا دولاب التسليك. وهذا ما حصل معي. عند ذلك تقدم نحوي شاتماً والدي وأمي قائلاً يا ابن الش..... عم تضحك عليّ والله لألعن أبوك أخو.... وصفعني كفاً على وجهي، ولكنني أخفيت رأسي بسرعة كي لا يصيبني، وبالفعل ذهبت صفعته خائبة ويا ليتها لم تكن كذلك. لأنه عند انحناءتي السريعة والوزنة مخبئة في صدري هبطت على حافة قميصي، وما أن أسرعت بانحناءتي حتى قفزت الوزنة من صدري وهبطت امام يوسف الطحان وكأن بها تقول: أنظر فعلة هذا السلّاك المتآمر عليك، فهذه هي الوزنة الحقيقية وليست التي بيدك. عند ذلك انقض عليها بهدف التقاطها ورفعها بيديه حيث قارنت اصفرار تلك الوزنة اللعينة باصفرار وجهه الدائم فلم أر أي فارق، وكأنهما امتزجا مع بعضهما حقداً ينفث سماً، يطالبان الانتقام مني.

صعقتني المفاجأة ولم اتحرك وبقيت واقفاً كالحجر وهو يصفعني ويركلني إلى أن كلَّ من ضربي، واسترخت يداه وحتى رجلاه ولم يعد يتمكن من تحريكهما، وأخذ يلهث وصدره يعلو ويهبط كأنه آتٍ من سباق لمسافات طويلة. ثم صرخ بي ماذا فعلت يا عك... أجبني. هذه هي الوزنة

الحقيقية! فقلت له الوزنة الحقيقية هي الاولى وهذه الوزنة أخذتها من زمان كي أصنع منها خيطاً للصليب وأعلقها في صدري بحيث أن سماكة الخيط تبقى مدة طويلة غير معرضة للقطع.

انتقلت الشكوى إلى أعلى: لم يكتف ذلك الحقود لما انزله بي من عقاب، بل رفع القضية إلى صاحب المعمل الايطالي الذي لا يقل عنه حقداً على العمال، ولا عجب في ذلك، فهذه هي طبيعة الرأسماليين وحتى أصحاب الحِرَف. فكل صاحب مصلحة يريد من العامل ان يعطيه اقصى جهده، دون أي مقابل إلا ما يبقيه حياً ليعود اليه في اليوم الثاني ليتابع استثماره مجدداً، وهكذا دواليك إلى أن تدق الساعة.

استهول صاحب المعمل الحادث وأتى بنفسه اليّ يستشيط غضباً وهو كالوحش انقض عليَّ وبدأ بضربي كيفما اتفق له أمام جميع العاملات، ومن حسن حظي أن تأتي إحدى رفساته على خصيتيّ فشعرت عند ذلك بأن المعمل يدور بي ووقعت أرضاً دون حراك، ولم أشعر ما حصل لي. سوى انني أفقت من غيبوبتي في غرفة الحرير[٤] وثيابي جميعها مبللة وبعض النسوة حولي ينتحبن ويدعون إلى الله كي ينتقم لي: وعندما حاول يوسف الدخول إلى الغرفة لتفقدي طردته

---

(٤) غرفة خاصة بالحرير وجمعه وتعبئته بصناديق لنقله إلى الخارج.

المعلمات، وما ان لمحته حتى عادت اليّ الغيبوبة ولا أعلم عند ذلك إذا كانت إحدى الحيل أو أنني حقيقة عدت إلى الغيبوبة.

هنا تبين ما للتضامن من قوة اذ إنه بشعور غريزي توقفت جميع العاملات عن العمل بما فيهن معلمات غرفة الحرير، وقررن عدم العودة إلى العمل إذا كنت سأطرد أنا ومارتا الجرجس. وكانت بعض من النّسوة قد تركن العمل وذهبن إلى القرية لإخبار والدي بالحادث، ولولا تدخل المصلحين لكانت صارت مذبحة في المعمل. وكم توسلت والدي بألا نذهب إلى هناك وهو ينقل بندقيته بحيث كنت خائفاً عليه من السجن إذا قتل صاحب المعمل، وكذلك أفقد انا عملي فانصاع والدي لتوسلاتي ولتدخلات المصلحين، منهم خالي الميسور الذي مرّ ذكره اذ كانت تربطه صداقة وطيدة بصاحب المعمل باعتبار أن كلاً منهما يكمل الآخر اجتماعياً.

العودة إلى العمل: في اليوم الثاني تجمعت معظم العاملات قرب بيتنا في الوقت المحدد لبدء العمل، أي عند اطلاق صفارة المعمل الأولى. فأيقظوني لمرافقتهن إلى العمل فقلت لهنّ إنني مريض ولا يمكنني العمل. والحقيقة لم أكن مريضاً إذ إنني كنت معتاداً على هكذا معارك، فلم يكن يمر عليّ يوم واحد إلا وأكون أكلت أو اطعمت ضرباً ورفساً لا يقل عما اصابني ذلك النهار، ولكنني كنت خائفاً أن اذهب إلى العمل ويطردني رب العمل أو يوسف الطحّان. ولكنهم

طمأنوني بأنّ العمال اجتمعوا في الليل عند بيت خالي عبدو، واتفقوا أن يعودوا إلى العمل بشرط عودتي انا ومارتا الجرجس ودون انزال أي عقاب بحقنا. وكذلك نجحوا في الحصول على الموافقة بتخفيف الضرب والشتم والاهانات عن العاملات، ولكن هذا العمل بقي سارياً إلى ان سافر الايطاليان إلى ايطاليا واشتركا بالحرب مع موسولوني، وعادا عندما وقعت الهزيمة بالفاشية الايطالية، واستأنفا بعض الاعمال التجارية حيث كانت تجارة الحرير قد بدأت في الانقراض.

اشتباكي مع صاحب المعمل: كان المعمل يتوقف عن العمل لمدة الشهر تقريباً، حيث يتمكن صاحبه من تنظيف مرجل الوقود وتضبيط الآلات وتشحيمها. وبالطبع يرافق هذا التعطيل تصفية الرواتب للعاملات الصنّاع منهن والمعلمات لأنَّ الرواتب التي كانت تدفع شهرياً قبل العطلة لا تدفع بالكامل بل يبقي صاحب العمل أجرة اسبوع دون دفع، حتى لا تتمكن العاملة من ترك العمل عندما تتعرض للعقوبات الوحشية التي كانت تمارس عليهن. وبالفعل ان هذا الأسلوب كان ناجحاً جداً، ولم اذكر أن اي معلمة كانت تترك عملها إلّا وتعود إليه، تحت ضغط الفاقة والفقر، أولاً، وثانياً نظراً لبقاء أجرة الأسبوع التقليدي لدى صاحب المعمل، بالاضافة إلى الأيام التي تكون قد اشتغلتها قبل تركها العمل. وطبعاً لم

يكن أحد يعلم شيئاً لا عن الإضرابات ولا عن الاعتصام، وتضامن العاملات معي عندما تعرضت للضرب من قبل يوسف الطحّان وصاحب المعمل، كان قد حدث بشكل عفوي وتحت ضغط شعورهن بأنني معهنّ ولهنّ في السراء والضراء. وهذا دليل بأن الذي يشعر مع الكادحين ويعمل لمساعدتهم لا يتخلى الكادحون عنه بسهولة.

بعد توقف المعمل بدأت تصفية الرواتب ومنها راتبي. وذهبت إلى المكتب الذي تتم فيه تصفية الرواتب، فرأيت إحدى قريباتي "زوجة طنوس شاهين الملقب بـ"الورّ"[٥] وهي تبكي وتطلب من الله أن يأخذ لها حقها من توماسو صاحب المعمل، وكانت تقول: انشا الله بتفقد ولادك. ان شاء الله ينتقم لي منك يا كافر الخ، إلى ما هنالك من تضرعات وتوسلات يوجهها الفقراء لله لينتقم لهم. قلت لها ونقّيفتي بيدي. ما بك يا امراة عمي تصرخين هكذا؟ قالت لي هالابن العكروت حسم على بناتي كل واحدة ربع ليرة. وما عرفت ليش "وكان لها ابنتان في المعمل".

وضعت بحصة في نقّيفتي وقذفتها على طاولة القبض، حيث أجفل كل من كان حول الطاولة، بما فيهم توماسّو صاحب العمل. "طبعاً راتبي كان كاملاً بجيبي" وصرخت به:

---

(٥) (طنوس الورّ هو من آل فخر، ولكن لا يخلو بيت من قريتنا دون لقب. فأنا مثلاً كانوا ينادونني ابن زيبار).

"شوف يا توماسّو، إدفع النص ليرة لامرأة عمي أحسن ما بلّش كسّر قزاز شبابيك المعمل والله ما بخليلك ولا لوح". والكل يعلم بأن معامل الحرير جميع شبابيكها من الزجاج. فحاول النهوض عن الطاولة ليقبض عليّ ولكنني قذفته بحصاة أخرى على قلنسوته الأميركية والتي كانت بجانبه على الطاولة، وقلت له: اياك والنهوض من مكانك قبل أن تعطي النصف ليرة لامرأة عمي، وإلا سأبدأ قذف الحصى على رأسك. ولم أمهله أبداً إذ أنني وجهت حصاة باتجاه أحد الألواح الزجاجية قائلاً: أعطها النصف ليرة وإلا أبدأ بالزجاج وإياك أن تتحرك. فبدأ يرتجف جسده كله وأخذ العرق يتصبب من وجهه، وهو يلتفت إلى يوسف الطحّان ليخلّصه من المأزق. وهنا تدخل هذا الحقود قائلاً: معليش يا معلمي أنا بعطيها النصف ليرة، وبالفعل تناول نصف ليرة عن الطاولة وأعطاها للمرأة. وفي الحال قلت لها: إذهبي بسرعة، لأنني سأهرب خوفاً من الانتقام، وهكذا كان، وكانت تلك الحادثة تتداول في القرية لمدة طويلة.

عاملاً في بسوس: لم يمض على اقفال المعمل مدة قليلة حتى أتى صاحب معمل حرير من حمص ومن آل اصطفان، وأبدى رغبته بنقل عدة عاملات إلى بسوس، حيث ضمن معملاً للحرير هناك، ولكن العاملات الذاهبات إلى هناك طلبنَ من صاحب المعمل أن يأخذني معهنّ. وكذلك فإن

أهالي العاملات رفضوا ارسال بناتهم إلى هناك ما لم أكن انا إلى جانبهنّ. وهكذا تم انتقالنا إلى معمل الحرير في بسوس[٦]، وكنت الذكر الوحيد بين ست عشرة عاملة ولا توجد واحدة منهن في مثل سني، بل كنّ يكبرنني بعدة سنوات، حيث كنت لم أتخطَ الرابعة عشرة، ما عدا واحدة تدعى هدلا وكانت تصغرني بسنة أو سنتين على ما اعتقده. لقد كانت تبقى برفقتي دائماً، وكان الوضع هناك مناسباً لاسئناف اعمال الشقاوة والغزو.

بساتين كثيرة من التين والليمون والعنب. وكانت غزواتنا تتكاثر بعد الانتهاء من العمل، وفي أيام العطلة حيث كان الجوع وحاجتنا إلى ما نسد به رمقنا سبباً لذلك، وكي نردّ غائلة الجوع عنّا، لأن الاجرة لم تكن تتعدى الربع ليرة وماذا سيبقى لنا اذا دفعنا ثمن مأكولاتنا. لقد كان الأكل على نفقتنا ورغم كل التوفيرات، لم يعد أحد منا إلى القرية، إلا وبقي مديناً لصاحب المعمل ليس بالنسبة للسلفة التي دفعها لأهلنا قبل ذهابنا إلى بسوس، بل تضاعف الدين وأصبحت السلفة مضاعفة، وأذكر عندما أردت العودة إلى القرية بعد أن تركنا

---

(٦) كان لمعمل الحرير صفارة في الصباح تصفر صفرتين الأولى للنهوض حيث يكون تباشير الصباح قد بدأت، والصفرة الثانية يكون العامل قد أصبح يميز طريقه. يعني كان على العامل أن يصل إلى المعمل قبل أن يكون الصباح قد اكتمل ولا يعود قبل أن يكون المساء قد أرخى سدوله.

بسوس حجز صاحب العمل فرشتي الصوف، ولم يسمح لي بنقلها إلا بعد تدخّل إحدى قريباتي التي كانت تعمل عنده منذ ما يزيد عن الخمس عشرة سنة.

زيارة خالي في السجن: ومن غريب المصادفات أن يكون خالي طنوس مسجوناً في بعبدا. وهذا الخال له في قلبي تقدير خاص نظراً لعطفه عليّ وأنا صغير. فعزّ عليّ أن يكون خالي بقربي ولا أذهب لزيارته. ولكن كيف أزوره وأنا لا أملك درهماً لا للتنقل بالسيارة ولا لأشتري له شيئاً حيث كان يعزّ شراء أي شيء أثناء تلك الحرب الضروس، ولكن متى كانت الحروب تجر غير الشر والويلات على الشعوب؟!!

استنجدت برفيقتي هدلا وقلت لها ما العمل يا هدلا؟ إنَّ خالي في السجن وأريد زيارته، ويجب أن آخذ له معي شيئاً كهدية فما رأيك؟ فضحكت ولم تجاوبني بل قالت لي بلغة قريتنا المحببة: "يا مشحّر نحنا ما عم يصير لنا لقمة خبز ناكلها، هلق خالك مدور عليك وعلى هداياك، وعا ايش بدك تاخدلو وتجبلو؟ الدولة مسؤولة عنو وقوم بحالك يا فقير، بعدها السلفة يلي أخذناها ما وفينا منها قرش، والله يستر ما تزيد". وبالفعل كانت توقعاتها صحيحة. ولكن على الرغم من منطقها لم أقتنع، وكانت سراي بعبدا تظهر واضحة للعيان من بسوس، فقلت سأنتقل في بادئ الامر سيراً على الاقدام ومنشوف وين منصير. ونكتفي بالزيارة أولاً، ويكفيني

أن أراه ويراني بعد غياب يزيد عن السنتين على ما أعتقد. وهكذا قمت نهار الأحد وسرت في اتجاه السراي بين تلك البساتين اقفز الحفافي والسياج وأتخطى الحواجز الشائكة الخ... ولكن الحظ حالفني وحالف خالي أيضاً إذ إنني أثناء مروري بين الأشجار كنت أرى التين والعنب يملأ تلك البساتين، فتحركت فيّ غريزة الغزو، وبدأتُ بقطاف ما تيسر لي من فواكه، وكذلك من خضار الباذجان والبندورة وغيرها... ولكن كيف العمل لنقل تلك الخضار والوصول بها سالمة إلى سراي بعبدا، وبت أتساءل: ما سيكون جوابي لو أنَّ أحد النواطير ألقى القبض عليّ متلبساً بجريمة السرقة؟ وبعد قليل من التفكير قررت أن أخلع قميصي على الرغم من أنه قديم، وأضع الخضار والفواكه التي جمعتها في داخله وأحملها بيدي كالزوادي، وأبقى عارياً حتى أصل إلى بعبدا وهونيك الله بيفرجها. أما بشأن النواطير وغيرها من المفاجآت فقد قررت المقاومة والاصرار على النكران مهما كانت النتيجة.

وصلت إلى بعبدا وطلبت مواجهة خالي، وهناك بدأ الشاويش يتفرّس بي وقال لي: هيك بدك تشوف خالك وانت بالزلط. قلت له: "شو بدي أعمل كان معي كيس حاطط فيه هالغراض وانفزر عالطريق شو بتركهم وبجي؟ فضّلت حطهم بالقميص أحسن محطهم بكيس تاني ويرجع ينخزق". وهكذا تعود الشاويش على رؤيتي كل أحد عاري الصدر، وكذلك

حافي القدمين ولم أصادف أي متاعب من قبل النواطير وأصحاب الأراضي. وقد علم خالي بأمري وكان يضحك بينه وبين نفسه ويقول لي: يا خالي دير بالك ما تخلي حدا يشوفك بدل أن يمنعني من الاقدام على هكذا عمل. وحتى لو نبهني إلى ذلك فالغزو عندي كان غريزة، ولا يزال خالي حتى اليوم يتكلم عن تلك الحادثة كلما أتى أحد على ذِكر اسمي أمامه.

مطالعاتي: كنت متأثراً بأخوالي أكثر من عمومتي برغم التقليد العشائري الذي يقضي باللقاء مع العمومة أولاً ثم الأخوال الخ... وكان المرحوم والدي يقول لي، بعربيته المفركشة: "العم عمّك لا تعمعم غيره والخال لا تقرب حداه" فكنت أجيبه بالمثل القائل: "فإن الولد إذا بار بيطلع تلتينو للخال". قلت كنت متأثراً بأخوالي لأنهم كانوا مدنيين ولم يمارسوا الجندية سوى القليل وبقوا طيلة حياتهم يعملون في أراضيهم الزراعية، التي كانت من أحسن الأراضي تقريباً. أما عمومتي فجميعهم احترفوا الجندية ولم يتركوها إلا متقاعدين - وهذا الوجود الدائم لأخوالي في القرية جعلني أتردد عليهم وخصوصاً خالي يوسف الذي كان مشتركاً في مجلة ألف ليلة وليلة، وكنت متأثراً كثيراً بأبطال القصص البوليسية ومنهم جيمس ريدنغ ومساعده باتسي وكذلك بعض الروايات المسلسلة. صحيح كنت في المدرسة أتابع القراءة

في "مجاني الأدب" و"منتخبات أدبية" التي تعطى لنا في المدرسة. ولكنني كما قلت كنت مغروماً بالروايات البوليسية كشرلوك هولمز، وارسين لوبين الخ. هذا بالاضافة إلى أنني كنت احد قراء قصص عنترة والزير سالم وتغريبة بني هلال والملك سيف ابن يزن، في سهرات الشتاء القروية. وكنت من خلال المطالعات أسرّ جداً عندما يقوم أحد أولئك الأبطال بإنقاذ غريق أو اعتقال مجرم او إعادة ثروة مسروقة أو طرد غزاة معتدين، وكان آخر بطل حقيقي أعجبت به هو فؤاد علامة، إذ أن أخباره كانت قد عمّت العالم بأنه كان يأخذ من الاغنياء ويعطي إلى الفقراء، وكم تمنيت لو أنّ عمري يسمح لي أنذاك بالذهاب اليه لمساعدته على صنيعه ذلك. ولما سألت خالي عن كيفية الوصول إليه، أجابني "يا خالي هادا الدول ملاحقتو وما حدا بيعرف وين بيظهر "ولا ايمتين بيختفي". وكم انتحبت عندما علمت بأن الدرك تمكنوا من قتله بواسطة أحد المخبرين من أصدقائه.

والخلاصة: قضيت معظم طفولتي أقوم بواجباتي الدينية ابتهل إلى الله أن يُنزل إلى الارض عدالته ويرزق الفقراء ويحنّن قلوب الاغنياء ليساعدوا الفقراء، ولم يكن يفارقني لحظة التفكير في الوسيلة التي تنقذ الفقراء من فقرهم.

الانخراط في الجيش: ١٩٤٣ كنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري، ولكن كيف يمكنني الدخول في الجيش،

الاسم السيد اسير ابراهيم اسير

تاريخ الانتساب اول آب ١٩٦٢

الصفة عضو مشترك ، نائب ضابط سابقا

رقم دفتر التقاعد ١٥٨٩

الرقم المتسلسل (٤٥٠)

الرئيس

نموذج رقم ١/أ س

وزارة الدفاع الوطني

الجيش

بطاقة

الخدمات الصحية

رقم ١٢٧٦٦٧/

- رقم العسكري :
- اسم العسكري : اسير البيطار
- رتبته : رقيب أول
- قطعته : متقاعد
- اسم المستفيد : اسير البيطار
- صفته : نفسه
- تاريخ الولادة : [illegible]
- تاريخ انتهاء العمل بالبطاقة : ١٩٩٧/٢/٢١

[illegible] في ١٩٩٢/٢/٥

ومن أجل هذا يجب أن لا يقل العمر عن الـ ١٨ عاماً. إذن يجب إضافة سنتين إلى عمري وتدوينها على الهوية. وكان هذا الامر ميسراً آنذاك، إذ إنه مجرد وجود شاهدين يؤكدان الخطأ في تدوين تاريخ الولادة حتى يصدر الحكم بالتعديل ويصحح العمر. وهكذا بين ليلة وضحاها قفزت سنتين من العمر دفعة واحدة، وأصبحت مؤهلاً للدخول في الجيش. ولكن الصحيح أنني كنت طويل القامة ولكنني ضعيف جداً وكما يقال "جلد وعضم"، وهذا عائد لقلة التغذية نتيجة الحروب لأن مجرد الاكتفاء أو حتى البقاء حياً تكون معجزة، فالحروب منذ بدايتها ماذا كانت نتيجتها، سوى الخراب والدمار والموت للفئات المتوسطة والكادحة. أما الثراء والبطر والفحش فللأثرياء. ذهبت للمعاينة الطبية فنجحت بالطول ولكن الرقيب قال لي: "أنت ضعيف، وسترفَض". وبالفعل رفضني طبيب الصحة. وعدت إلى القرية مخجولاً وكنت أعتقد أن الجندية تخلّص المرء من ظلم العيش والقهر، إذ أن بعض الذين كنت وإياهم من أبناء قريتي قد انخرطوا، ولم يساعدني الحظ بالنجاح على الرغم من "نذر" الخمس ليرات الذي خصصته لمار يوسف إذا نجحت. ويظهر أن مار يوسف لم يكن بحاجة إلى ليراتي. فالحرب والويلات التي رافقتها كانت تمنعه من االإلتفات أو الاهتمام بجمع "النذورات"، أو أنه أصابه تخمة من كثرتها.

عدلت عن "النذر" لمار يوسف ونذرت خمس ليرات

للسيدة العذراء، ولكنني دعمت "النذر" بأحد الضباط من أبناء قريتنا "جورج دزري" ونجحت في الامتحان، وأصبحت جندياً في جيش الشرق الفرن، حيث البلاد بأسرها كانت تحت السيطرة الفرنسية يحكمها المفوض السامي الفرنسي بواسطة بعض اللبنانيين وطبعاً الموالين.

حياة جديدة بالفعل: لم أفاجأ بقسوة النظام ومناخ البقاع[٧] وشظف العيش، وروتينية العمل لأنني كنت على علم مسبق بمعظم حالات الحياة الجندية. وكنت اسمع من المنخرطين من أبناء قريتي، كثيراً عن شقاء الجندية وعذابها وقساوة نظامها. ولكنني لم ألقِ بالا لكل تلك الأقاويل، وكنت على ثقة من نفسي بأنني سأتخطى كل تلك الصعوبات والتي تبقى أفضل بكثير مما أعانيه من فقر وحاجة. ولم أر من الجندية سوى انني سأقبض راتباً في آخر الشهر. وعندما أحضر إلى الضيعة بمأذونية فستقام لي المآدب كما يحصل لغيري من العسكريين. وكانت تصوراتي لعودتي في الأعياد مأذوناً إلى القرية، حيث سيحضر أخوالي وأعمامي وأقربائي لزيارتي ينقلون معهم ما عندهم من مأكل ومشرب، ونشترك جميعاً بشرب الأنخاب، والأكل من مختلف الأشكال التي عمرت بها طاولتنا. وكم كان يفرحني هذا الجو العائلي

---

(٧) معروف عن مناخ البقاع أنه حريق نهاراً وصقيع ليلاً.

التعاوني، وكم كان مساعداً لي لتخطي شقاء تلك الحياة، بالإضافة إلى الراتب الذي سأقبضه، وأرسله فوراً لوالدتي، التي أصبحت وحدها في البيت، بعد أن أعيد والدي إلى الجيش لظروف تعود للحاجة الحربية.

رياضي طليعي: الرياضة في الجيش هي إحدى الممارسات التقليدية. ففي الصباح تستيقظ لدى سماعك البوق الصباحي أو العريف رئيس الغرفة أو ضجيج رفاقك المتواجدين في غرفة تتسع لأكثر من عشرين جندياً.

كم كنت أسرّ للرياضة لأنني كنت دائماً الأول في الركض أو القفز، وهذا يعود لما كنت أقاسيه أو امارسه من شقاوة في القرية حيث كنت أمارس الركض والقفز من فوق الحواجز مهما كانت صعبة، وذلك عندما أفاجأ بالناطور أو صاحب الملك وأنا أقوم بسرقة بعض الفاكهة أو غيرها.

ولكن على الرغم من كل هذه الخلفيات، فلم أكن أتصور مدى العذاب الذي قاسيته من جراء بعدي عن قريتي وأهلي وأمي بالرغم من قساوتها عليّ. هذا بالاضافة إلى أننا كلنا جنود أغرار لا يعرف أحد منا الآخر، وبالتالي كل منّا يريد فرض هيبته على الآخرين، فكان لا ينتهي النهار إلا وأكون تشاجرت مع عدة زملاء لي. وبقيت مدة تقرب من الشهر لا يخلو فيها وجهي من الجروح أو الآثار الزرقاء التي كانت تتركها على وجهي لكمات المتشاجرين معي.

لكنني بدأت اتأقلم مع حياتي الجديدة، وبدأ رفاقي يتوددون اليّ لأني كنت سريع الاستيعاب للدروس العسكرية، النظرية منها والعملية. وبما أنني كنت أجيد الفرنسية فقد فصلوني إلى سلاح الاشارة للعمل على الأجهزة السلكية واللاسلكية والضوئية.

ترقيتي السريعة: أُرسلت إلى دورة تخصص في سلاح الاشارة، وهذه الدورات كانت تجمع عناصر مختلفة من جميع القطع العسكرية المتواجدة على الارض اللبنانية والتابعة لقوات الانتداب. فكنّا، فرنسيين ولبنانيين وسوريين ومغاربة وأفارقة وفيتناميين الخ، وكانت الدروس تُعطى باللغة الفرنسية التي كانت الجامع الوحيد بيننا، بالإضافة إلى الشعور بالنقص تجاه الفرنسيين. انتهت الدورة بعد دراسة شهر او شهرين لا أذكر بالضبط، تعلّمنا كيفية استعمال مختلف الأجهزة اللاسلكية والسلكية والضوئية. وكذلك كيفية التكلّم وفك الشيفرة والإشارات الخاصة لكل حرف الخ... فكنت الأول بين الجميع، وكان الفرح بي كبيراً باعتبار أن معظم الدورات يكون الطليعي فيها فرنسياً، وللمرة الأولى يكون فيها عربي طليعياً. أقول عربياً، لأننا في الجيوش كنا نقول فلاناً من فوج الفلاني ابن عرب، ولم تكن كلمة فلان سوري او لبناني او مغربي او غير ذلك دارجة. حتى التظاهرات العسكرية التي

كانت تجري على ساحة البرج[٨]. كانوا يقولون علقت بين ولاد العرب والفرنسيين أو بين ولاد العرب والسنغاليين الخ... من جنسيات كانت تحت الانتداب الفرنسي ويتواجد منها في لبنان المنتدَب أيضاً.

وهذا النجاح المميز جعل قائد فوجي جميل شهاب يرقّيني لمرتبة كابورال ولم يمضِ على دخولي الجيش السنة والثمانية أشهر، وهذه ترقية نادرة أيضاً في ذلك الوقت.

معرفتي بالسياسة: لم اعرف شيئاً اسمه سياسة، اما الذي كنت أعرفه أن فرنسا هي أمّنا الحنونة. واندحارها امام الألمان ١٩٣٩ سبّب لي نوعاً من الهيستيريا ولم اصدّق بأن فرنسا، ام العالم وليست أمنا فقط، تنكسر؟ هذا مستحيل. ولم أكن الوحيد الذي انتابه الذهول وشمله الضياع، بل القرية بأسرها وكل الطلبة في مدرسة راهبات القلبين الاقدسين "مدارس يسوعية" كان وضعهم يشبه وضعي. وعدنا إلى الابتهالات والصلوات والتضرّع إلى الله كي يعيد لأمّنا مجدها، ولم يشك احد في ذلك، وقد قمتُ خطيباً في أحد الاحتفالات المدرسية، واكدت بأن فرنسا ستنتصر مستنداً بذلك إلى معارك الزير وعنتر وابو زيد الهلالي المعروفة جيداً من اهالي القرية. وبينت كيف ان هؤلاء الابطال كانوا

---

(٨) "ساحة البرج "كان يسميها الفرنسيون "ساحة المدافع".

يخسرون بعض المعارك ولكنهم يعودون فينتصرون. وكان فرح الطلاب والراهبات كبيراً بهذه المقارنة، واخذوا بها حتى ان الراهبات كانوا يستندون اليها في مناقشاتهم مع اهالي القرية، وكانت اقرب اساليب الاقناع آنذاك. هذا هو وضعي السياسي حتى دخلت الجيش.

أول صدام مع الفرنسيين: كنتُ لا ازال جندياً غرّاً في ثكنة رياق، وكنت برفقة مدرّبي الرتيب الياس شمعون من سرعين، نجلس إلى إحدى الطاولات في "بيت الجندي" Foyer de soldats، عندما دخل أحد صفوف الضباط الفرنسيين فلم يجد مكاناً يجلس فيه نظراً لامتلاء جميع الطاولات فأتى باتجاه الطاولة التي كنتُ احتلها مع مدرّبي. وما ان وصل إلينا حتى أمرنا بترك الطاولة أنا ومدربي. لم يذعن الرقيب للأمر بل حيّاه عسكرياً ودعاه للجلوس معنا. وهنا ثارت ثائرة الرقيب الفرنسي معتبراً الدعوة للجلوس معنا إهانة له، فأطلق بعض الشتائم البذيئة وطبعاً كان التبادل الكلامي بالفرنسية.

الياس شمعون احد الشباب العمالقة، يبلغ طوله ١٩٠ سم تقريباً. لم يرض الإهانة على نفسه وكان "بيت الجندي" كما اسلفت مكتظاً بالجنود وصفوف الضباط من لبنانيين وسوريين وفرنسيين، وما ان انهى الفرنسي شتائمه حتى وجه الرتيب الياس إلى فكّه لكمة اوقعته ارضاً، بينما كنت اتناول

كرسياً لأقذفها بوجه كل من يأتي لنصرة الفرنسي، وهنا اختلط الحابل بالنابل، ولم تعد تعرف من الضارب ومن المضروب، وكما يُقال "شرّ البلية ما يُضحك". وبالفعل تلك المعركة كانت مضحكة إذ بدأت بين لبناني وفرنسي، وانتهت بين كل المتواجدين في "بيت الجندي". فمن كان بقربه فرنسياً ضربه واللبناني الذي كان بقربه سوري ضربه وبالعكس، وحدث هرج ومرج في الصالة، وما كنت ترى سوى الكراسي الطائرة والطاولات المقلوبة والزجاج المكسّر الخ..

لم تهدأ الحالة إلّا حين دخول البوليس الفرنسي " الجندرمة" والذي تعرّف بسهولة على المسبب الرقيب شمعون وأنا، واقتادنا إلى التحقيق دون وضع القيود في ايدينا كما كانت تجري العادة.

أول لقاء مع القائد جميل لحود: جميل لحود "الجنرال المتقاعد حالياً" كان الضابط اللبناني الوحيد الذي يقارع الفرنسيين، ولم يكن يخضع أبداً لأي فرنسي ما لم يكن أعلى منه رتبة، بعكس بقية الضباط الذين كانوا يرتعدون خوفاً أثناء وجود أحد الفرنسيين حتى ولو كان صفّ ضابط او ضابطاً أدنى رتبة منهم، وكان في الوقت نفسه مساعداً لقائد موقع رياق.

وطبعاً طُلبنا لمواجهة الضابط جميل لحود ليتعرّف إلى

اللبنانيّيْن اللذين أثارا المشاكل مع الفرنسيين، وبصفته مساعد قائد الموقع فله ايضاً كلمة بقرار متابعة السير في التحقيق. وكم كان الخوف على الرقيب شمعون من تخفيض رتبته، إذ انه كما اسلفت كان احد الشباب المعجبين بأنفسهم نظراً لقامته الطويلة المتناسقة ووجهه الجميل، وكان من حيث الشكل العام يشبه الفرنسيين في بياض وجهه واحمرار خديه، وكثيرون لم يكونوا يميّزون بينه وبين الفرنسيين ما لم يتكلم.

مثلنا امام الضابط لحود فوقف بقامته المربوعة وتهيبنا وجهه العابس دائماً.

وتوخّينا شراً من ذلك العبوس، فسأل الرقيب بلهجة عسكرية قاسية، خصوصاً أنه لم يأمرنا بالاستراحة إذ إننا كنا لا نزال متأهبين.

ـ لماذا ضربت الرقيب الذي اسمه بينوا؟

أجاب الرقيب: لم أضربه يا سيدي انما دافعت عن نفسي فهو الذي حاول ضربي بعد ان كال لي الشتائم الفرنسية المعهودة، بدوي، قذر، خرى. وتقدم محاولاً ضربي، فما كان مني إلا ان لكمته، ويظهر بأن اللكمة كانت قوية بقدر حقدي عليه، والسبب أنه أراد أن نتنازل له عن الطاولة الجالسين عليها ولم يرضَ بالجلوس معنا معتبراً دعوتنا تحقيراً له.

وهنا بدأ الضابط يرتجف كمن أصابه حمى، وبدأت عيناه وكأنهما تخرجان من وجهه، وتوجه اليّ بالسؤال وأنت ما هو

دورك؟ فأجابه الرقيب شمعون: كان برفقتي وقد أحببت أن اشجعه وأسقيه كأساً من الجعة على حسابي الخاص لأنه الأول بين جميع أترابه في الرياضة والعلوم العسكرية. تجاهل جواب الرقيب وأعاد السؤال عليّ: وانت ما دورك؟

قلت: يا سيدي كما قال الرقيب وأعدت حرفياً ما كان قد قاله مدربي، وعندما أصبح الفرنسي مرمياً على الأرض خشيت أن يأتي الفرنسيون ويعتدون على مدربي، فبدأت بقذف الكراسي إلى كل من كان يقترب مناً فرنسياً كان أم عربياً.

وهنا شعرت بأن الضابط قد انتابه نوع من الفرح الداخلي، وأمر بإحضار الرقيب الفرنسي، وتحقق من صحة أقوالنا. فأكد الفرنسي بكل وقاحة جوهر ما قلناه وليس بالتفصيل لأننا بإفادتنا أضفنا عليها بعض الرتوش الوطني لاستمالة الضابط إلى جانبنا، وهكذا كان. ولكن الذي أضرم النار في قلب الضابط لحود، هو طلب الفرنسي بأن يقتص له منّا باعتباره فرنسياً أُهين من قبل البدو.

ولسوء حظ الفرنسي كان السوط في يد الضابط، فلم نرَ إلا والسوط يعلو ويهبط على جسد الرقيب الفرنسي، وبدأ يصرخ والضابط يزمجر كأسد جريح. ولم يهدأ عن جلده إلا بعد أن تدخل عدة ضباط فرنسيين ولبنانيين واختطفوا الفرنسي من بين يديه... وكان مع كل سوط يقول "يا عكاريت ما بقى

نخلص منكم يلعن ابو ساعتكن. عكل حال صارت ساعة رحيلكم قريبة".

ولم تمض اربع سنوات تقريباً على هذه الحادثة، إلا وكان المقدم لحود آنذاك على رأس الفوج الذي ودّع آخر جندي فرنسي رحل عن لبنان.

من مآثر الجنرال جميل لحود: كان جميل لحود وطنياً محبّاً لجنوده، وقد نُقل إلى مرجعيون لقيادة الفوج الأول. فأصبح الفوج بأكمله يتجاوب معه دون تحفّظ. وحين أُمر بالانتقال من هناك حاصره الجنود ومنعوا نقله. وقد أخبرنا رفاقنا الشيوعيون في ذلك الفوج بأنه كان يتعاون معهم تعاوناً مطلقاً.

وفي معسكر "عين الصحة" حيث تم نقل جميع عناصر الجيش إلى ضهر البيدر بحجة إجراء مناورات، بينما السبب الحقيقي كان إبعاد "جيوش الشرق الفرنسي" من بيروت لمنع الاشتباك الاسبوعي الذي كان قد تقرر في اجتماعاتنا الدورية كل نهار سبت في ضبيه.

لم يرفع أحد العلم اللبناني على مدخل فوجه وعلى موازاة العلم الفرنسي[٩] إلا المقدم لحود قائد الفوج الأول

---

(٩) العلم اللبناني: كان هو نفسه العلم الفرنسي إنما تتوسطه الارزة الخضراء.

المتواجد في معسكر "عين الصحة" في حمانا. وعندما أتى العقيد الفرنسي الكسندر[١٠] لتفقد الفوج الأول، كان من الطبيعي أن يكون قائد الفوج في استقباله، وبعد أن حيّاه هذا الأخير التفت العقيد فرأى العلم اللبناني يرفرف على موازاة العلم الفرنسي وسأل ما هذا؟ أجابه المقدم لحود: هذا هو العلم اللبناني مرفوع إلى جانب العلم الفرنسي. فإذا كنتَ راضياً أهلاً وسهلاً، وإذا كنت غاضباً فارجع من حيث أتيت، وهكذا كان، وعاد العقيد دون أن يتابع زيارته للفوج.

وأذكر مرة أيضاً كنّا نحتفل في ظهر البيدر بعيد الرابع عشر من تموز "سقوط الباستيل" حيث كنّا نقوم في باحة الفوج الثالث[١١] ببعض الألعاب الرياضية والتمثيليات الهزلية والدبكة وغيرها من الاحتفالات التقليدية.

وكنّا في اوج الاحتفال، فإذا بسيارة المقدم جميل لحود تمر على الطريق العام قرب باحة الفوج، وما ان رأينا السيارة حتى هبّ الجنود بمعظمهم تاركين الاحتفال ومن حضر إليه، وهرعوا إلى السيارة، وكنتُ في طليعتهم، فأوقفنا السيارة إلى أن وصل بقية الجنود، فطوّقنا السيارة وقطعنا السير وحملنا

---

(١٠) العقيد الكسندر: من أظلم الضباط الفرنسيين وأرهبهم ولم تعرف جيوش الشرق الأوسط من أمثاله أبداً.

(١١) كنت من عديد هذا الفوج وكنت قد أصبحت رتيباً على ما أعتقد، وكان الفوج بقيادة جميل شهاب.

السيارة كما هي وبما فيها، وبدأنا الأهازيج والهتاف بحياة لبنان، وحياة الضباط الوطنيين منادين برحيل الاستعمار وبتعزيز الاستقلال الوطني، واستلام الجيش الذي كان لا يزال آنذاك تحت اشراف الفرنسيين، بالرغم من ان الاستقلال كان قد مضى على الاعتراف به ما يقرب من الثلاث سنوات ونيف.

من جملة العراقيل والصعوبات التي يفرضونها على الفوج الأول تركه دون تبديل ألبسة أو تزويده بمعدات حديثة أسوة ببقية الافواج الأخرى. ولكن المقدم نزل بنفسه إلى المخازن العامة في صوفر وجلد ضابط المعدات الفرنسية، وأخذ لفوجه بالقوة كل ما يحتاج إليه من تجهيزات.

مع الكتائب اللبنانية: بولس الأسمر ماروني رقيب أول من جزين، لاحظ شعبيتي المميزة بين أترابي بحيث كنت الأول في الرياضة والأول في الدروس العسكرية والتمارين، وحتى في الاشتباكات بين العسكريين. كنت أول من يشتبك وأول من يرضخ للصلح حتى ولو كان على حسابي، لأنني كنت مرتبطاً بأربعة عشر شاباً من المسيحيين، نؤلف كلّنا مجموعة متفقة ومتضامنة، وكان كلما حدث لأحد منا أي حادث وكأنه أضرّ بالجميع، وبالطبع كنت على رأس هذا التجمّع، حيث كان بإمكاني تجييره لأي عمل كان.

هذا الوضع لفت نظر الرقيب أول بولس الأسمر (هو

الآن مختار في جزين)، فدعاني لإحدى السهرات في منزله ورحب بي لأنني من عندقت تلك القرية التي هي إحدى ركائز الموارنة في لبنان. ولا يخفاك و(القول لبولس الاسمر) بأن المسلمين يريدون الاستيلاء على البلد وطرد فرنسا من هنا، حيث يعودون بنا إلى العهود القديمة وانزال القهر والاضطهاد والقتل في المسيحيين، وبالفعل تأثرت كثيراً بقوله، لأنني كنت اعاني من هذه العقدة نظراً لتربيتي في القرية، بيتياً ومدرسياً. تحمست كثيراً للفكرة وسألته ما العمل لمنع ذلك. فقال لي: يوجد حزب الكتائب وعليك الانخراط فيه، وهذا الحزب له فروع في كل لبنان وجميع أعضائه من المسيحيين، وأغلبهم موارنة. فوافقت فوراً على الاقتراح ونقلته إلى عصابتي كما كانت تسميتنا آنذاك. فوافقوا جميعاً على الانخراط، وهذا كان موقفهم دائماً من اقتراحاتي وأعمالي.

مع القوميين السوريين: بدأ النضال ضد الفرنسيين، وكنت ضد كل من يقوم بهذا العمل، وهذا الموقف كان يضايق جميع العاملين في هذا الاتجاه ومنهم القوميون السوريون، نظراً للقوة التي كنت أتمتّع بها جسدياً وبشرياً. وأذكر أنني ارتكبت أحد الأخطاء المسلكية وعوقبت عليها بخمسة أيام في السجن، ولكن العريف نجيب الخوري، وهو مثلي عكاري من رحبه ورئيس قلم، سحب العقوبة ومزقها،

فخلصني بذلك من السجن خمسة أيام والذي يتبعه بطبيعة العقاب خمسة أيام حسم راتب، وقد أثّر بي هذا العمل، وتمنيت لو أكافئه على ما قام به تجاهي.

أعلمني نجيب بعمله وحمل اليّ بيان العقوبة ومزقه بيني وبينه، ولم يمضِ على هذا العمل بضعة أيام إلا واستدعاني إلى المكتب مظهراً لي عطفه عليّ خصوصاً وأننا من عكار ومن الواجب المحافظة على بعضنا بعضاً، وبالفعل كنت أغار على أي شخص من عكار يحدث له أي ضرر وأدافع عنه، وهذا شعور داخلي، بحيث أني في دورات الاسلحة المختلطة كنت أدافع عن العربي مهما كانت جنسيته ضد أي غريب، وحتى الفرنسي بدأت أشعر باشمئزاز منه نظراً لتصرفاتهم الشاذة وأعمالهم المبتذلة والحقيرة.

قلت: استدعاني نجيب إلى المكتب في وقت لم يكن فيه سواه، واخبرني بما يكنّه لي من تقدير بصفتي عكارياً أولاً، ولأنني قبضاي وذكي إلى ما هنالك من الإطراء ولكن... وصمت، فقلت له: ما هذه اللاكن. قال: أنت تعلم بأن الفرنسيين أجانب وغرباء عنا وهم يتحكّمون بنا، ألا ترى ما يقومون به؛ فالملازم بيزارنو "ضابط فرنسي"، وهو يأمر الفوج بأسره ولا أحد يجسر على مخالفة أمره الأعلى أو الأدنى رتبة، فمثلاً قرابتك الملازم أول خوري برغم أنه أرفع رتبة فهو مجبر على أداء التحية لهذا الضابط كونه فرنسياً

فقط. ألا ترى كيف يتصرفون مع المذنب منا، فأقل وصف يصفون به العربي هو: خنزير، بدوي، ك... الخ. وإلى ما هنالك من الأوصاف البذيئة.. قلت له: صحيح صحيح، وبالفعل كان ينتابني الغضب على هكذا تصرفات، ولم أكن أعلم عنها شيئاً في السابق قبل انخراطي في الجيش. وفي الحقيقة، فقد كنت أتهيّب الدخول مع أي فرنسي سواء كنت مذنباً أم لا. فعلى سبيل المحادثة، فمعظمهم كانوا رتباء غير مهيئين نفسياً كما كنت أعتقد للاحتكاك مع اولاد العرب، إلا عندما يكون واحد منا مذنباً فكانت تظهر قباحة اعمالهم بالشتائم والأوصاف التي يطلقونها على المذنب مهما علت رتبته حتى صفوف الضباط الفرنسيين كانوا يتطاولون على الضباط العرب بالأوصاف نفسها التي يطلقونها على الأفراد.

في هذه الأثناء دخل علينا أحد الرتباء الفرنسيين وسألنا عما نعمل فأجابه نجيب: إنه يسأل عن مأذونيته. عند ذلك انتهرني الفرنسي قائلاً بالفرنسية: "إذهب من هنا ورئيسك هو الذي يسأل وليس أنت". وتبع ذلك بالأوصاف المعهودة خنزير، بدوي. كـ.... الخ... ذهبت والدنيا كلها لا تسعني ألعن فرنسا وأخت فرنسا وأخت اللي جابها على البلد، وذهبت إلى بولس الأسمر اشكو له امري واعلمه بشعوري تجاه الرقيب الفرنسي Paul، فطيّب خاطري بولس وقال لي لا تزعل فهو لا يعرف أنك ماروني وكتائبي وإلا لما كان أقدم

على فعلته، وهو أي "بولس" سيتدبر الأمر معه. فنهرته وقلت له: "إياك أن تبحث الأمر معه فسألعن أبوك وبكره بشوف شو بدي أعمل فيه".

عدت ليلاً إلى عند نجيب الخوري بعد أن اعلمت عصابتي بالحادث وبذهابي لعند نجيب وأوصيتهم البقاء بانتظاري لحين عودتي من هناك، كي نبحث ما نقرره تجاه ذلك الفرنسي اللعين. وصلت الغرفة وكان نجيب بانتظاري فاعلمته ما حدث بيني وبين بولس الأسمر. فقال لي: "هيدا بولس الأسمر واحد طائفي ما تتعامل معو، وهو نفسياً لا يقل شراسة عن أي فرنسي، وهو كتائبي والكتائب عملاء فرنسا، شو بدك فيه لا تتعاطى معو". فقلت: "طيّب وهادا الرقيب Paul بدّي إعمل معو كذا، فأجابني اياك والاقدام على أي عمل، فالفرنسيون أقوياء في الوقت الحاضر وانت تعرض نفسك ورفاقك لانتقام رهيب، ولكن عليك أن تعمل بين الناس وتحرضهم على الفرنسيين، وإذا بدك نحن "حزب قومي سوري" نعمل لإنشاء سوريا الكبرى المؤلفة من لبنان وسوريا والاردن وفلسطين والعراق ونجمتها قبرص. وبقدر ما نعمّق هذه الرؤية بين الناس كان نضالنا أفضل وانتصارنا أسهل.

وهنا توسّع أمامي أفق النضال وأيدت نجيب في حديثه، وأعلمته بانتمائي لحزب الكتائب أنا وجماعتي وأنني ذاهب الآن لعند بولس لأعلن انسحابي ثم انضمامي إليهم (أي

القوميين السوريين). وهكذا كان، ذهبت إلى بولس ولعنته ولعنت فرنسا معه وكل أجنبي فقلت له: "ما هذا النضال المقوقع في لبنان، ويأليتك تنظر إلى أبعد من أنفك. ألا ترى أنَّ الفرنسي لا يفرّق بين مسلم أو مسيحي لبنانياً كان أو سورياً[١٢]. "ولم أترك له مجالاً لمناقشتي بل قلت له: إنني منذ الآن أعلن انتمائي إلى الحزب القومي السوري، وعليك شطب اسمي مع جماعتي من الكتائب ولم يكن قد مضى على كتائبيتي أكثر من شهرين. ذهب بولس إلى العصابة وحاول إبعادها عني أو استمالة بعض عناصرها ولكن الجميع طردوه دون أي مناقشة باعتبار ما أقرره أنا هو الصحيح.

ومنذ ذلك الوقت اصبحت مع عصابتي قوميين سوريين، وكنت ألازم الرفيق نجيب الخوري في المفاوضات والاجتماعات وكل ما يتعلق بعمل الحزب. لكنني علمتُ فيما بعد بأن تمزيق العقوبة من قبله كانت بناءً على تخطيط مسبق بين عناصر ذلك الحزب. وكنت فرحاً بذلك نظراً لما رأيته من اتساع في أفق النضال الوطني القومي.

بعد النضال ضد الفرنسيين: العمل الوطني في سبيل الاستقلال: كان نضال الحركة الوطنية يتسع بين الجماهير وينعكس على عناصر الجيش، فكنّا نجتمع أنا ونجيب مع

---

(١٢) كان جيش الشرق مؤلفاً من عناصر سورية ولبنانية.

مختلف التجمّعات الحزبية الموجودة في الجيش، منهم مستقلون ومنهم العرب الأحرار "تنظيم عدنان المالكي"[١٣] وحتى بولس الأسمر كان يجتمع معنا وكان متردداً في بداية العمل الوطني، ولم نشعر بأنه وشى بنا إلى الفرنسيين لأننا اتخذنا عدة قرارات بوجوده ونفذناها دون ان يعلم بها الفرنسيون، وهذا ما جعلنا نكثّف اتصالاتنا به، وحتى إشراك عناصره ببعض الأعمال التحريضية إن كان على صعيد الفوج أو على صعيد النضال مع بقية قطع الجيش. ولم أكن أسمع عن الشيوعية سوى ما كانوا يرددونه على مسامعنا في المدرسة بأنهم (أي الشيوعيين) «ملحدون وضد الدين، والأخ ما بشوف أخاه، ولا أحد يعرف أخته أو أباه أو أمه، إلى أخر ما هنالك من ترّهات". وحتى أثناء اجتماعاتنا المشتركة لم ألحظ وجود عنصر شيوعي في الاجتماع، بل كنت اسمع عنهم وعن نضالهم في الفوج الأول (مرجعيون)، وما كان يقوم به آنذاك الضابط الوطني جميل لحود قائد ذلك الفوج.

مع العرب الأحرار[١٤]: كان يمثل "العرب الاحرار"

---

(١٣) تنظيم عسكري وطني وشرعي كان على رأسه الضابط عدنان المالكي وكان له فروع في سوريا ويضم عناصر من مختلف الرتب والأديان والجنسيات.

(١٤) "العرب الأحرار" هو تنظيم عسكري وطني وسرّي كان على رأسه الضابط عدنان المالكي، وكانت له فروع في سوريا، ويضم عناصر من مختلف الرتب والأديان والجنسيات.

الأخ عيسى مسوّح وهو سوري، ومن "مشتى الحلو" على ما اعتقد. وعيسى كان يمثلهم عندما يتغيب الضابط مندوب المالكي. فأحببت أن أعرف المزيد عن تطلّعات ومبادئ هذا التنظيم. فذهبت في احدى النزهات انا وعيسى الذي كانت تربطني به زمالة العمل في سلاح الاشارة، بالإضافة إلى صداقتنا الحميمة التي كانت تزداد عمقاً كلما تكثف النضال ضد الاستعمار.

طلبت منه أن يخبرني بالتفصيل عن مراحل نضالهم فقال: بأن نضاله قومي عربي وهذا العمل ليس مقتصراً على تحرير سوريا الكبرى او الهلال الخصيب كما يسمونه جماعتك القوميين، فنضالنا يشمل جميع البلاد العربية الناطقة بالضاد من المحيط إلى الخليج، وقبرص لا علاقة لها بنضالنا القومي. ونضالنا لا يقتصر فقط على مقاومة الفرنسيين، بل يجب علينا مقاومة الإنكليز أيضاً الذين يحتلون معظم البلاد العربية. وأخبرني كذلك بأن الضابط عدنان المالكي يريد التعرف عليّ أو التحدث معي. فكنت فرحاً جداً بالاكتشاف الجديد أو بالأصح بالتوسع الجديد لأفق نضالي. ووافقت على الفور وتعهدت له بأنني سأترك القوميين، اذا بقوا متعنتين بطروحاتهم فنصحني أن أتريث بالإقدام على هذا العمل، وليكن انسحابي بطيئاً لأنه كان على معرفة بجماعتي التي كان أفرادها ينتقلون معي دون قيد أو شرط، ثم عاد وأكد عليّ

التريث حتى يكون قد تم اجتماعي بعدنان المالكي، وتعاهدنا على بقاء ما حدث بيننا سراً لحين اللقاء مع هذا الأخير.

اللقاء مع المالكي: كنت أنتظر ذلك اللقاء على أحر من الجمر، وبدأت علاقاتي مع نجيب تفتر قليلاً إنما بقيت صداقتنا[١٥] وطيدة حتى بعد تركي للقوميين السوريين. ذهبنا أنا وعيسى سيراً على الأقدام من ثكنة ضبيه إلى ثكنة "الديفري دي لو" حيث كان إميل الحلو بانتظارنا، هو ذلك الضابط بقامته الرياضية المبتسم الوجه دائماً حتى في أشد ساعات غضبه. أديت له التحية العسكرية مع زميلي عيسى، فرد التحية وبادرني بلهجته الشامية قائلاً: أنت إسبر مو هيك؟ فأجبته: نعم سيدي النقيب فقال: "هون ما في أسياد، وعلينا العمل لطرد هدول يللي منصبين حالهم أسياد علينا". وتابع: "يا اخ اسبر بتعرف حالك وين بدك توصل؟". قلت: نعم، قال لوين؟ قلت: حتى تتحرر كل البلاد الناطقة بالضاد، وإنني مع أمين الريحاني في تطلعاته الوحدوية. قال بلهجته الشامية طبعاً. "خّيو شو، محسِّب المسألة رياضة وركض مسافة ١٥٠٠ متر بتتعب شوي وبعدين بترتاح"؟ فقلت:

---

(١٥) ترك نجيب الجيش في العهد الاستقلالي وذهب إلى أميركا ولم أعد أعرف عنه شيئاً. وهنا لا بدّ لي من تكرار اعتذاري عن ذكر التاريخ بالضبط لأنني كما قلت في المقدمة لم أكن أفكر بأنني سأصل إلى يوم أدوّن فيه مذكراتي.

"طبعاً بيركض على مسافة الألف وخمسمئة متر عدة عدائين، ولكن القليل الذي يصل إلى النهاية، وحتى الوصول إلى النهاية يكون متفاوتاً. فمنهم من يعرج ومنهم من ينسحب ومنهم من يقع في منتصف الطريق. قال: خيو هادا مثل رياضي كويّس وينطبق نوعاً ما على الواقع، ولكن العدائين لا يموتون أثناء السّباق، فالنضال سباق إلى الموت من أجل الحياة، فهل فكرت بالموت أو الاستشهاد قبل أن تصل إلى الهدف؟ وهنا توقفت عن الإجابة إذ إنني بالفعل لم أفكر بهذا الاحتمال. ولكنني استدركت وقلت له: أنت تعلم بأنني مسيحي ماروني، ولكنني غير متعصّب، وأعرف حق المعرفة بأن المسيح استشهد في سبيل رسالته، وكذلك الرسل والذين ناضلوا في سبيل الله والوطن[١٦]، وعلى كل حال لست أفضل من شهداء السادس من أيار الذين شنقهم جمال باشا السفاح. قال: "هون بيت القصيد، شوف يا إسبر ياللي بدو يناضل قبل كل شيء يحسب هالحساب، وعلى كل حال لا كل المناضلين بيموتو ولا كل المتفرجين على النضال بيضلوا طيبين، وهون كان لازم تفكر بأنو ممكن تموت وممكن تعيش، مو مظبوط ها الحكي؟. فقلت: "والله أكثر من مضبوط. وعهدي لك بأنني سأسير على طريقك مهما كانت الصعاب" وكان هذا لقائي الأول مع المالكي ولا أزال

---

(١٦) وردت على لساني هذه العبارة تحت تأثير شعاري الكتائبي القديم.

أعتبره الدرس الأول والواضح في حياتي السياسية البدائية. ثم عدتُ أيضاً سيراً على الاقدام مع عيسى إلى الضبية، وكانت هذه آخر مرة أجتمع فيها مع القوميين السوريين حيث تم انسحابي مع جماعتي وانضممت إلى "العرب الأحرار".

مع الشيوعيين: بدأت الاجتماعات المشتركة بين العناصر المناضلة تتوالى أسبوعياً مساء كل سبت، وكان الهدف من كل اجتماع مناقشة بعض القضايا المستجدّة على ساحة النضال الوطني، ورسم خطة جديدة للاشتباك مع احدى القطع العسكرية الأجنبية التابعة للحلفاء. وساحة المعركة تكون ساحة البرج، حيث كنتُ أنا وشاب آخر يدعى محمد الباشا[١٧] رأس الحربة لكل اشتباك.

وفي أحد الاجتماعات وكنت قد نسيت النضال من أجل الفقراء والمعذّبين في الارض، وإذا بأحد الوافدين الجدد إلى الاجتماع يطلب الكلام. ولما سُمح له بذلك بدأ يؤكد على ربط النضال بالمطالبة بتحسين الاوضاع الاجتماعية أيضاً إذ لا يجوز فقط أن نطالب بطرد الاجانب والاستقلال، بل علينا ايضاً أن نوضح للجماهير حسنات الاستقلال من حيث امكانيات تحسين ظروف معيشتها. وهنا بدأ مندوب القوميين

---

(١٧) محمد الباشا هو والد توفيق أدهم، ولكن هذا الرجل للأن لم ينخرط في أي حزب سياسي وكان بطلاً للمصارعة في الجيش للوزن الثقيل.

السوريين، ويدعى نخلة شمّا من الحاكور، يشوّش ويهزأ منه، فتصديت له وأرغمته على السكوت كي يتابع هذا الجديد حديثه وإلا[١٨]...: ثم استؤنف الحديث وأكد ذلك المندوب على نيلنا الاستقلال لأن الجيش الأحمر سيبدأ عما قريب هجومه الكبير وانتصاره مع جيوش الحلفاء أمر مؤكّد. وهنا عاد نخلة وبدأ يتحدث بنرفزة صارخاً ما علاقة الجيش الأحمر بالموضوع هيدا واحد شيوعي عميل.

وهنا تدخل الشخص المسؤول، وكان ضابطاً، فحسم الجدال وانتهى الاجتماع، وكنّا متفقين على عدم معارضة أي مندوب بعد الآن أثناء كلامه إنما يمكن مناقشة كل رأي أو موضوع يُطرح في الاجتماع بكل مسؤولية وجدية، وقررنا عدم دعوة نخلة شمّا إلى أي اجتماع مقبل إذا تابع التشويش وإثارة المشاكل، وكان هذا القرار بناءً على طلب الأخ عيسى مسوّح مندوب "العرب الأحرار".

لم أصدق طلوع الصباح حتى بدأت البحث عن ذلك المندوب، فوجدته حارساً لمخزن للألبسة في السرية الأولى[١٩] فلما رآني متجهاً نحوه احتاط للأمر وحمل بيده

---

(١٨) الكل كان يعلم بأن الذي يتصدى لي بشيء أثناء الاجتماع فسيلاقي جزاءً قاسياً في الثكنة.

(١٩) حراس المخازن كان عليهم أن يتقنوا اللغة الفرنسية جيداًلأنهم مسؤولون عن توزيع الألبسة ... جميعها مدونة بالفرنسية.

رفشاً صغيراً، وما ان وصلت الباب حتى صرخ بي وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما: إياك والدخول إلى هنا. ففهمت من انفعاله بأنه استنتج بانني سأنزل به شراً وأنا المعروف بشراستي آنذا، فقلت له: هدئ من روعك ايها الصديق. ولو أردت ان أنزل بك شراً لانتظرتك بعيداً عن المخزن وعن الثكنة أيضاً، ولكنني أتيت اليك مستعلماً، عما قلته البارحة في اجتماعنا الليلي؛ ألا تذكر انني كنت إلى جانبك ضد الذين كانوا يشوشون عليك؟ وبالفعل كنت طيلة الليل أفكر بما قاله مصطفى، وأذكر أنه أتى على ذكر الفلاحين المعذَّبين والعمال والفقراء أو أي شيء من هذا، والذي كنت قد نسيت التفكير به تحت وطأة النضال الوطني.

قال بلهجته الطرابلسية: "بْشَرَفوك" ما جايي تعمل مشكل؟

قلت: لا والله أريد منك توضيحاً لما قلته البارحة.

عند ذلك اطمان لي وادخلني إلى المخزن. وذهب بي إلى مكان يخبئ فيه بعض الكتب، وأعطاني "البيان الشيوعي". وقال لي: اذا كنت تريد أن تعرف ما قلته البارحة فخذ هذا الكتاب واقرأه ولكن بسرية شديدة، وإياك أن تفقده أو أن تترك مجالاً لأحد أن يعرف مصدره. فوعدته بذلك وقد كنت ولا زلت دائماً أفي بوعودي وعهودي ومواعيدي.

قرأت الكتاب بشغف قلّ نظيره. وما ان وصلتُ إلى المقطع الذي يقول: بأن التاريخ منذ انحلال المشاعية البدائية

إلى يومنا هذا ـ لم يكن سوى تاريخ نضال بين الطبقات، فالحر والعبد والنبيل والعامي، والاقطاعي والقن، ورئيس الحرفة والصانع، اي بالاختصار المضطهدون، والمضطهَدين، كانوا في تعارض دائم... الخ

ما إن انتهيت من هذا المقطع، حتى شعرت بأن غشاوة بدأت تزال عن عيني، وكلما تقدمتُ في القراءة كلما ازدادت بصيرتي رؤيا، وكانت الكلمات تنغرس في مخيلتي: فلترتعش الطبقات الحاكمة امام فكرالثورة الشيوعية، يا عمال العالم اتحدوا الخ.، واذكر انني قد حفظت معظم البيان عن ظهر قلب وأعرف كل مقطع في أية صفحة يقع.

كنت فرحاً كثيراً بما توصلت اليه من معرفة وقلت في نفسي: هل يوجد في الدنيا وضوح أكثر من هذا؟.. الآن عرفت سبب الفقر وسبب الجوع وسبب الحروب، وسبب المتخمين الملاعين، سبب القهر والظلم. سبب الطغيان. وكنت تلقائياً اردد بيني وبين نفسي تلك المقاطع لماركس فلترتعش الطبقة الحاكمة أمام فكر الثورة الشيوعية.

ـ تغزو البورجوازية الكرة الأرضية بأسرها بدافع الحاجة الدائمة إلى اسواق جديدة الخ تبعاً لتقدم رأس المال؛ تتقدم البروليتاريا، طبقة العمال العصريين الذين لا يعيشون إلّا اذا وجدوا عملاً. وهؤلاء مُجبَرون على بيع أنفسهم يوماً بيوم. هم بضاعة الخ. يقوم بالنضال بادئ الامر عمال فرادى منعزلون، ثم يتكاتف عمال معمل واحد، ثم يعمم النضال...

ـ في المجتمع البورجوازي ليس العمل اليومي إلّا وسيلة لإنماء العمل المتراكم، أما المجتمع الشيوعي فليس العمل المتراكم إلا وسيلة لرفاه حياة الشغيلة. يهولكم ويردعكمأاننا نريد محو الملكية الخاصة، ولكن مجتمعكم هذا ذاته، تسعة أعشار أعضائه، محرومون من أية ملكية خاصة، وإذا كنتم تتمتعون بملكية خاصة فما ذلك إلّا لأن الأعشار التسعة الباقية محرومون من أي ملكية خاصة... الخ.

ـ على انقاض المجتمع البرجوازي القديم، يبرز مجتمع جديد تكون حرية التطور والتقدم لكل عضو فيه شرطاً لحرية التطور والتقدم لجميع الاعضاء..

ـ لا يعمد الشيوعيون إلى إخفاء آرائهم ومقاصدهم ومشاريعهم بل يعلنون صراحة عن اهدافهم، فلترتعش الطبقات الحاكمة امام فكرة الثورة الشيوعية، فليس للبروليتاريا ما تفقده سوى قيودها واغلالها، وتربح العالم بأسره.

مقاطع لا بل صفحات كانت تلتصق وتنفرش في مخيلتي، وكنت كالمهووس أتساءل: لماذا لا يثور كل المضطهدين على اوضاعهم. حتى أفكاري عن تحرير المجتمع كانت لا تزال بدائية، ولكن هذا الكتاب فتح أمامي باباً واسعاً وأزاح غشاوة عن بصري كنت اشعر بها ولكنني لا أعرف كيف أزيلها. ومنذ ذلك الوقت وأنا لا أزال أعمل لأصل إلى

تحقيق هدفي كشيوعي لا يخفي أهدافه الواضحة، ولا يكل عن العمل من اجل تحقيقها.

كنت أشعر بشيء جديد دخل في حياتي وكنت أردد بيني وبين نفسي: وأخيراً وجدتها.

كدت اذهب إلى زميلي عيسى مسوح وأعطيه الكتاب لقراءته ولكن وعدي لصاحب الكتاب منعني من الاقدام على ذلك، خوفاً من الوصول إلى ما حذّرني منه.

أصبحت شيوعياً: ذهبت إلى "عصابتي" واخبرتهم بما توصلت اليه من اكتشافات جديدة عن الاسباب التي تؤدي إلى الفقر والقهر والعذاب والاضطهاد، وبيّنت لهم بان الترّهات والتخرّصات التي نسمعها عن الشيوعيين كلها دعاية وكذب ونفاق، وأخبرتهم بأنني قرأت دستور الشيوعيين ولم أجد أي كلمة لا عن الدين ولا عن انحلال العائلة. وإنني قررت الانتماء إلى الشيوعيين. فعارضني العازوري وكان اضخمنا جثة وأشدنا قوة: "يا عمي شوباك يا أسبر كل شهر شهرين بتأخذنا محل مثل ليفة الحمام من قفا واحد لقفا واحد". وهنا ضحكنا جميعاً لورود مثَل كهذا وأجبته: "يا أخي كل مرة بكون مع ناس وبِحْتك بناس تانيين بشوف الأحلى وبلحقو. صحيح الكتائب لحقني بولس الموارنة والاسلام بدها تاكلنا، فكرت صحيح فمشيت معو. نجيب الخوري يا خيي مسيحي وما قللي هالشغلات كلها، قللي

سوريا الكبرى ونجمتها قبرص قلت هذا أحسن. إجانا مسّوح وقللي العرب من المحيط للخليج قلت كمان هيدا أحسن. وهلق إجانا الشيوعي. فقال: "إنَّ نضال العالم كلو سوا، أي الفلاحين والعمال والفقراء والمعذبين في العالم، كلهم أخوة. كما أن الاقطاعيين والرأسماليين في كل العالم أخوة أيضاً. يا خيي هيدا نضال مشتبك ببعضو على صعيد العالم ورؤيته للتحرر أوضح ومعقولة وممكن تحقيقها أكثر من كل هالشغلات الشّفناها، فبقى ما بدك ياني أنقل كل ما شفت شي أحسن والله يا شباب اصطفلوا أنا بدي أعمل شيوعي وانتو حرّين". فأيدني معظمهم بما فيهم العازوري[٢٠] وكان يوماً حزيناً على عيسى مسّوح عندما أعلمته بتركي للعرب الأحرار. وقال لي بأن المالكي سيحزن كثيراً عليك. فقلت له بأنني مهما بعدت عنه فسنبقى نناضل في ساحة واحدة، كالجيش يقاتل كله في معركة واحدة ولكن فصائله مختلفة. وبالفعل كنّا على صعيد قواعد الأحزاب آنذاك نعمل كجبهة وطنية ولم تكن تؤثر علينا كثيراً خلافات الأحزاب في الخارج. وعلى الرغم من النضالات الكثيرة والمتنوعة التي قام بها عناصر الجيش آنذاك، اللبنانيون منهم والسوريون، لم تذكر في تاريخ حركات التحرر هذه النضالات ضد الانتداب

---

(٢٠) اغتيل العازوري ١٩٧٥ من قبل القوميين السوريين انتقاماً منه لما أنزله من عذاب أثناء محاولة الانقلاب الفاشلة ليل عام ١٩٦١.

التي لا يجوز طمسها أبداً بخاصة وأنها تتعلق بنضال قوات عسكرية عربية مسلّحة وهي لا تزال تحت حكم الفرنسيين.

بدء العمل/التنظيم: لم نكن نعلم تفاصيل كثيرة من أهداف كل حزب، سوى عمل "العرب الأحرار" الذي كان واضحاً أكثر من غيره، فحزب الكتائب مثلاً لم أعلم عنه شيئاً سوى ما يقوله بولس الأسمر من خوفه من الاسلام لابتلاع لبنان، لذلك على الموارنة التكتل والنضال للحفاظ على المسيحيين المهددين دائماً لأن جيراننا معظمهم من المسلمين. أما القوميون السوريون بالفعل كانت رؤيتهم أوضح باعتبار أن لبنان وسوريا والاردن والعراق وفلسطين كانت أرضاً واحدة ويجب العمل لإعادة لحمتها، ولو لم تكن نجمة تلك الدولة هي قبرص، لما تمكّن عيسى مسوح من سلخي عنهم. إنني لم أكن أميّز كثيراً سوريا الكبرى وبلاد العرب من المحيط إلى الخليج، لو لم يأت عيسى بخريطة ويبيّن لي تفصيلياً مواقع كل دولة، وكيف أن قبرص لا يربطها شيء بالبلاد العربية لا أرضاً ولا لغة حتى ولا عادات أو تقاليد.

وهكذا كان منطق عيسى يتوافق مع الواقع الجغرافي، اذ إن البلاد العربية ترتبط بوحدة الارض واللغة والتاريخ المشترك والثقافة، ويتطابق مع المراحل النضالية التي كانوا يخططون لتنفيذها. ولكن حضور ذلك الشيوعي في تلك الليلة "لا أذكر التاريخ بالضبط إنما في ١٩٤٣" قَلَبَ مفاهيمي كلها

نظراً لربطه النضال في سبيل الاستقلال مع العمل لرفع الظلم والقهر والفقر عن الكادحين والمعذبين في الارض. ويتبيّن بوضوح ما الهدف من الاستقلال إذا لم يكن إحدى المراحل التي بواسطتها نتابع النضال لإزالة الغبن اللاحق بكل كادح على وجه الأرض؟ هذا الربط لفت انتباهي وسألت نفسي لماذا نسيت الفقراء والمعوزين وهم الذين استهلكوا معظم صلواتي وابتهالاتي إلى الله والقديسين أن يزيلوا الغبن عنهم. هذا بالاضافة إلى صداقتي مع كلب خالي عبدو، وكذلك العقوبات المتعددة والمتنوعة التي انزلها بي مدير معمل الحرير يوسف الطحّان وصاحب المعمل توماسو...

أليس كل هذا القهر والعذاب الذي أنزل بي كان نتيجة لدفاعي عن الفقراء والمعذبين؟ أم أنني كنت مأخوذاً بالآفاق الوطنية التي أدركتها؟

إن الاحتمال الثاني هو الصحيح على ما أعتقد. إذ إن النضال ضد المستعمر، ونظراً لوعيي السياسي البدائي والذي بدأ يتوسّع كلما ازداد اختلاطي بمناضلين عسكريين مثلي، إن هذا النضال هو الذي جعلني اعتقد بأن البلاء كله من الأجنبي إلى أن أتى ذلك الرفيق وأعادني إلى قواعدي!

انضمامي إلى الحزب: اتفقت مع ما بقيّ معي من العناصر بأن أفتش عن المسؤول الشيوعي واتحدث معه. وكنت قد أعدت الكتاب إلى صاحبه بعد قراءته عدة مرات

مع الرفاق الباقين. وقد بدأنا نرفض مناداتنا بالعصابة بل بكلمة "رفيق" ومن يخالف فالعقوبة بعد التنبيه تكون الضرب. سألت صاحب الكتاب عمّا إذا كان بامكاني الانضمام للشيوعيين مع رفاقي؟ "كان قد بقي منهم ستة أو سبعة، فبعضهم ترك الجندية وبعضهم الآخر استهول النضال بعدما اتضحت له العواقب" فأجابني أنا ليس لي علاقة معهم إنما يوجد عريف يدعى لطف الله شبل من قرية الجديدة قرب منيارة عكار إذهب اليه واسأله. فذهبت إلى لطف الله المذكور مسرعاً وفرحاً بالوقت نفسه، باعتباره معروفاً لديّ جيداً وهو زميلي في سلاح الاشارة. ولما أفصحت له عن سبب مجيئي اليه. قال "أهلاً وسهلاً فيك. بس يا عمّي انت واحد شراني[٢١] وكيف بدك تعمل شيوعي". قلت له "يا اخي شو الشيوعية غير شكل عني فأنا كل عمري ومن حداثتي وانا أدافع عن الفقراء والمعذبين". وهنا قصصت عليه بعض أعمالي تجاه فقراء قريتي". قال: "يا إسبر، الشيوعي بدو يكون طويل البال وصدره واسع، بدو يتحمّل شوية مغالطات وشوية تهجمات من هون ومن هون". قلت "يا خيي شو بدك بها الشغلات بدّي اعمل شيوعي ومعي ستة أو سبعة عناصر. أذكر منهم رامز اسبر من جبرايل، ابراهيم قفران من الفرزل،

---

(٢١) شرّاني: يعطى هذا الوصف لمحبي القتال والمشاكسات.

حسن الضيقة من بعلبك. العازوري، الياس ابو خليل من بعبدا وكذلك بعض أبناء قريتي الخ....".

ورحب بي ثانية وحدّد لي موعداً للاجتماع دون رفاقي وذلك ليدرس معي وضعي مع بقية الرفاق لأنه ليس لديه تفويض للبت بأمري.

وبالفعل تم الاجتماع وفوجئت بوجود أحد أبناء قريتي في الاجتماع وهو الياس فخر ابن خالي، ولم اكن على علم بأنه شيوعي. رحّبوا بي وأخبروني بموافقتهم على انضمامي اليهم وقد أخبرهم الياس ابن خالي عن مهارتي بكل شيء، وأخبرهم أيضاً بأنني كنت دائماً الأول في صفّي وبطبيعتي أحب الفقراء. وقد عيّنوني مندوباً للحزب في الاجتماعات المشتركة التي تنظم أعمال "الشغب" ضد الجيوش الاجنبية المتواجدة على الأرض اللبنانية.

منذ ذلك الوقت بدأت تصلنا جريدة "صوت الشعب" بانتظام، وكان يأتي بها أحد رجال الجمرك ويضعها في تنكة مثبتة في سياج بستان يقع على الطريق العام: قرب ثكنة الفوج الثالث في ضبيه. وكانت تلك التنكة هي صندوق بريدنا، وكنت أنا المكلّف بنقل البريد يومياً وتوزيعه على الرفاق. ولم أعلم كيف تمّ تنظيم هذا الاتصال. واعتقد بأن رجل الجمرك هو الذي نظّم هذا الربط، لأنني كنت أرى أحد الرفاق يتردد عليه كثيراً.

بدأنا نتثقف سياسياً: الثقافة الحزبية كانت بدائية أيضاً، لأننا لم نكن نتقن سوى النضال ضد الأجنبي المستعمر، وبأن الحزب الشيوعي سيقوم بثورة ويصادر أراضي الاقطاعيين وثروات الرأسماليين ويوزعها على العمال والفلاحين، ولهذا السبب من الواجب على كل كادح أن يكون شيوعياً، ولم نكن نَفْقَه أي شيء عن علم الاقتصاد.

كنت أكثر من جميع الرفاق على صعيد الثقافة الحزبية، إذ إنني كنت حفظت معظم ما ورد في "البيان الشيوعي" عن ظهر قلب، وبمناسبة ومن دونها كنت أردد المقطع القائل: "إنّ الرأسمالية تخلق حفاري قبرها. فسقوطها وانتصار البروليتاريا أمران محتومان لا بد منهما"، وهنا كنت أعطي المثال، كيف أن الانظمة التي سبقت الرأسمالية كالرق والاقطاعية، وغيرها كانت تنتج حفاري قبورها، ولأن التاريخ كله نضال طبقات فإنّ فئة قليلة تستثمر أغلبية الناس، لذلك سيبقى النضال مستمراً إلى أن يقضى على استثمار الإنسان للإنسان. فلترتعش الطبقات الحاكمة أمام الفكر البروليتاري. فالبروليتاريا في نضالها لا تخسر سوى القيود والأغلال وتربح المجتمع بأسره، بشرط أن يتحد العمال والكادحون في العالم. ولم أكن أخرج عن هذه المقاطع القليلة لأنها على الرغم من بساطتها لم يكن يوجد استعداد كبير لفهمها، إذ كانت تدور المناقشات حول متى سيحدث هذا؟ أو بأي حق يا أخي واحد عندو شوية أرض وشوية مصاري تجي أنت

وتاخدلو ياهم. كنت أقرأ جريدة "صوت الشعب" علّي أجد فيها ما يساعدني على خلق براهين على قناعاتي التي لم أشك لحظة في حقيقتها وتحقيقها، ولكنها في معظم مقالاتها كانت تحرّض على التكاتف والنضال المشترك لطرد الأجانب من بلادنا والحصول على الاستقلال اذ لا بد من التكاتف والابتعاد عن الأخذ بما ينشره الاجنبي من دعايات عن الخطر على المسيحيين في حال الحصول على الاستقلال. وحتى كانت الدعايات تشكك بالعجز عن دفع رواتب الجنود لأن الفرنسيين أخذوا كل شيء ولم يبق في الخزينة ولا درهم. وهكذا كانوا يصورون لنا مستقبلاً قاتماً فيما لو تخلّوا عنا.

صحيح كنا نقوم بدعايات مضادة بأن العكس هو الصحيح وأن أحوالنا المادية ستتحسن من جميع نواحيها، لأن الحكم سيصبح وطنياً والفرنسيون والأجانب هم الذين يأخذون من مالنا وخزينتنا رواتبهم ومصاريفهم الحربية منها والعادية. وبرحيلهم ستبقى أموالنا لنا. ويكفينا أن الذين سيحكموننا هم ضباط وجنود لبنانيون. وسيعود اللبنانيون الموجودون في الخارج وفي سوريا إلى الوطن الأم، وسنرتاح من همجية ضباط وصفوف الضباط الفرنسيين الذين لم يتورّعوا يوماً عن تحقيرنا أينما وجدوا. وكان التأكيد على الخلاص بواسطة هذه المبادئ أنجح البراهين، ويساعدنا على اقناع زملائنا الجنود وصفوف الضباط، وحتى الضباط، الذين كانوا ينفون كل

الدعايات المغرضة ويؤكدون على ما نكون قد بنيناه من توعية للجنود، لأننا كنا في الاجتماعات المشتركة نتفق على ما يجب القيام به من دعايات وأعمال.

وهكذا كنّا نعتمد قراءة "صوت الشعب"، مع أصدقائنا، وبالفعل لم نكن نفقه معظم ما تكتبه باستثناء النضال من أجل طرد الأجانب والتكاتف بالعمل. حتى أنني كنت معظم الأحوال أمنع نائب السرية من الحضور إلى التقرير اليومي لقراءة الخدمات العسكرية "حرس، الطوارئ، كلفة أو مذكرات خدمة" قبل أن أكون تلوت افتتاحية "صوت الشعب". وقد تعرّض بعض العسكريين للضرب عند الاعتراض على القراءة، وقد تعرّضت لعقوبات متنوعة، وظلت تلك العقوبات تطاردني حتى بعد أن نلنا استقلالنا الوطني لأنهم يعتبرون مخالفاتي والعقوبات التي أنزلت بي أثناء الحكم الفرنسي، وكأنها عقوبات في العهد الاستقلالي.

بقيت ثقافتنا الحزبية محدودة حتى تنظيمنا كان فوضوياً، بالإضافة إلى أن نضالنا اليومي كان علنياً ولم نفكر يوماً بابقاء جهاز سري لادارة العمل حين تعرّضنا للطرد أو الاعتقال الذي كان مصلتاً كالسيف فوق رؤوسنا. وعبثاً حاولنا زيادة ثقافتنا بواسطة أحد المتنوّرين حزبياً من المدنيين. وبرأيي أن الحزب كان مهملاً جداً قضية تنظيم خلايا الجيش، وكانوا دائماً يوعزون الينا بالتثقيف ذاتياً، بواسطة المنشورات الحزبية وكانت "صوت الشعب"، و"في سبيل سلم دائم"،

ونشرة وكالة تاس التي لم نكن نفهم منها شيئاً سوى ما يحققه الجيش الأحمر وجيوش الحلفاء من انكسارات أولاً وانتصارت فيما بعد....

الفوج الأول: كان يُفرحنا كثيراً ما يصلنا من اخبار عن نضالات الفوج الأول وقائده المقدم جميل لحود، وعن قوة تنظيم رفاقنا هناك وثقافتهم الحزبية، وكم تمنّينا لو نتمكن من الاتصال بهم لمساعدتنا على تنظيم وتثقيف أنفسنا. ولكن كما يقول لينين كل الطرق تؤدي إلى الاشتراكية. فخوفاً من شدة نضال رفاقنا هناك تم نقل معظمهم تأديبياً إلى قطع أخرى، وفي هذه الحالة أصبح في كل قطعة قائد أكثر تجربة منّا، ما عدا الفوج الثالث الذي أنتمي اليه، فكنت اتصل ببعض من أراه أكثر ثقافة وخبرة، إلى أن توصّلنا إلى تأليف قيادة موحّدة من كل قطع الجيش، وكانت ثلاث عشرة قطعة على ما أذكر. فكانت اجتماعاتنا فصلية وتتمّ بدقة متناهية، إذ إنني لا أذكر أن تغيَّب أحد عن الاجتماعات المقررة، سوى الرفيق المدني الذي كان مكلفاً بالإشراف على تثقيفنا وتنظيمنا، وكان كل مرة يبرِّر عدم حضوره (لأنني أنا كنت المسؤول عن الاتصال به واحضاره إلى المكان) بان الاتصال بنا فيما لو تم اكتشافه فستكون عاقبته الاعدام، وفي معظم المرّات كان يقول لي: قل لهم بأنني مشغول أو إنني لم أجده، وكنت أصدق بكل إخلاص ما يقوله لي وأعود إلى الرفاق المنتظرين بعذر مبرر.

لم نتأثر كثيراً بهذا التأخير. وكنّا، داود وبطرس وموسى وأنا، محتاطين لهذا التأخير فنبدأ بقراءة أحد المقالات السياسية، من "صوت الشعب" أو "في سبيل سلم دائم"، أو نشرة وكالة تاس، ونستعين بتفسيرات بعضنا البعض للتحليلات السياسية والتنظيمية والعسكرية، وبالفعل كان بطرس هو الأوضح في تفسيراته.

إنني أتذكر أحد الاجتماعات التي حصلت بدعوة أكبر عدد ممكن من الرفاق فاجتمعنا ببيت داود وكنا نزيد عن المئة مندوب، حيث تحوّل ذلك البيت إلى ثكنة عسكرية أكثر من بيت عادي لذلك اضطررنا للجلوس على الكراسي وعلى الأرض والبعض ركوعاً والآخر وقوفاً؛ فالرفاق الذين بقوا خارجاً ضعف الذين كانوا في الداخل. وأعتقد يومها أننا درسنا قرارات المؤتمر الأول للحزب الشيوعي الذي كان حزباً واحداً في سوريا ولبنان. وهكذا تم ذلك الاجتماع الكبير والضخم بالنسبة لعسكريين من مختلف الرتب ما عدا الضباط دون حراسة ودون أي احتياطات احترازية، وحتى دون حضور مسؤول مدني. وبالفعل فإن ذلك الحشد شدّ من عزيمة الجميع، وكان فرحنا عظيماً جداً ولا أخبركم من كان يرأس الاجتماع الذي قال: "إذا كنا هنا المندوبين فقط يا رفاق فتأملوا كم لكم من الرفاق، الذين يشاركونكم تطلّعاتكم وقناعاتكم الحزبية".

وقد عاد كل من حضر الاجتماع وبصدر عامر بالثقة

والفرح والإيمان العميق بحتمية انتصارنا، خصوصاً وأن الجيش الأحمر كان قد بدأ بكسر الفك الفاشي الذي أوشك أن يطبق على موسكو عاصمة الاتحاد السوفياتي، وأصبح محط أنظار الشعوب وأملها في الانتصار ودحر الفاشية.

الخيانة: دانيال خوري أحد الأعضاء القياديين في التنظيم. وكان معروفاً بأنه من أشد الناس إخلاصاً لمبادئه، وكان يتحلّى بصفات جيدة، فهو هادئ رصين محب للعمل، طموح، وكان رفاقنا يبذلون جهداً كبيراً لرفع مستواه، باعتبار أن لديه المؤهلات والصفات ليكون قائداً جيداً، هذا بالإضافة إلى كونه سكرتير منظمة الفوج الثاني في طرابلس.

كان تجمعنا آنذاك في مدرسة القتال دورة تدريبية مقسَّمة إلى فرعين، الفرع الأول كان للترقية لرتبة عريف والفرع الثاني للترقية لرتبة رقيب. وكنّا من مختلف قطع الجيش، ومن غريب المصادفات أن يكون في كل فوج عنصر شيوعي أو أكثر يتابع تلك الدورة. فكانت فرصة مناسبة جداً لتنظيم اجتماعات دورية نركز فيها على التثقيف الذاتي بحيث كنّا نعتمد على أنفسنا بعد أن قطعنا الأمل من رفاقنا المدنيين، والذي اقتصر اتصالهم بنا فقط لإيصال المنشورات وقبض الاشتراكات. ويا ليتنا بقينا على هذه الحالة لأنه بعد صدور قرار تنظيمنا على عاتق الحزب، وذلك القرار المتضمن بأن الحزب في كل منطقة يأخذ على عاتقه الاتصال بالتنظيم

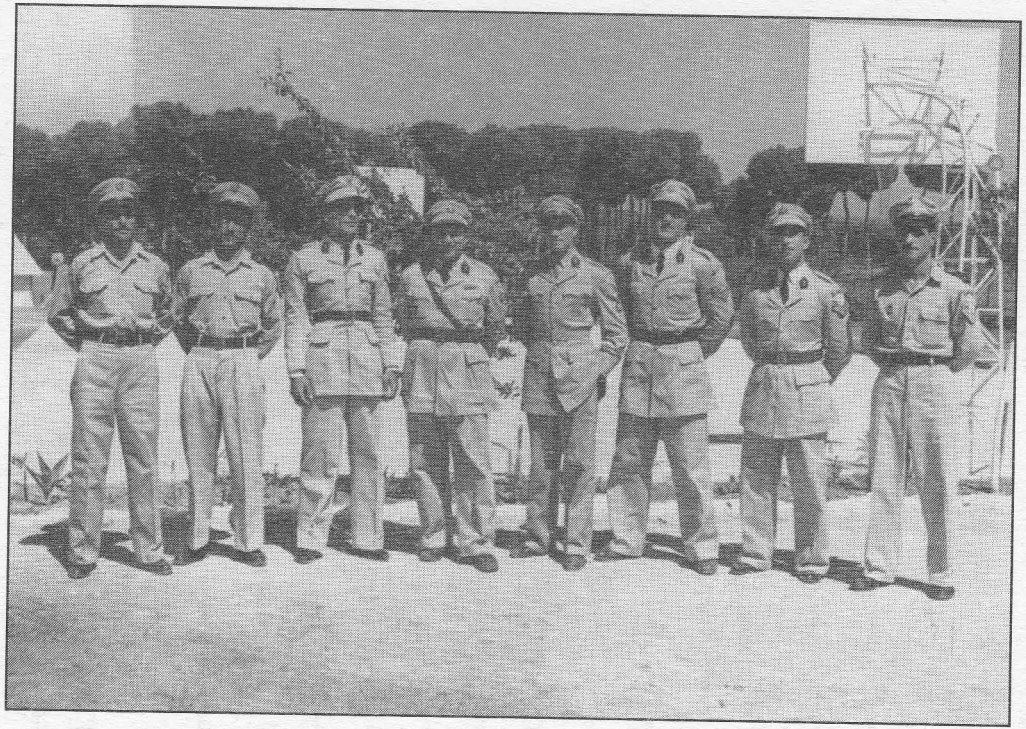

الأسماء من اليمين إلى اليسار:

١- محمود عياش - ٢- محمد نعمان - ٣- ميشال سكاف - ٤- حسن السيد - ٥- شارل ضاهر - ٦- اسبر البيطار - ٧- أحمد الطويل - ٨- انطوان يونس.....

العسكري الموجود في المنطقة نفسها، ويعيّن قائد مدني على رأس كل تنظيم، فلما درسنا القرار، وافقنا عليه بالإجماع، وكان كل توجيه أو أمر يأتينا من الحزب كنا نعتبره من المسلّمات والآيات التي لا تُناقش، وأعتقد بأن روحية القانون العسكري الذي يفرض على العنصر التنفيذ ثم الاعتراض، كانت غير بعيدة عنّا في هذا المجال. ومنذ تنفيذ ذلك القرار لم يحصل أي عمل حزبي جيد على صعيد العسكريين، وكان كلما التقى أحدنا بالآخر يشكو له الإهمال والركود في عمله الحزبي.

لنعد إلى دانيال خوري وخيانته. لا أذكر ما هو اليوم الذي كان محدداً للاجتماع الدوري. أذكر أنني في النهار نفسه وأثناء استراحة القيلولة، كنت أجلس ودانيال تحت إحدى صنوبرات "مدرسة القتال"[٢٢] نستعرض ما نلاقيه من ضغط من قبل الشعبة الثانية والتي كان يرأسها ضابط لعين تربّى على أيدي الفاشيين الفرنسيين من آل الحصواني لا أذكر اسمه الصغير. لقد كنا مهدّدين بالطرد من الجيش أو على الأقل إذا نجحنا في الامتحانات، فإننا سوف لا نترقّى، وهذا أمر مؤكد لأن الشيوعيين كانوا من أحسن العناصر في هذه الدورة

---

(٢٢) مدرسة القتال هي إحدى الثكنات التابعة للمدرسة الحربية. وكانت مخصصة للتدريب العنيف ولمختلف أنواع الرياضة وكان اسمها الكامل "مدرسة الرماية والرياضة والقتال".

التدريبية. وكان يقود هذه الحملة أحد عناصر الشعبة الثانية، وهو العريف أو الرقيب كما أذكر، يُدعى ديب يوسف ديب من القبيات الذي سنعود لتخصيصه بمقطع، في فقرة لاحقة، فكنت أُطيب خاطر دانيال وأعطيه مثلاً على ذلك وضعي أنا، وأبيّن له كيف أن كل الناس من أقربائي وأصدقائي والضباط يهولون عليَّ ويهددوني وأنا لا أبالي، فما هي قيمتي كإنسان إذا كُنت حياً فقط للأكل والشرب وملاحقة النساء أو الزواج وإنجاب الأولاد فيما بعد؟ فهل الحياة تختلف عن حياة أي حشرة، وفي الخندق كان يمر صرصور أسود بقربنا، فقلت له أُنظر إلى هذه الحشرة القبيحة، فهي تحيا فتأكل وتشرب وتتناسل، فإذا توقف عمل الإنسان على ممارسة هذه الأشياء فلا فرق بينه وبين أي حشرة أو حيوان. فالإنسان الذي هو أحد الفصائل الحيوانية، يمتاز عنها فقط عندما يتبنّى رسالة النضال من أجل إزالة الفقر والجهل والمرض، أي بمعنى أوضح إزالة استثمار الإنسان لأخيه الإنسان. أما إذا عاش فقط للأكل والشرب والتناسل فهو، واقعياً ومنطقياً، حيوان كبقية الحيوانات ولا يختلف عنها سوى بالشكل كما تختلف الفصائل الحيوانية بعضها عن بعض.

في المساء ذهبنا إلى الاجتماع وكان دانيال يمتطي معي دراجتي الهوائية. وبالطبع تفرّقنا قبل الوصول إلى مكان الاجتماع بمسافة خمسين متر تقريباً. وما إن اقتربت من أحد المفارق المؤدية إلى ذلك البيت حتى شاهدت الرقيب أول

قزّي (كان مدرباً لنا وعنصراً من عناصر الشعبة الثانية)، وهو يقف في مكان صالح للمراقبة أكثر منه مكاناً للانتظار.

استرعى انتباهي وجوده بالقرب من مكان الاجتماع، فبقيت متابعاً طريقي حتى أصبح مقر الاجتماع بعيداً عني، هناك تسللتُ عبر أحد الزواريب الضيقة، وأبلغت بقية الرفاق بأن البيت كان مراقباً من قبل الشعبة الثانية، وبالفعل كان فشل الاجتماع أول تكذيب لوشاية الخائن دانيال.

داود محذراً: في الصباح الباكر أتت سيدة لزيارتي، ولما وصلت إلى مدخل الثكنة تبيّن لي بأن تلك السيدة هي، حماة الرفيق داود الأسمر، وأخبرتني بأن داود يريد رؤيتي بسرعة وضروري جداً.

عدتُ إلى غرفة المنامة وارتديت ملابسي الرياضية وخرجتُ مسرعاً تحت ستار إجراء بعض التمارين الصباحية، مع العلم بأن أحداً لا يجرؤ على معارضتي في أي عمل أقوم به نظراً لما كنتُ أتمتع به من قوتين جسدية وفكرية.

ابتعدت قليلاً عن المدرسة للتمويه ثم سلكتُ إحدى الطرق التي تؤدي إلى بيت الرفيق داود. وما إن وصلتُ إلى هناك حتى وجدته بانتظاري مرتدياً ملابسه العسكرية بغية الذهاب إلى عمله. فأخبرني بأن دانيال أتاه ليلاً وأخبره بأنه خاننا وأعطى أسماءنا إلى الشعبة الثانية. وقد أمرني داود، باعتباره كان مسؤولاً مباشراً عني، بألّا أقدم على أي عمل

بل الواجب يقضي عليَّ التظاهر، وكأن شيئاً لم يحدث. فأخبرته ما حدث لي معه هذا النهار بالذات وسألته كيف تريدني أن أمر على هكذا خيانة وكأن شيئاً لم يحدث والله لأعمل وسوّي.... وسوف أخنقه ليلاً هذا الخائن. فقال: هذا أمر، وهنا تظهر صلابة الشيوعي الحقيقي، فمصلحة سلامة التنظيم تفرض عليك ذلك. فرضخت للأمر وبالفعل تجاهلت القضية وهذا التجاهل أعطاني نتيجة باهرة لأن عناصر الشعبة الثانية وبعد فشل الاجتماع الذي لم يحصل ولم يروا أحداً غيري في تلك الليلة بدأوا يشكّكون بصحة معلومات ذلك الخائن. والذي كنتُ كلما اقتربت منه ابتعد عني مسرعاً، وأعتقد بأنه كان يخشى أن أقضي عليه.

الجاسوس ديب يوسف ديب: ديب يوسف ديب كان عنصراً من أنشط عناصر الشعبة الثانية، وكان يكثّف زياراته لي ويدعوني لعدّة حفلات كانوا يقيمونها حتى بتُّ أعرف معظم العناصر المنتمية للشعبة الثانية. وكان الضغط يشتد عليَّ في مختلف الرسائل والإغراءات المادية منها والمعنوية. فكنتُ أسخر منهم جميعاً قائلاً: "أين الدليل على شيوعيتي، ما خلص انحل الحزب الشيوعي، إذا انحل الحزب وين بدنا نروح؟ ما بقى في شيوعي يا عمّي، وإذا حدا عم بيكذب عليكم حتى يا خذلوا شي شريطة فخيّطوا بغير هالمسلة".

فكانوا يقولون لي عليك بالسكوت وعدم المطالبة بتحسين اللباس والصابون والأكل، فأجيبهم "يا خيي هيك شغلات شوفيها فإذا كانت المطالبة بإنصاف المظلوم ورفع الغبن عن المقهور هي الشيوعية ففؤاد شهاب أول شيوعي بالجيش. ما بتشوفوا يا عمي لمّن بيزور القطع بيسأل العسكريين شو بدكم شو مطاليبكم؟". وكنت في كل مرّة أعود لرفاقي، بعد أن أبدلنا مواعيدنا وأمكنة تجمعنا، أخبرهم بجميع ما يحصل لي وأزوّدهم بأسماء عناصر الشعبة الثانية الجديدة كي يبتعدوا عنهم.

لم يبتعد عني ديب يوسف ديب معظم مدة الدورة التي كان هو أحد عناصرها. وأعتقد بأنه كان يهدف إلى منعي من الاتصال برفاقي أولاً، أو إثارة الشبهات حولي من قبل رفاقي. وهذا كان يضايقني نوعاً ما، إنما الذي كان يُفرحني أكثر بأن معظم الملتحقين بالدورة كانوا يعتبرونني من عناصر الشعبة، فكانوا يتقرّبون مني ويعلنون ولاءهم للشعبة وما تريده منهم. فكنت أنا بدوري أستغل هذا التجمع حولي للفت النظر حول أوضاعنا المعيشية في الجيش، من حيث قلة الصابون والراتب ونوعية الأكل والتطبيب الخ... وكنت أقبّح الحروب، التي تؤدي إلى قتل الجنود في الدرجة الأولى وتسبّب الويلات. وفي كل مرّة أعود لرفاقي أستعين بتوجيهاتهم باعتباري كنتُ الأكثر شعبية بين أترابي على الإطلاق.

يا ليتنا بقينا مرتبطين ببعضنا بعضاً، لأنه منذ أخذ الحزب على عاتقه تقسيمنا إلى تنظيمات تابعة للتنظيم المدني في كل منطقة لم نعرف للنضال المنظم المثمر أي طعم.

النضال مع السنغاليين: كنت وصديقي فريد صعب من الكحلونية-الشوف، تربطنا معرفة شخصية قوية جداً، برغم العداوة الفكرية الشديدة التي كانت بيننا آنذاك، أنا كشيوعي وهو كقومي سوري. فكنّا بالكاد نفترق أثناء خروجنا من الثكنة، وكان كل منّا يريد استمالة الآخر إليه. فهو يريد أن يُعيدني إلى الحزب القومي السوري، وأنا أقول له: يا أخي، لقد كنتُ بالحزب القومي، أنا الآن مقتنع أكثر بالشيوعية. وأرى فيها خلاص المعذبين في هذه الأرض، أما في الحزب عندكم فلا أشعر بهكذا قناعة الخ... من هذا التبادل في الرأي وصلنا في إحدى نزهاتنا، أنا وفريد صعب إلى جسر نهر الكلب، حيث كانت توجد آنذاك نقاط إسناد وPoints d'appui عسكرية تمتد على طول الشواطئ اللبنانية. وكانت أكثفها نقاط المساندة الممتدة من ضبيه جنوباً إلى جونيه شمالاً. ويقوم على حراسة هذه النقاط جنود سنغاليون.

وصلنا إلى جسر نهر الكلب حيث يوجد مركز قيادة تلك النقاط، فالتقينا بمعاون أول سنغالي، فأوقفنا وقال لنا: يا حضرات العرفاء، قالها باللغة الفرنسية "أريد أن أسألكم بعض الأسئلة فهل تتفضلون إلى المركز فنشرب الشاي

ونتحدث قليلاً". فأجبته أنا بشكل فوري "لا مانع لنذهب!"، ولكن فريد تحفّظ ورافقني مرغماً. دخلنا المركز الذي كان المكتب الرئيسي لقيادة نقاط المساندة هناك، وبدأنا الحديث حيث تناولنا مختلف الجوانب العسكرية وكيف أن الجيش الأحمر سينتصر وفرنسا ستنتصر وستحظى الشعوب على حرياتها كما وعد الحلفاء في حال انتصارهم الخ...". فبادره فريد قاطعاً عليه حديثه ماذا تريد أن تسألنا؟ طبعاً الحديث كله بالفرنسية التي يجيدها كلانا، فتابع قائلاً: "وأنا كما ترونني إنسان أحب محادثة الناس والتقرّب إليهم. ولكن ما إن يراني طفل أو امرأة أو ولد حتى يهربون مني وحتى الرجال يتحاشون محادثتي؟ وهذا ما يزعجني كثيراً أنا والمتنورين من رفاقي، فهل يمكنكم أن تقولوا لي السبب؟".

بالفعل كان السؤال مفاجئاً ومُحرجاً بالنسبة لنا نحن الاثنين، والتفت إليّ فريد قائلاً بالعربية: يلّا تفلسف يا حضرة الشيوعي وجاوب، وكنا نبتسم ثلاثتنا ولم يفقه السنغالي ما قاله لي فريد صعب.

فأجبت السنغالي وأنا أبتسم: "ولو لحد الآن لا تعرف لماذا يهرب الأطفال والنساء والأولاد عندما يرون أحدكم؟ ولا تعلمون لماذا يتحاشاكم الرجال أيضاً؟".

أجاب: "كلا، كلا، ولو أعلم لما سألتك عن ذلك؟".

قلت: يا أخي أنا من جملة الذين كانوا يهربون ويخافون منكم والسبب أن الفرنسيين يقولون عنكم بأنكم وحوش

وتأكلون لحم البشر والفرنسيون يصطادونكم من الأحراش ويأتون بكم ليحتلوا بلاد الناس بواسطتكم، حيث تكون الدعاية عن أعمالكم الوحشية قد سبقتكم.

كنت أتحدّث إليه وكنتُ أشعر بأن الشرر بدأ يتطاير من عينيه فوقف وأجابني: الفرنسيون يقولون عنّا هذا؟ فأجابه فريد بالطبع ولولا هذه الدعايات فهل كان الناس يخافونكم والأطفال والأولاد يهربون أو يبكون؟ وعلى كل نحن العرب مظلومون وأوضاعنا لا تختلف كثيراً عنكم. وقد ودعنا بعد أن شربنا الشاي عنده على أمل الالتقاء ثانية، ولكن كان ذلك اللقاء هو اللقاء الأخير.

السنغالي يحرّض رفاقه: ما إن تركنا مركز قيادة نقاط الإسناد وعدنا إلى ثكنتنا في الضبية، حتى جمع ذلك المعاون الأول السنغالي جميع رؤساء نقاط الإسناد وأخبرهم بما يقول الفرنسيون عنهم، فاتفقوا جميعهم على الإضراب عن الحراسة، وأبرقوا إلى القيادة العامة التابعين لها في بيروت وأخبروهم بأن نقاط الإسناد أصبحت بدون حراسة، والجميع، بما فيهم الرتباء، يرفضون القيام بأي عمل عسكري، لأن الفرنسيين يقولون عنهم كذا وكذا وكذا وقد فشلت كل المساعي لإعادة الوضع إلى طبيعته.

وحوالى منتصف الليل سمعنا البوق يعلن الاستنفار في فوجنا حيث نهضنا ونحن نحسب ألف حساب لهذا الاستنفار

الذي لم نعلم سببه سوى أننا استنتجنا أنه من المحتمل أن يكون هذا الاستنفار بسبب اشتداد نضال المؤتمر الوطني في سبيل الاستقلال، ومن الممكن أن يأخذونا إلى إحدى التظاهرات أو الانتفاضات الجماهيرية لقمعها، ولقد أجرينا اتصالاً سريعاً فيما بيننا وقررنا الوقوف إلى جانب الجماهير الوطنية في حال إرسالنا لكسر انتفاضاتها!

ولكن ما إن اجتمع الفوج حتى أتى قائده جميل شهاب وأخبرنا بأن الجنود السنغاليين مضربون عن الحراسة، وقد أتت الأوامر من بيروت لاستلام نقاط الإسناد منهم والقيام بحراستها بدلاً منهم.

وقد علمنا فيما بعد بأن الجنود قد نقلوا إلى ثكنة عسكرية (الأونيسكو حالياً وكانت تسمى الديفري دي لو) وقد اتسع الإضراب حتى شمل معظم القطع السنغالية المتواجدة في لبنان.

القتال ضد جنود الاحتلال: كنّا في الاجتماعات المشتركة الأسبوعية، التي تحصل نهار السبت من كل أسبوع، في خربة قديمة تقع شمالي قطعة ارض محرّشة من أشجار الصنوبر والسنديان، في حرش صغير، وهذه الحرشاية كانت تقع شرقي الثكنة في الضبيه. وكنت أنا الممثل الدائم للحزب الشيوعي في تلك الاجتماعات التي كانت تقتصر في معظم الوقت على تحديد نوعية فرقة الجيش التي نصطدم بها

(الشينوا) الإنكليز، الأستراليين، عسكر أبو ريشة، السنغاليين، المغاربة الخ... وبالفعل اصطدمنا بكل تلك الفرق المختلفة، إنما كان الاصطدام يحدد كل نهار أحد الساعة التاسعة صباحاً وضد إحدى الفرق فقط.

كنتُ أنا ومحمد الباشا طليعة الصدام، فواجبنا الاصطدام بأول شرذمة نصادفها من الجيش المحدد وعلى ساحة البرج، بينما يكون بعض الرفاق متربصين بالزوايا يُعْلمون بقية رفاقنا من الجنود العرب، بأن جنود الجيش الفلاني، السنغالي مثلاً، يتصادمون مع القناصة اللبنانيين، وخود عا سحب قشط والبدء بضرب جنود الانتداب، حيث كان ينضم إلينا ومساندتنا جميع أبناء العرب بخاصة اللبنانيين والسوريين الذين كانوا يخدمون في قوات فرنسا الحرة F.F.E.

وأذكر إحدى المعارك مع الجنود الأستراليين، حيث وصلت شاحنة مملوءة بالجنود، وما أن وصلنا إلى جنوب قهوة القزاز، حتى تصدّيت بسلاحي المعتاد، وهو القشاط، يساندني رفيقي في القتال محمد الباشا. فأنزلنا السائق والضابط الذي بقربه بعد أن أوقفنا السيارة وقد سهّل هذا العمل على رفاقنا بالاستحكام جيداً في ضرب أولئك الجنود، بحيث لم تكن ترى جندياً منهم إلا والدم يسيل من وجهه. ولم أعلم كيف حضر الضابط مخائيل أبو طقّه الذي بدأ يضربهم بسوطه الذي لم يكن يفارقه، وكان وهو يضربهم يصرخ بنا: "عيب عليكم يا شباب هودي ضيوف لازم

تكرموهم". وهنا نكون قد فهمنا مبتغاه فيزداد الضرب، وكان معظمهم ينطرح أرضاً، "حيث كانت القشاطات تنزل عليهم كزّخ المطر".

سلاحنا الوحيد كان القشاط وبعض العصي التي نكون قد خبأناها في السوق العمومي في الصباح وقبل البدء بالصدام، مع العلم بأن القشاط في القتال له وضع خاص، إذ على المقاتل أن يحمله مقلوباً، أي أن يُلف على الكف من الجهة غير المزرّدة، و تبقى الزردة من الجهة الأمامية فتصبح أشد مفعولاً من العصا؛ فبالعصا يمكن أن تضرب بها شخصاً من دون أن تجرحه مثلاً، إنما الزردة ما أن تهبط على رأس أو وجه المضروب إلا ويكون الدم قد ملأ ذلك الوجه. لقد قلت بأن القشاط يعطي مفعولاً أكثر، لأن رؤية المضروب ودمه يسيل تُرعب جميع من حوله، فيرتعبون خوفاً من رؤية الدم ويولون الأدبار. أما العصا فمن الممكن أن تؤذي المضروب أكثر، إنما يبقى مفعولها مقتصراً على المضروب فقط ولا يشعر الآخرون بمصابه، كما هي الحال بالنسبة للمضروب بالقشاط والدم يسيل على وجهه أو على ثيابه.

قتلت ضابطاً فاشياً: كان يوجد معسكر للأسرى المعادين للحلفاء في ضبيه، وكنا نأخذ أولئك الأسرى يومياً للعمل في الأشغال الشاقة كتكسير البحص ونقل الدبش ورصف الطرقات العامة وبناء الخنادق والتحصينات في هضبة ضبية

والمعروفة بهضبة مار يوسف حيث أصبح دير مار يوسف ذاته ثكنة عسكرية لجنود الحلفاء ولم يكن يقطنه أي راهب.

من بين أولئك الأسرى ضابط ألماني كان يشتم الجيش الأحمر كيفما اتفق له. وقد نهيته عن الشتائم عدّة مرات، ولكنه لم يمتنع بل بالعكس أصبح كلما رآني يشتم الجيش الأحمر والشيوعية. وقد صعُب الأمر عليّ على الرغم من تنبيه الرفاق لي بعدم الردّ عليه، ولكن كان للصبر حدود.

فما إن دخل ذلك الضابط أحد الخنادق ناقلاً بعض الحجارة حتى سددتُ بندقيتي المحشوة[٢٣] والملقمة وأطلقت رصاصةً في صدره، وجلست فوق أحد الحجارة متجاهلاً ما حدث. ولم تمض برهة حتى بدأ يزعق كالثور ولم أفهم ما كان يقوله بالألمانية. فتجمع بعض الأسرى والجنود والضابط المسؤول عنا، ولم يعلموا من أطلق النار، فقدَّرت بأنه سيجري تفتيش على السلاح وسيُعرف فوراً من هو مُطلق النار. فتقدمت نحو الضابط الذي لا أذكر من هو وقلت له: "يا سيدي أنا الذي أطلقت النار ولم أدرِ بأنني أصبتُ أحداً إذ إنني كنتُ أنظف بندقيتي من الشحم ولم أعلم كيف تم الإطلاق". وبالفعل فقد قُبل عذري واعتبروا بأن قتل ذلك

---

(٢٣) كانت الأوامر دائماً بتلقيم السلاح أثناء السير مع الأسرى خوفاً من هرب أحدهم، وهذا الدفع يجعل من الجندي جاهزاً للإطلاق الفوري للنار.

الألماني قضاءً وقدراً. وكنتُ فرحاً جداً بأنني أسكتُّ صوتاً فاشياً كان ينبح يومياً على أعّز قافلة ظلّت تسير من انتصار إلى آخر على الرغم من نباح الكلاب.

دورٌ مغمور: لم يُذكر في أي وثيقة ولا في أي خبر أو نشرة شيء عن نضال القوات المسلحة اللبنانية ضد جنود الاحتلال، ولم يذكر سوى الوثيقة التي وقعها ضباط لبنانيون، كان معظمهم متردداً قبل أن يتم الإفراج عن المعتقلين في قلعة راشيا.

صحيح أن الشيوعيين لعبوا دوراً هاماً في تحريك معظم النضالات في القوات المسلحة مع بعض الضباط الوطنيين، وكان في طليعتهم جميل لحود وعزيز الأحدب، ولكن الحماس الوطني كان يشكّل تياراً كبيراً جرف حتى الذين كانوا من المؤيدين لفرنسا كالكتائب مثلاً. وكان نضالاً مؤثّراً ولم تذكُر هذه النضالات سوى جريدة "التلغراف" على ما أذكر، وحتى جريدة "صوت الشعب" لم أذكر أنها أتت على ذكر هكذا نضالات.

فمثلاً: كنا نسمع كثيراً عن نضال رفاقنا في الفوج الأول وهو أول تنظيم شيوعي في الجيش وعلمنا: أن أحد تلك النضالات قامت به العناصر التي نُقلت إلى النبطية لتقمع تظاهرة تطالب بالجلاء والاستقلال، فبدلاً من قمع التظاهرة

سار الجنود في الطليعة وكان رفاقنا الشيوعيون في الفوج أول المتظاهرين.

أعمال كثيرة كهذه لم يؤتِ على ذكرها أحد. هذا بالإضافة إلى الصدام الأسبوعي (نهار الأحد من كل أسبوع) مع إحدى الفرق من الجيوش المسمّاة حليفة والموجودة على الأرض اللبنانية. حتى أنّ النقل التأديبي لجميع القوات اللبنانية إلى ضهر البيدر بحجة إجراء مناورات عسكرية عامة، لم يأتِ على ذكره أي من الصحف اللبنانية، مع أن النيّة من حصر تلك الجيوش هناك كانت واضحة، والهدف منها إبعاد الجنود عن المشاركة أو مساندة نضالات المؤتمر الوطني والحكومة الوطنية آنذاك في سبيل الحصول على الجلاء التام عن أراضي سوريا ولبنان.

في ضهر البيدر: لم يتوقف نضالنا في ضهر البيدر، بل كانت فرصة ثمينة لنجتمع مع رفاقنا ونتبادل تجربتنا النضالية فيما بيننا، ومن حسن الحظ أنني كنت رئيساً لمكتب مدير المناورات المقدم جميل شهاب، مما سهّل لنا عقد الاجتماعات في إحدى الخيم المخصصة للقيادة دون حسيب أو رقيب، وكان أكثر الناس تردداً عليَّ الرفيق أسد روحانا وعبد الكريم جرجس، وكلا الاثنين لم تنفع معهما توجيهاتنا فيما يتعلق بالتحفظ نوعاً في الكلام عن الشيوعية، بل يبقى

التحريض وطنياً بشكله العام ومرتبطاً بما يحققه الاستقلال من منافع.

ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود؟

القنبلة اللعينة: قررنا نصب كمين لإحدى السيارات العسكرية الانكليزية، وكنت قد حصلتُ على إحدى القنابل اليدوية الدفاعية بصورة غير شرعية.

كان الكمين عند المنعطف الأول بعد المديرج وأنت متجه إلى زحلة. وما إن وصلت أول سيارة عسكرية حتى قذفنا القنبلة التي تدحرجت، فمرَّت فوقها السيارة من دون أن تنفجر[٢٤]. ولسوء الحظ كانت تسير وراء الشاحنة سيارة للشرطة العسكرية الانكليزية، فانفجرت القنبلة قبل أن تصل سيارة الشرطة، وفي هذه الأثناء كنا قد خرجنا من مخبئنا وبقينا نسير في حقل مجاور لمكان الانفجار، ولم نعلم بأن عناصر من الشرطة الإنكليزية قد أوقفوا سيارتهم وبدأوا التفتيش عن سبب الانفجار، فقطعوا السير بالاتجاهين، وقام قسم منهم بالتفتيش عن المسببين. وما إن رأونا حتى صرخوا بنا، وبالإنكليزية طبعاً، بأن نتوقف، فتجاهلنا إنذارهم في

---

(٢٤) للانفجار يلزم ثماني ثوانٍ من الوقت. وهذا ما ساعد الشاحنة للمرور قبل وقت الانفجار. وكذلك خطأ مني ومن رفيقيّ في سوء تقدير الوقت.

البداية، فأطلقوا نار مسدساتهم في الهواء وأنذرونا بالرضوخ وإلّا... عند ذلك استسلمت أنا وسهّلت الهرب لرفيقيّ علي العوطة وحسين الرفاعي وهما من مدينة بعلبك، وكانا يعتبران من الرفاق.

اكتفت الشرطة بالقبض عليّ، وعادوا بي إلى صوفر مركز تواجد مقرهم العام، وبدأوا التحقيق معي، فأنكرت كل الإنكار قضية القنبلة بالرغم مما تعرّضت له من الإهانة والضرب والشتم.

لم يمضِ على اعتقالي أكثر من ثلاث ساعات حتى أتى ممرّض وضمّد لي ما أُصبتُ به من جراح، طبعاً بعد أن أعادوا إليّ ألبستي وجميع ما صادروه مني، ثم أخرجوني من غرفتي الإفرادية وسلّموني إلى ضابط لبناني من آل البريدي، وما إن خرجتُ من مدخل تلك البناية التي لا تزال قائمة حتى الآن، حتى وجدتُ مئات الجنود في الخارج يصرخون مطالبين بالإفراج عني ومهددين بالانتقام لي.

وبالفعل لم يطل تهديدنا أكثر من أسبوع بالانتقام، إذ إننا في إحدى الاستراحات ذهبنا ما يقرب من الثلاثين رتيباً وجندياً، ووقفنا على قارعة الطريق العام، وأوقفنا أول شاحنة إنكليزية مرّت من هناك، ولم نكتفِ بضرب من فيها حتى الإغماء بل أحرقنا السيارة ولم يبقَ منها سوى الهيكل، وهددنا بأنه في حال تعرّض أي منّا لأذى من أي جهةٍ كانت فسننتقم، وبالفعل تمّت مصالحة دون إنزال أي عقوبات إنما

كانت هناك تعهدات من الطرفين بعدم الاعتداء، وقد نفذ هذا الاتفاق، بعكس ما جرى ويجري من تنفيذ للاتفاقات والقرارات العربية منها والدولية.

الإعدام الأول: عدنا من النفي المؤقت في ضهر البيدر وعاد كل فوج إلى ثكنته، وكان الحماس الوطني قد بلغ الذروة، وكذلك مستوى الحماس في اجتماعاتنا الحزبية التي كانت مناسبة فرحة لنا جميعاً لنستعرض انتصارات الجيش الأحمر، والاجتماعات التي كان يجريها رفاقنا في الخارج، وأذكر منها اجتماع حصل في المتحف واحتفال في الدورة أو النهر واحتفال في نهر الكلب. وكذلك الاجتماع المخصص للاشتراك الشهري الذي لم يتأخر عنه أحد البتّة، بل كان كل واحد منا بمجرّد أن يقبض راتبه يذهب مسرعاً إلى المسؤول المالي ويدفع اشتراكه بكل طيبة خاطر.

بعد أن تمركزنا في الضبية وطبعاً عدنا إلى الحراسة، وفي أحد الأيام لا اذكره بالضبط، إنما في عام ١٩٤٤ على ما أعتقد، كنتُ رئيساً للحرس، وقد فصلت بعض جنود الحرس للقيام بكلفة نقل بعض الأعتدة من مخزن اللوازم إلى مخزن آخر وكلا المخزنين قريب من مخفر الحرس.

ويصدف أن أحد رجال الكلفة كان فَقَد عصا معوله والتي لا يزيد طولها عن الخمسين أو الستين سنتمتراً، وأدوات كهذه موجودة بكثرة في المخزن. هذا بالإضافة إلى أن ذلك

الجندي كان يقوم بتكلفة نقل عتاد وأمتعة من مخزن إلى آخر. فطلب الجندي مني أن يأخذ إحدى العصي لأنه فقد واحدة منها أثناء التمرين، وسيعاقب عند اكتشاف فقدانها، فقلت له: "لا بأس خُذ واحدة" فأخذها، وتشاء الصدف أيضاً أن يلتقي به الضابط بالفرنسي آمر الفوج الفعلي والمسؤول عن تدوين المعدات، فسأل الجندي من أين أتى بالعصا، فلم يعرف الجندي ما يريد منه الملازم أول لأنه يجهل الفرنسية. ناداني الضابط بالفرنسية Chef de Poste رئيس الحرس، فأتيتُ مسرعاً وأدّيت التحية العسكرية معلناً عن مهمتي كرئيس للحرس، فسألني من أعطى الجندي العصا فأجبته: أنا الذي أمرته بأخذها لأنه طلبها مني للتعويض عن العصا التي فقدها. فصرخ بي: "بدلاً من أن تعاقبه تعطيه عصا وتقول إنك أنت الذي أمرته بأخذها دون حياء. متى أصبحت تعطي أوامر بدوني، يا وسخ يا أحمق"، طبعاً إلى آخر ما هنالك من النعوت، ولم يكتف بما قذفني به من شتائم بل تقدم مني ورفسني على قفاي معيداً شتائمه مثنّى وثلاث.

وهنا لم تعد الدنيا تسعني. ولم أعد أدرِ ما أصنع! فانقضّيتُ على الجندي وأخذتُ العصا منه وبدأتُ أضرب الضابط الفرنسي كيفما اتفق، ولم أترك له مجالاً لعمل شيء للدفاع عن نفسه سوى الاستغاثة التي انقطعت، بعد أن تلقى عدّة ضربات على رأسه، وسقط على الأرض مغمياً عليه. ولم أكتفِ بذلك بل تابعت رفسه في قدميّ الاثنتين على جميع

أنحاء جسده، حتى انقطع عن الحراك نهائياً. ثم تابعتُ تمزيق وجهه بكعب حذائي العسكري ذي المسامير المربعة والنافرة. وهذا النوع من المسامير كانت تمتاز به أحذية الجنود الفرنسيين.

إنزال العلم الفرنسي: ذهبت فوراً إلى المخفر، وأنزلت العلم الفرنسي، بعد أن أتيتُ بعلم لبناني[٢٥] فوضعت العلم الفرنسي تحت قدميّ وبدأت رفع العلم اللبناني أمام جمهرة من جنود الفوج. وما إن ارتفع العلم اللبناني وأصبح في أعلى الصّارية حتى علا التصفيق بحياة لبنان الحر المستقل.

أرسلت أحد رفاقنا الحرس كي ينذر الجميع ويوصيهم بعدم القيام بأي عمل كي لا ينكشف التنظيم، بخاصة التنظيم المشترك للجنة الفوج الوطنية، وهذه الأخيرة كانت مهمة العريف فريد صعب "قومي سوري" والذي كان مساعداً لي في الحراسة. وشددتُ كثيراً على عدم الإتيان بأي عمل يفضح التنظيم مهما كان، إذ إنه من الواجب متابعة مهمتنا في تنظيم انضمام بعض الفصائل العسكرية بكاملها إلى الحكم الوطني، لأن الفرنسيين لم يسلّموا الجيش وثكناته ومعداته إلى الحكومة إلّا بعد سنتين أو ثلاث على ما أعتقد برغم

---

(٢٥) العلم اللبناني كان كالعلم الفرنسي إنما تتوسطه أرزة وهذا هو الفارق الوحيد بينهما.

اعترافهم بشرعية الحكومة الوطنية التي كانت برئاسة رياض الصلح... ومنحنا الاستقلال.

أتى قائد الفوج جميل شهاب وأعطى أوامره للحرس بالاستعداد للخطر[٢٦] وكان في حالة هستيرية من الخوف، بعد أن رأى الضابط الفرنسي ملقى أرضاً دون حراك والدماء تنزف من وجهه ولا أحد من الجنود يتقدم لمساعدته. وأعتقد بأنها المرة الأولى التي كانت تحدث في جيش القناصة اللبنانية أن يُضرب ضابط فرنسي من قبل رقيب، وأعتقد بأنه لم يسبقني إلى هذا العمل سوى الجنرال جميل لحود.

الاستسلام: منعاً لحدوث أي مضاعفات للحادث، اعترضتُ على أوامر قائد الفوج وأمرت الحرس بأن يبقى كل في مكانه، وقلت للقائد تفضّل واقبض عليّ فها أنا أنزع سلاحي بنفسي وأسلّمك إياه دون مقاومة، وإياك أن تُقدم على عمل يجعل من إخوتي ورفاقي الجنود والرتباء يتقاتلون[٢٧].

وللحال تقدم بنفسه واستلم مني سلاحي وأمرني بالسير

---

(٢٦) Allerte إلى الخطر تعني أن يأتي الجنود مسلحين والأسلحة مهيئة للاستعمال.

(٢٧) كان لا يزال كثيراً من الجنود يؤيدون الفرنسيين بخاصة الموارنة والعلويين. وهذا ما جعلني أستسلم دون أية مقاومة، خوفاً من الاقتتال فيما بينهم.

أمامه والذهاب إلى السجن. فرفضت ذلك وقلت له: لا أترك الحرس ما لم تعيِّن بديلاً لي لاستلام المخفر بما فيه العلم اللبناني الذي كان لا يزال مرتفعاً. وإنني سأبقى خاضعاً لأوامرك ما دام هذا العلم، وأشرت إلى العلم اللبناني مرفوعاً على الصّارية، وإياك من إنزاله قبل أن أدخل السجن.

وبالفعل تم التقيد بشروطي وسلّمت المخفر إلى مسؤول جديد وأكدتُ على استلام كل ما هو مدوّن في السجل خوفاً من إلصاق بعض التهم فيَّ كالنقص في العتاد والمعدات أو الأسلحة والذخيرة.

استسلمتُ لقائد الفوج وزُجّ بي في السجن. وما هي إلّا ساعات حتى حضرت الشرطة الفرنسية واستلمتني موقوفاً إلى بيروت، بعد أن اتخذ قائد الفوج كل الاحتياطات بإخراج الفوج إلى خارج الثكنة بحجة التمارين العسكرية كي لا تحدث أي مقاومة أثناء سوقي إلى المحكمة العسكرية.

السجن المنفرد: وضعوني في غرفة تحت الأرض في إحدى الثكنات العسكرية[٢٨] قرب الأونيسكو، وهناك حاولوا ضربي وأنا مقيد، فما كان مني إلا أن ضربت رئيسهم وكان برتبة رقيب أول، ضربته بيدي المقيدتين وبكل قوتي، فألقيته أرضاً وبدأت أرفسه برجليّ الحرّتين. وأتى الثاني فكان نصيبه

(٢٨) مدرسة الفرنسيسكان الآن.

من الضرب لا يقل عن الأول، ثم أسندت ظهري إلى الحائط محتمياً به كي لا أفاجأ من الخلف، ولكنهم تكاثروا عليّ فلكمني أحدهم على وجهي بينما كنت منشغلاً بضرب الآخر، فاصطدم رأسي بالحائط من جراء اللكمة ولم أشعر إلا والأرض تدور بي فوقعت على الأرض، ولم أعرف الوقت الذي مضى وأنا مغمى عليَّ، ولكن عندما عدتُ إلى وعيي وجدتُ نفسي لا أتمكن من الحراك، وحتى رجليّ كانتا مقيّدتين، بالإضافة إلى وجهي المتورّم والدم والعرق يرشح منه، وثيابي جميعها مبللة، ولم أعلم سبب ذلك إلا فيما بعد، عندما أخبرني أحدهم بأنه عند إغمائي رشقوني بالمياه الباردة كي أستفيق، ومن المحتمل أن أكون قد عملتها تحتي أثناء غيبوبتي.

أتوا بطبيب فرنسي وضمّد جراحي بعد أن غسلوا وجهي وأبدلوا ثيابي الممزقة والمبللة، ووضعوني في زنزانة لوحدي ما إن دخلتها حتى انبطحتُ أرضاً على فراش لا يقل عن الحجر قساوة، واستغرقت في نوم عميق.

في المحكمة العسكرية: اقتادوني إلى المحاكمة بعد يومين من السجن الانفرادي، وقبل المثول أمام المحكمة أتاني ضابط فرنسي يُتقن العربية جيداً وأخبرني بأنه محام وسيدافع عني. فقلتُ له: لست بحاجة لمن يُدافع عني بل الذين يحاكمونني هم الذين بحاجة لمن يدافع عنهم. وما

الجرم الذي ارتكبته؟ هل لأنني أدافع عن وطني المبتلى باحتلالهم والذي تسمونه انتداباً، إنني أشكر لك هذا التطوّع وعُد إلى من أرسلك ودافع عنه. وأخبرني بأنني سأواجه الإعدام إن أصررتُ على موقفي. فأجبته بأنني لستُ أول من يُعدم وسوف لن أكون الأخير، فدرب الاستقلال مليئة بالشهداء ولستُ أفضل من شهيدنا الفرنسي الشيوعي البطل الذي قال وهو على جدار الإعدام، وخيَّروه بين أن يعيش ويكفر بشيوعيته أو الموت، فأجابهم لو قدّر لي العيش ثانية لما اخترتُ إلّا الطريق نفسها. وهنا سألني بتعجب: هل أنت شيوعي؟ فأجبت: نعم إنني شيوعي وسأموت فخوراً لكوني أحمل هذا الشرف. أجابني بنزق ماذا تعني لك الشيوعية أيها الأحمق Idiot؟ قلت له: لا تطل الشرح يكفي الإنسان فخراً أن يعتنق فكرة تدفعه إلى الموت غير هيّاب، ألا تدرك كم هي عظيمة تلك الأفكار التي تقنعك بأن الموت في سبيل الوطن والمعذبين خير من حياة الذل والعيش كالحُثالة. إذهب عنّي وعش كالحيوان الذي لا هم له سوى الأكل والشرب والتناسل. فذهب غاضباً، ولكني عندما مثلتُ أمام القضاء وجدته واقفاً ومتأهباً للدفاع عني، بالرغم من موقفي الرافض.

سألوني ماذا تقول: فأجبتهم إن إفادتي أمامكم وليس لي ما أزيده عليها سوى قناعتي بأن رفاقي سيقفون في وقت قريب وقريب جداً وسيحاكمونكم كما تحاكموني وستقفون أمامهم كما أقف أنا الآن أمامكم، والفرق بيني وبينكم أنني

أُحاكم من أجل الدفاع عن وطني أما أنتم ستحاكمون كخونة للوطن... وهنا سارت ضجة بين أعضاء المحكمة وساد الهرج والمرج في القاعة.

وهنا اندفع المدعي العام بتوجيه التهم إليّ مفصلاً كيف أنني ضربتُ ضابطاً فرنسياً، وكيف أنني رفعت العلم اللبناني ودست العلم الفرنسي بقدميّ[٢٩].

فانبرى ذلك الضابط للدفاع عني مبيّناً حقي في الدفاع عن وطني، وتساءل لماذا لم يسلم الجيش للحكومة اللبنانية بالرغم من مضي ما يزيد من السنتين على الاستقلال، وأين أصبح وعد الجنرال كاترو بمنح الاستقلال التام للبنان وسوريا. وهنا حاول المدعي العام مقاطعة المحامي فأوقفه رئيس المحكمة وحصل تلاسن لم أفقه منه شيئاً لأن المناقشة كانت باللغة الفرنسية، بالرغم من أنني كنت أعرف الكثير منها.

بعد أخذ ورد بين النيابة العامة ومحامي الدفاع سُئلت بواسطة هذا الأخير، هل لي ما أقوله فقلت: "قل لهم ما معنى حياة الإنسان، هل هي وقف على الأكل والشرب وحب النساء والتناسل، فهذه الأشياء متوافرة لأحقر الحيوانات، ولا فرق بين الإنسان وتلك الحيوانات سوى أنه

---

(٢٩) طبعاً هذا ما فهمته من مجمل مرافعته لأنها كانت بالفرنسية ولم أفقه معظمها.

الفصيل الأرقى منها إلّا إذا كان الإنسان يعيش في مجتمع يتفاعل به ومعه، يعمل على إحقاق الحق والعدل نصيراً للضعفاء والمعذبين، ولنسأل من هم الضعفاء والمعذبون أليسوا عمّال وفلاحي وطني المنكوب باحتلالكم".

أعاد المحامي ما قلته لأعضاء المحكمة، ولكنني أعتقد بأنه زاد عليها شيئاً من عنديّاته لأنني سمعته يردد اسم الجنرال كاترو أكثر من مرة ومن المحتمل أن يكون استند إلى وعد الجنرال عله يجد مستمسكاً لتخليصي من الإعدام.

الحكم بالإعدام: لم تنفع بلاغة محاميّ المسخّر بالدفاع عني، ذلك أنه بعد أن أخرجوني من قفص قاعة المحكمة قرابة الساعة تقريباً، أعادوني إلى القفص، حيث هبَّ الجميع وقوفاً عندما صرخ الحاجب للمرة الثانية وبصوتٍ جهوري **محكمة.** ثم جلس الأعضاء الثلاثة مع المدعي العام وكلهم فرنسيون يرأسهم ضابط برتبة مقدم وكان اسمه Sadler على ما أذكر: جلسوا وبدأوا بتلاوة حيثيات الحكم الذي لم أفقه منها سوى أرقام المواد فقط التي استندوا إليها لإصدار حكمهم عليَّ، وكانت النتيجة الإعدام رمياً بالرصاص، وطبعاً كانت الحظيرة المسلحة المكلفة بالحراسة داخل القاعة تقف على صف واحد خلف القفص الذي يحتويني وهي تقدم سلاحها طيلة تلاوة حكم الإعدام.

مقابلتي للكاهن: حوالى الساعة الثالثة صباحاً من منتصف كانون الثاني عام ١٩٤٤ أتاني كاهن برفقة أحد الرتباء واقترب مني قائلاً: صباح الخير يا ابني! أجبته: صباح الخير يا خوري شو جايي تعمل، وكنتُ لا أزال أفرك عينيّ، إذ إنني كنتُ نائماً نوماً عميقاً، وهذا ما أثار حرّاسي وسألوني بعد أن أيقظوني مرتين كيف تنام وأنت ستموت غداً. فأجيبهم: "أنني أموت في سبيل وطني، وهذا فخر لي وسيخلّدني وطني وشعبي كما خلّد كل الشهداء الذي سبقوني على هذا الطريق، وما قيمة الحياة إذا عشتُ سبعين سنة أو أكثر ومت كما يموت الآخرون". وبالفعل كنت أشعر وكأنني ذاهب إلى نزهة، حتى عند حضور الكاهن الذي أتى ليعطيني زادي الأخير إلى النهاية، لم أشعر بقرب نهايتي بل هزئت منه ورفضت الاعتراف له باعتباره روم أرثوذكس، وأخبرته بأنني ماروني وأريد كاهناً مارونياً.

عاد الكاهن من حيث أتى وأخبر السجان برغبتي، ويظهر بأنهم لم يجدوا كاهناً مارونياً بل أتوني بأب يسوعي، وبدأت بالحديث معه وأنا مبتسم، بحيث لم يخفِ دهشته من ازدرائي بالموت وسألته: "صحيح يا أبتي أنه بإمكانك أن تصعّدني إلى السماء، وماذا سيغير ويبدل بالنتيجة اعترافي لك وتناول القربان؟"، فأجابني بلهجة مطحبشة: "ولدي ما حدا راح و رجع وخبّر شوفي، انت بيعمل واجب منشانك هون، وإذا في شي هونيك بيكون مليح وعامل واجب منشانك. وإذا ما في

شيء ما بيخسر شيء". ويظهر أن الوقت قد حان لاقتيادي فنهرنا الحارس وأوصى الأب بالإسراع بإجراء الاعتراف وتناول القربان بحيث أنهم أتوا بقلم وورقة لأكتب وصيتي.

قلت: "يا أبتي لم أرتكب أي ذنب يستحق الاعتراف، إنني شهيد والشهداء برأيي خالدون في هذه الدنيا وفي الآخرة، ولكن لا بأس من منحي الغفران الكامل قبل موتي وكما قلت سوف لن أخسر شيئاً إذا لم أجد أحداً".

وبعد أن تلوت الفرض خمس مرات أبانا وخمس مرات سلام تذكرت عقوبة الخوري سمعان بعد كل اعتراف، تبسّمت حتى وأنا على طريق الإعدام، وضحكتُ بصوتٍ عالٍ وهو يعطيني القربان. ولما سألني عن سبب ضحكي في هذه الساعات العصيبة أخبرته بفرض الخوري سمعان بعد الاعتراف فضحك هو أيضاً، وبالفعل كان الجو تنكيت وليس جو إنسان ذاهب إلى الموت. وقد رفضتُ أيضاً كتابة وصيّتي وقلتُ لهم بأن رفاقي وأصدقائي يعرفون وصيتي!

العفو: لم أكن أعلم ما حدث لأجلي خلال الأسبوع الذي قضيته في التوقيف، ويظهر أن النضال كان قد اشتد في سبيل استلام الجيش من الفرنسيين. ولكن لم أكن أشك لحظة واحدة بأن عملاً ما سيتمّ كي لا يتمكن الفرنسيون من إعدامي.

ولكن حين اقتادوني للإعدام، وما إن وصلتُ إلى باحة

سجن القلعة حتى رأيت الضابط "سعيد الخوري" وهو ابن قريتي يقف هو وجنرال فرنسي (عرفتُ فيما بعد أنه الجنرال سير) فابتسم لي وابتسمتُ له بدوري فتكلم مع الجنرال بالفرنسية قائلاً: "أنظر يا سيدي إنه يضحك ألا تصدق أنه مجنون، هل رأيت في حياتك رجلاً ذاهباً إلى الإعدام وهو يضحك؟"، ثم قال لي بالعربية: "يا أسبر شو بتوصّي؟" قلت له: "أخبر والدي وأهلي وعشيرتي ورفاقي بألا يوقفوا النضال أبداً حتى جلاء آخر جندي عن لبنان، وليقاتلوا الإنكليز قبل الفرنسيين، لأن إنكلترا هي رأس الأفعى".

سُرّ الجنرال سير بهذا القول على ما أعتقد، باعتبار أنني طلبت التشديد على النضال ضد الانكليز قبل الفرنسيين، وتناول قلماً من جيبه ووقع على ورقة من ملفٍ كان يحمله سائقه أو أمين سرّه لا أعلم. وبعد التوقيع أعطى الورقة للضابط آمر حظيرة الإعدام التي كانت تواكبني وما إن تلا تلك الورقة، حتى أتاني وفكّ وثاقي وأعادني حرّاً إلى سجني، وأمرني بارتداء ملابسي وسلمني ما كان بحوزتي من ألبسة وتجهيزات ودراهم، مع أن هذه الأخيرة كانت نادرة، فوجدت مبلغاً يزيد عن العشر ليرات باسمي، وهو مبلغ لم أكن أحلم بحياتي بوجوده معي لأنني كنت أرسل راتبي بأكمله إلى البيت بعد أن أُبقي ليرة أو ليرتين معي مصروف الشهر، هذا بالإضافة إلى دفع الاشتراك الشهري للحزب وكان نصف ليرة آنذاك.

بعد ذلك أتوا بي إلى أمين سر السجن وأنا بلباسي العسكري الكامل، بين المصدّق والحالم أتحسس نفسي ورفاقي وأتكلم مع الجميع أسألهم الحقيقة في يقظة أنا أم في حلم، إذ ليس العفو[٣٠]، وحده الذي جعلني أعتقد بأنني حالم على ما أعتقد، بل وجود ما يزيد عن العشر ليرات في جيبي، في وقت كان راتبي كله لا يتعدّى الخمس والعشرين ل.ل بالرغم من أنني كنت عريفاً.

وصلتُ إلى أمين السر بهذه الحالة المشككة، وسألته فوراً وبالفرنسية: "لماذا عفوا عني؟". فأخبرني بأنهم استحصلوا على شهادة من مستشفى العصفورية تُثبت أنني أُصاب بعوارض جنونية وغير مسؤول عما أُقدم عليه. وتبيّن لي بعد ذلك، بأن الضابط ابن قريتي كان وراء الحصول على تلك الشهادة التي أنقذتني من الموت.

أركبوني سيارة جيب حيث وصلتُ إلى ثكنة الفوج في الضبيه صباحاً، وفي الوقت الذي بدأ الجنود يستيقظون، كان خبر وصولي إلى الفوج أسرع من النار في الهشيم فاجتمع

---

(٣٠) المعروف عن هذا الضابط بأنه كان يدافع بشدة عن أبناء عندقت ويساعدهم في كل شيء ويمنع عنهم العقوبات مهما كان نوعها، وهو لا يزال حتى الآن يحظى باحترام جميع العسكريين في القرية على الرغم من تقاعده. وإنني أقدره جداً واحترمه لأنني مدين له بحياتي بالرغم من ميوله الفرنسية.

عدد كبير من رفاقي وفي طليعتهم ما بقي من عصابتي وحملوني على الأكتاف سالكين الممرات داخل المعسكر هاتفين بحياة لبنان ومطالبين بالجلاء التام وباستلام لبنان للجيش حيث بقي معظم الجنود في المعسكر ولم يخرجوا إلى التمارين.

وفي المساء عقدنا اجتماعاً لفرقتنا الحزبية وأخبروني بأنهم كانوا خائفين كثيراً عليّ وأنهم لم يستطيعوا إخبار أحد من الحزب لأن الاتصال بنا كان فقط بواسطة التنكة والتي كنا نسميها علبة البريد، نأخذ منها المطبوعات ونرسل فيها الدراهم والرسائل التي تطالب بربطنا بمسؤول، ولكن لا حياة لمن تنادي. وكنا نفرح كثيراً عندما نلتقي أحد المسؤولين من الفوج الأول بمرجعيون لأنهم كانوا خبيرين بطرق وأساليب العمل التنظيمي والتحريضي أكثر منا.

بدء الفرز بين الجنود: كانت الشقيقة سوريا قد استلمت جيشها الوطني قبل لبنان، لذلك طَلَبتْ من الحكومة اللبنانية إرسال الجنود السوريين للالتحاق بالجيش الوطني السوري فوراً. فأصدرت القيادة الفرنسية مذكرة خدمة يخيّر فيها جميع الجنود، السوريون منهم واللبنانيون، بحرية البقاء في الجيش الفرنسي أو الالتحاق بأحد الجيشين السوري أو اللبناني كل حسب جنسيته.

صحيح أنني أتكلم عن الوضع في الفوج الثالث الذي

كنتُ أنتمي إليه، ولكن وضعه آنذاك كان يشبه جميع أوضاع القطع الباقية. لذلك كما بقي الكثيرون من الفوج الثالث في الجيش الفرنسي، كذلك في بقية القطع حيث كان معظم الباقين من العلويين والمسيحيين إذ كان الخوف على مصيرهم ومصير رواتبهم وخدماتهم هو الدافع لذلك البقاء. ولكن بإيعاز من الفرقة طلبتُ اجتماعاً مشتركاً استثنائياً للجنة قيادة العمل الوطني بالفوج لندرس ونقرر ما يمكن عمله لمنع زملائنا المضللين بترك الجيش الفرنسي والالتحاق بالجيوش الوطنية، ولم يكن لدينا من وسيلة لإقناعهم بالانضمام إلينا سوى القول بأن رواتبهم وخدماتهم مؤمنة لا بل الرواتب ستزيد باعتبار الجيوش المتواجدة على أرضنا ستجلو والدراهم التي كانت تُدفع لأولئك العسكريين ستدفع لنا، ونظراً لأنّ الأموال التي كانت تدفع لتلك الجيوش هي أموالنا. ونجحنا إلى حدٍ كبير في إقناع معظمهم بعدم الالتحاق بالجيش الفرنسي ولم يبق إلا القليل الذي استمر في إصراره على الرحيل. وهكذا في الأول من سنة ١٩٤٦، كان قد تم فرز العناصر وتم استلام الجيش الوطني وتم الجلاء.

يوم الجلاء: كان ذلك اليوم تاريخياً لما حواه من معانٍ وطنية وآمال شعبية كانت تنتظرها جماهيرنا من جراء الحصول على الاستقلال واستلام الجيش وجلاء آخر جندي أجنبي عن لبنان.

وكان من نصيبنا نحن عناصر الفوج الثالث من القناصة اللبنانيين المتواجدين في الضبية في ذلك الوقت، الاحتفال العسكري، عندما حضر رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري مع أركان حكومته وقام بنزع الستار عن اللوحة التذكارية الرخامية التي تبين تاريخ الجلاء والعهد الذي تم الجلاء إبان حكمه.

في الوقت نفسه كانت بعض القطع المختلطة بقيادة الجنرال لحود على مرفأ بيروت، تشترك في الاحتفال برحيل آخر جندي عن أرض الوطن، حيث بقيت القطع مقدمة سلاحها لحين صعود آخر جندي إلى الباخرة، وقد أخبرنا أحد الرفاق الذين اشتركوا في ذلك الاحتفال، بأن دموع الفرح كانت تتساقط من عيون الجميع بما فيهم القائد جميل لحود والذي كان، بالإضافة إلى دموعه المنهمرة على وجنتيه، يرتجف من التأثر كمن أصابته حمى.

عدنا إلى الثكنات التي لم يبق فيها سوى عناصر الخدمة من حرس وطوارئ وطباخين بينما ذهب الباقون يحتفلون بعيد ليس كالأعياد بل أعظم الأعياد، فهل يمكن لإنسان واعٍ وطنياً أن يبتهج ويفرح ويمرح أكثر من مناسبة عيد الجلاء، جلاء آخر جندي أجنبي عن وطنه.

أذكر أننا كنا ما يقرب من الخمسة عشر عنصراً من الفوج الثالث في طليعة من نزلوا إلى ساحة البرج ولم يكن يميّزنا شيء عن لباسنا في الجيش الفرنسي سوى علم لبناني صغير

مثبت على منتصف سواعدنا وما إن مررنا قرب قهوة القزاز، حتى هبّ جميع الحاضرين وقوفاً وكأنه مسّهم تيار كهربائي، وهجموا علينا يقبلوننا ويهتفون لنا "عاش جيشنا، عاش لبنان، عاشت سوريا"، يومها لم يكن يخلو هتاف للاستقلال اللبناني أو الجلاء إلا وترافقه هتافات لسوريا أيضاً نظراً لتشابك نضال الشعبين.

كنا نشعر ونحن سائرون على ساحة البرج بين تصفيق الجماهير وهتافها، بأننا خُلقنا من جديد، وأن رؤوسنا ارتفعت إلى السحاب. كم أتمنّى لو كنت شاعراً أو أديباً أو فناناً لأتمكن من تصوير توضيح ما كنا نشعر به. هذا بالإضافة إلى تشجيع الجماهير لنا، فلم تعد ترى أي جندي أجنبي على تلك الساحة التي كانت تعّج دوماً بجنود الحلفاء من فرنسيين وإنكليز وأستراليين وشينوا وسنغال وهنود الخ... إلى ما هنالك من خليط لجنود المستعمرات التي كانت تسيطر عليها الدولتان العظميان في ذلك الوقت.

العهد الاستقلالي: راحت السكرة وأتت الفكرة: وبدأت الممارسة الاستقلالية التامة. وبالحقيقة لم أذكر ما هي المدة التي مرّت على تلك الأفراح، حتى بدأنا نشعر وكأن شيئاً لم يتغيّر، طبعاً بالنسبة للسلوك العسكري. فمثلاً، كل العقوبات التي كانت مفروضة على الجندي في عهد الانتداب، بقيت مدوّنة على سجله كما لو أن تلك المخالفات ارتُكبت في

العهد الاستقلالي. وبقيت مدوّنة حتى ولو كان سبب تلك العقوبات النضال ضد الانتداب، (العقوبات لمخالفات أوامر ضباط فرنسيين أو ضربهم أو مقاومتهم). وهذا مما جعلنا نبدأ بالمطالبة بإلغاء جميع العقوبات المفروضة على العسكريين أثناء حكم الانتداب، دون تحديد أو تمييز، ولكن مع الأسف لم نحصل على نتيجة، وبقيت العقوبات والمخالفات مدوّنة كما هي. مع العلم بأن هكذا عقوبات أو مخالفات تقف حاجزاً كبيراً أمام ترقية أي عنصر في حال تمكّنه من النجاح في إحدى دورات الترقية.

عمل منظمة الحزب: أعود فأؤكد بأنني أدوّن ما حصل معي في الفوج الثالث للقناصة اللبنانيين سواء بالنسبة للتنظيم الحزبي أم بالنسبة لأساليب العمل وأعتقد بأن العمل قي بقية القطع كان مشابهاً لعملنا نظراً للأوضاع ذاتها للعسكريين والتي تكون في معظم الأحيان نسخة طبق الأصل. واستثني من هذا الواقع رفاقنا في الفوج الأول الذين كانوا قد قطعوا شوطاً كبيراً في التنظيم وفي خلق أساليب للعمل. لأنهم كانوا الوحيدين الذين نستفيد من خبرتهم، ولأن رفاقنا الحزبيين آنذاك لم يهتموا في الجيش إلا بإيصال المطبوعات إليه وأخذ الاشتراكات الشهرية. ولكن بالرغم من كل الفوضى الثقافية التي كانت تعمّ كل تنظيم الجيش، كنّا من الناحية التنظيمية ناجحين للغاية، لأن اتصالاتنا وتحديد اجتماعاتنا وتركيب

الخلايا كانت مأخوذة عن كيفية تركيب هيكلية الجيش، وأعتقد بأن الحزب حتى الآن لم يصل إلى هيكلية منظمة منسجمة ومترابطة سواء على صعيد كل قطعة في الجيش أم على صعيد الجيش عامة.

فبالنسبة لتنظيم كل قطعة (الكتيبة الآن) كانت تتألف من عدة خلايا: خلية أو أكثر في كل سرية، وكل خلية وكل سرية مهما كان عدد الخلايا فيها، يرأس جميع الخلايا فيها شخص لا يعرف سوى رئيس كل خلية ولا يعرف شيئاً إلا بالعدد فقط عن الرفاق الباقين، بحيث تصبح قيادة خلايا الفوج متمركزة بيد سكرتير التنظيم، وهذا السكرتير هو الذي يمثل قطعته في الهيئة القيادية العليا للجيش، ولا يعرف شيئاً تفصيلياً عن أسماء الأشخاص مثلاً وفي أي سرّية ومن أي قرية عن عناصر قطعته إلّا العدد فقط. وهذا الأنموذج في التنظيم جعل الضرر محدوداً عندما يتراجع أحد الرفاق أو يقع في إغراء الامتيازات التي كانت تعطى للمخبرين، كالترقية وعلاوة على الراتب ومأذونيات الخ... إنني عندما أتأمل ذلك الإهمال ألمس فداحة الجريمة التي ارتكبت بحقنا كتنظيم شيوعي في الجيش.

بذلنا المستحيل في الهيئة القيادية العليا والتي كانت مؤلفة من بطرس، داود، موسى الجزار، وأحد رفاقنا من الدروز نسيت اسمه، وأنا، بذلنا المستحيل لتثقيف أنفسنا وجعل ثقافتنا تتوافق قدر الإمكان مع دقة تنظيمنا، والذي أعود فأذكر

بأنه حتى الآن لا يوجد في مختلف تنظيمات الحزب، العسكرية منها والمدنية، تنظيم أو بالأحرى هيكلية منظمة مترابطة ومنسجمة كما كان عليه تنظيمنا في الجيش، وكم كنّا نلحّ لربطنا بالحزب، وبقائد تكون ثقافته الحزبية مرتفعة جداً لمساعدتنا، ولكن أرسلوا لنا في البداية حسن قريطم فكان في معظم الأحيان لا يحضر إلى الاجتماعات المقررة معنا وكان يختلق أعذاراً عديدة. وقد نجحنا أنا وداود بحضور أحد الاجتماعات الثقافية، فأعطانا مقطعاً في تاريخ الحزب الشيوعي لقراءته وتفسيره في الاجتماع المقبل، وخرج مسرعاً باعتباره كان دائماً ملاحقاً، وإذا علموا باتصاله بالجيش فسيكون مصيره الإعدام.

حضرنا الاجتماع الثاني، وبالفعل كانت تفسيراتي أقرب إلى الموضوع من تفسيرات الرفيق داود ولكن بدلاً من تفسير الخطأ أي الانتقاد البنّاء بدأ يشتم الرفيق داود متهماً إياه بالغباوة وأطلق عليه بعض الأوصاف غير المقبولة وانسحب. عند ذلك قررنا طلب غيره وعدم الاجتماع به، وقد أرسلنا طلبنا هذا إلى الحزب بواسطة الرقيب أغباش ذلك المناضل الأمين الذي لم يتخلّف عن أي اجتماع أو أي خدمة نطلبها منه.

استجاب الحزب لرسالتنا وأوفد لنا "ابو مرديك"، ولكن ماذا يمكن لهذا الرفيق النبيل الطيب أن يساعدنا ثقافياً وهو الأرمني الذي كان ولا يزال حتى الآن لا يحسن تفسير

الأشياء باللغة العربية، وقد أمضينا الاجتماع ونحن نلتفت إلى بعضنا ونتساءل: ألا يوجد عند الرفاق مثقفون عرب لإرسالهم إلينا حتى يرسلوا لنا رفيقاً أرمنياً حيث كنا نضطر في معظم الأوقات أن نعاود الاستفسار عن كلمة أقلّ من عادية.

شكونا أمرنا لحلقة الوصل، أي للرفيق أغباش ودعوناه لاجتماع الهيئة بكاملها، كنت أنا حلقة الوصل بين التنظيم العسكري وبين المدنيين، وبطبيعة وضعي هذا كنت مسؤولاً عن نقل المطبوعات وتوزيعها على القطع وكذلك الرسائل والاشتراكات وغيرها، شكونا أمرنا لأغباش فأجابنا ببساطته المحببة وبلهجته الأرمنية: "يا رفاق عم تقروا صوت الشعب؟" أجبنا نعم! عم تقروا في سبيل سلم دائم؟ أجبنا نعم! عم تقروا نشرة تاس؟ أجبنا نعم! قال إذاً يا رفاق إذا كنتوا عم تقروا كل ها المطبوعات ومش عم تتثقفوا، أنا برأيي يقوم لينين من القبر حتى يثقفكم. وهنا بالفعل برغم ضحكنا المتواصل لهذا التحليل قبضناه جداً، وعدنا إلى التأكيد على ما نستوعبه من تلك المطبوعات، وكنّا جد مدققين باعتمادنا على أنفسنا، ويا ليتنا بقينا هكذا ولم يأخذ الحزب على مسؤوليته تنظيمنا مجدداً إذ توزعنا وأُلحق كل تنظيم عسكري بالتنظيم المدني الموجود في منطقته ومنذ ذلك الوقت لم يعد للتنظيم العسكري أي فعالية.

إضراب عام في الفوج الثالث: بعد الاستقلال، وأعتقد

في عام ١٩٤٧، قررت الحكومة إتلاف الحشيشة بعد أن هوجم لبنان من عدة دول غربية وشرقية، ولما عجزت عن إيجاد عمال لتلفِ المزروع من الحشيشة قررت الاستعانة بالجيش بعد أن تكلفت الجامعة العربية بالإنفاق على تنفيذ تلك القرارات، وقد نجحت الحكومة إلى حد بعيد بإتلاف تلك الزراعة اللعينة باعتبار أن الجندي كان عاملاً يقوم بتلف المزروعات وفي الوقت نفسه مقاتلاً، يطارد فوراً من يعترض عمله.

وبالفعل كنا كجنود ورتباء، خصوصاً الفوج الثالث، الفوج الديناميكي، نقوم بالعمل متحمّسين جداً لإدراكنا المضار التي تسببها تلك الزراعة أولاً ولأنهم وعدونا بأنهم سيدفعون لنا مبلغ ثلاث ليرات يومياً بالإضافة إلى "الخرج راح"[٣١] الشهري.

قمنا بتنفيذ ما طُلب منا وأتلفنا معظم المزروعات في بعلبك وبشري وتنورين، وعدنا إلى الضبيه واعدين أنفسنا بالأجرة اليومية (٣ ليرات يومياً) بالإضافة إلى "الخرج راح"، وهذا معناه أن الراتب سيتعدى المئة ل.ل.

ولكن أتى آخر الشهر ولم نقبض سوى "الخرج راح" فقط. وعندما سألنا عن السبب قالوا بأن الجامعة العربية لم

---

(٣١) "الخرج راح": تطلق هذه العبارة على التعويض الإضافي الذي يُدفع للموظف أثناء انتقاله إلى العمل.

تدفع. ولكننا علمنا بأن الجامعة دفعت وإنما القيّمون على الحكم بلعوا المدفوعات، وكنّا قد بدأنا نحن، كمنظمة للحزب الشيوعي، نقارن بين الآمال التي كنّا نعلّقها عند الحصول على الاستقلال وبين ما يحدث على صعيد الواقع من استغلال. وأعتقد بأنني كنت أول القائلين "يا عمي شو هالاستقلال، الجماعة شالو نقطة عن القاف وصاروا يشوفوها استغلال[٣٢] وعميشتغلوا على ها الأساس".

طبعاً هنا منظمة الحزب في الفوج أتتها القضية "شحمة على فطيري" كما يقولون: فمع تأكيدنا على معارفنا الحزبيين الذين انفرط عقدهم بعد الاستقلال، أنه يجب النضال في سبيل تحسين رواتب العسكريين، وتحسين المواد الغذائية والألبسة، وإزالة فوارق الرواتب والتأمينات بين الضباط والعسكريين، وتأمين سيارات نقل للجنود ذهاباً وإياباً، ودفع بدل إيجارات بيوت ومدارس إسوة بالضباط، كل تلك المطالب كنّا نؤكد عليها كمنظمة، ولم يبق غيرنا كتنظيم تقدمي في الجيش، فالكتائب والحزب القومي السوري ابتعدوا عنّا كثيراً وأصبحوا من ألدّ الأعداء. وكذلك "تنظيم العرب الأحرار" (تنظيم عدنان المالكي) لم يبقَ منه أحد بعد انفصالنا إلى جيشين لبناني وسوري.

---

(٣٢) عوقبت بالسجن مع الحسم لمدة خمسة عشر يوماً على هذه العبارة التي أخّرتني عن الترقية عدة سنوات.

لذلك كان نضالنا صعباً جداً، وكان نجاحنا بطيئاً في استقطاب أصدقاء آخرين، لنا أو جعل الجنود يأخذون برأينا حول تحسين حياتهم المعيشية، وإزالة الفوارق بينهم وبين الضباط.

أما قضية عدم دفع الأجرة اليومية فقد جعلت الفوج بحالة غليان ولم تكن تسمع سوى الاحتجاج والشتائم حتى وصلت تلك الشتائم إلى الاستقلال والذي سعى إلى الاستقلال، وهنا لعبت المنظمة دوراً كبيراً في توضيح الاستقلال وعدم الربط بين ما يقوم به بعض القيّمين على الاستقلال وبين ما يحققه الاستقلال الحق والاستقلال الصحيح الملبّي لمطالب جماهير الناس وليس المحقق لتطلعات فئة قليلة منهم، كنا نتحاشى الكلام الطبقي إنما كنا نؤكد على أن قلة من الناس هي التي تتمتع وتستغل ٩٠٪ من الفقراء.

تم الإضراب ولم يطرد أي عنصر من المنظمة: كانت الثكنة مؤلفة من عنابر خشبية كبيرة تسع كل منها ستين جندياً تقريباً. هذا إذا كانت الأسّرة مفردة، أما إذا كانت الأسّرة ذات طابقين، فالعدد يتضاعف والوسخ يتضاعف أيضاً والبق والقمل يتكاثر.

ولا يُخفى بأن عناصر الفوج لا يعرفون بعضهم بعضاً إنما المعرفة تقتصر على الحظيرة أولاً ثم الفصيلة ثم السرّية ثم

الفوج أو الكتيبة كما يسمّونها اليوم. وكلما ارتفع التجمّع كلما خفّت معرفة الجنود بعضهم لبعض. وهذا الأسلوب يجعل الإضراب ناجحاً من دون معرفة المحرِّضين.

لذلك عقدنا اجتماعاً فورياً للمنظمة واتخذنا قراراً بالتحريض على الإضراب أو العصيان كما سمّيناه لا أذكر. والأسلوب الذي اتبعناه هو أن كل عنصر يذهب إلى سريّة غير سريّته ويقول بين العنابر مفتعلاً حديثاً بينه وبين رفيقه بأن أفراد السريّة الأولى مثلاً (بينما يكون هو في السّرية الثانية) قد قرروا عدم الخروج إلى التمارين ما لم يُدفع لهم الأجر اليومي والذي هو حق من حقوقهم، فيجيبه رفيقه "طيب وأنا رايح على السّرية الثالثة مثلاً وأبلغهم هذا القرار وكون أكيد أنو راح نفّذ".

وهكذا كان، فما أن نفذ هذا القرار حتى انتشر الخبر انتشار النار بالهشيم، وأصبح العصيان مؤكداً. وما إن حان موعد الاجتماع حتى أعلن البوّاق الدعوة للاجتماع، ولكن التلبية كانت معدومة من معظم العناصر بخاصة الجنود. أتى قائد الفوج وكان جميل شهاب آنذاك واستنفر البوّاق مرة ثانية وأمره بإعلان الخطر. ولم يلق هذا الإعلان أي تلبية على الرغم من خطورة عاقبته.

أعيد نداء الاستنفار إلى الخطر عدّة مرات ولكن ما من ملبٍ إلا بعض صفوف الضباط الذين كانوا يخشون عادة على رتبهم. وبقي العصيان مستمراً، مع أن قائد الفوج وعد بتلبية

المطالب حيث علم بها من بعض الجنود غير المنظّمين، وذلك عندما اقتحم أحد عنابر السرّية الثانية سائلاً عن السبب في عدم التلبية لنفير الاستنفار، فأجابوه بكل بساطة: إننا عملنا أكثر من شهر في تلف الحشيشة كالحيوانات ووعدتمونا بدفع ثلاث ليرات يومياً فلماذا لا تدفعوها والجامعة العربية هي التي تدفع وليس أنتم.

علم قائد الفوج بالمطالب ولم يعرف شيئاً عن المحرّضين باعتبار الجميع كانوا يجهلون من هو المحرّض، ما عدا الرفاق والذين تشاء المصادفات فقط أنهم لم يستدعوا إلى التحقيق، ولكي لا يُسجّل موقف سلبي بالنسبة لقائد الفوج، لأنّ الضباط كانوا حريصين أن تبقى سجلّاتهم العسكرية نظيفة. فكانوا جميعهم متفقين على اتباع أسلوب ينجيهم من الملامة. وهكذا اتفق كل قائد سرّية مع قائد الفوج بانتقاء العناصر ذات السلوك السيء وطردها من الجيش مع إلصاق تهمة التحريض بها. وهكذا كان وتم طرد ستة عشر عنصراً لم يكن بينهم أي عنصر من المنظمة، إنما طُرد ابن خالتي وكان صديقاً لنا ولم يشِ بأحد بالرغم من علمه ببعض العناصر.

مقتل أحد الرفاق المدنيين: لا أذكر التاريخ بالضبط إنما في عام ١٩٤٩ كانت تسير تظاهرة كبيرة مارة قرب سينما الروكسي باتجاه ساحة البرج وكانت تحمل شعارات.

وكان هناك حاجز لقوى الأمن الداخلي التي كانت تقطع

الطريق في مواجهة الروكسي. وقبل أن تصل طليعة التظاهرة إلى الحاجز أنذرها الضابط بالتفرّق وإلا سيضطر لإطلاق النار.

ولكن التظاهرة بقيت متابعة سيرها دون الاكتراث للإنذار، وعلى الرغم من أن الحاجز المؤلف من ثلاثة صفوف ممتدة على عرض الشارع، كان ظاهراً للعيان والجنود مهيئين لإطلاق النار، وعندما لم يستجب المتظاهرون للإنذار، أمر الضابط جنوده بإطلاق النار، ويظهر أن الأمر الأول يكون للإرهاب فقط بحيث انطلقت الرصاصات في الهواء.

تفرّق بعض المتظاهرين وبقيت معظم الطليعة متماسكة وسائرة باتجاه الحاجز، واختلط إطلاق الرصاص بهتاف المتظاهرين.

كنا نراقب سير هذه التظاهرة وعمل الجنود ونحن نقف على باب مكتبة تقع قرب سينما الروكسي وإلى الجهة الشرقية منها، أنا واثنان من أصدقائي الجنود، وكان وجودنا هناك مصادفة. وفجأة رأينا الطليعة تتفكك وتتفرّق وتركض في عدّة اتجاهات بينما تركت في الشارع ما يقرب من ثلاثة جرحى لم يقووا على النهوض. ورأينا أحد الجنود يركض شاهراً سلاحه ويتقدم من أحد الجرحى ليجهز عليه.

لم أتمكن من ضبط نفسي عند ذلك، وهجمت على الشرطي الذي لم يأبه لي في بادئ الأمر، وفوجئ بي أنزع

منه سلاحه وألقيه أرضاً، ثم أمرته بالوقوف رافعاً يديه وأمرته باللحاق برفاقه الذين كانوا يركضون وراء الهاربين من التظاهرة محاولين القبض عليهم.

أوقفته بالقرب من شرطي السير الموجود جنوبي ساحة البرج وكان الدم يسيل من شفتي التي جُرحت أثناء اشتباكي معه على ما أعتقد. أوقفته مرفوع الأيدي وأنا أشتمه مدّعياً بأنه ضربني وأنا واقف أمام السينما ولا أعلم سبب ضربه لي. فكان يجيبني مقسماً بالله بأنه لم يرني، مش "معقول يا عمي أن أضربك وأنت عسكري ورتيب كمان". أجبته ستبقى مصلوباً هنا إلى أن يأتي ضابطك ويأخذك موقوفاً. عند ذلك دخل زميله شرطي السير ورجاني بأن أطلق سراحه لأننا كلنا أبناء حكومة ولا يجوز أن نضرّ بعضنا بعضاً. وهنا أبديت بعض التحفّظ بإطلاق سراحه لأنني كنت أريد الخلاص من هذه الورطة بعد أن أبعدت هذا الوحش عن الجرحى وتم نقلهم من قبل رفاقهم.

فقلت له: إنني أطلق سراحه بشرطين وأنت تتكفّل بتنفيذهما. الأول: أن يعتذر مني ويقول علناً بأن ضربه لي لم يكن مقصوداً (وكان قد تجمهر بعض المارة حولنا). والثاني أن تستلم أنت السلاح إلى أن أدخل الممر الكائن أمام سينما روكسي ويبقى رافعاً يديه أيضاً إلى أن أختفي في الممر". فصرخ الشرطي الموقوف "يا عمي ما بدي حدا يكفلني

خلصني منك الله يرضى عليك هلق بيجي الضابط يا جماعة أنا ضربتو بالغلط وغصب عني وسامحني يا خيي وهات تبوس إيدك. واتجه صوبي فنهرته ليبقى كما هو، وقلت له إبق كما أنت وسأعطي سلاحك للشرطي بعد أن تبتعد ٥٠ متراً". وما إن بدأ يسير باتجاه السراي القديم حتى أعطيت البندقية لزميله واتجهت راكضاً باتجاه الروكسي.

وهكذا تمّ لي التخلّص من مشكلة لو كُشفت على حقيقتها لكان نصيبي الطرد دون شك. وقد علمتُ في اليوم الثاني بأن أحد الجرحى قد توفي وكان أحد رفاقنا الطرابلسيين من آل الشريف على ما أذكر.

المؤامرة على فلسطين: أوائل عام ١٩٤٨ انتشر الجيش اللبناني على الحدود الجنوبية بدءاً من الناقورة غرباً وانتهاء بمرتفعات عيترون الشمالية والشرقية المشرفة على تلة الهراوي بفلسطين والسهل الواقع غربي النبي يوشع. وكنا نسمع بالقتال الدائر بين جيش الإنقاذ وبين عصابات الهاجانا والشتيرن. وكان جيش الإنقاذ مؤلفاً من مختلف الجنسيات العربية ومعظمهم من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين بقيادة فوزي القاوقجي. وكان الجميع يأمل بأن الجيوش العربية ستحرر فلسطين بعد أن رفضت مشروع التقسيم. وكنّا أبعد من أن نفكر بأن عربياً سيتآمر على أخيه العربي، بالرغم من أننا كنا

قد قطعنا شوطاً لا بأس به في مفهوم ارتباط النضال الطبقي، وكيف أن العالم منقسم إلى معسكرين، خصوصاً أنه لم يكن قد مضى على مطالعتنا لتقرير الرفيق السوفياتي جدانوف، والذي شرح بوضوح كيفية انقسام العالم إلى معسكرين اشتراكي ورأسمالي. ولكن يظهر أن عمق فهمنا لذلك الانقسام لم يكن كافياً لإفهامنا بأن الإقطاعي والرأسمالي العربي هو أخ للإقطاعي والرأسمالي الغربي. لذلك كنا على ثقة بالانتصار على الرغم من أن القيادة العامة لجيوش الدول العربية أوكلت إلى الملك عبدالله ملك الأردن.

إنّ تلك السطحية في فهمنا لارتباط النضال الطبقي العالمي بما يجري في بلادنا، لا تقع المسؤولية فيه على عاتق منظمتنا بقدر ما تقع المسؤولية الكبرى فيه على رفاقنا المدنيين، وقرار الحزب الشيوعي آنذاك بتأييد التقسيم والذي لا نزال نعاني من سلبياته حتى الآن بالرغم من أن المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي اللبناني استدرك سلبيات ذلك القرار واعترف بكل جرأة بخطئه.

ساهمت في تهجير الفلسطينيين: في العاشر أو الحادي عشر من أيار، استُدعيت مع عدد من الجنود المتنوّرين ووضعنا بأمرة أحد الضباط، نسيت من هو. ودخلنا إلى الأراضي الفلسطينية، من الناقورة حيث كانت معظم قطعات

الجيش اللبناني تتمركز هناك. ولم نعلم ما هي مهمتنا إلا عند وصولنا إلى البساتين الموجودة بين الناقورة وبلدة الزيب الفلسطينية، وهناك أوضح لنا الضابط مهمتنا والتي كانت تقضي بالدخول إلى القرى الفلسطينية وتشجيع أهلها على الهجرة، بسبب أن الجيوش العربية ستهجم في الرابع عشر من أيار لتحرير جميع الأراضي الفلسطينية، وعليهم ترك قراهم وأن يأخذوا ما خفّ حمله لأنهم سيعودون بعد مدة لا تزيد عن الخمسة عشر يوماً بالتحديد.

وكانت مهمتي أنا وفريد صعب الذهاب إلى قرية الزيب، فذهبنا ونحن على قناعة تامة بإنسانية مهمتنا ولم يخطر ببالنا أنها مرحلة من مراحل المؤامرة.

ذهبنا كل باتجاه القرية المحددة لنا، وكانت الساعة تقارب الخامسة بعد الظهر، والنهار أوشك على نهايته، ولا أعتقد بأن أحداً منّا لم يأكل من ليمون تلك البساتين الغضة والتي كانت شجراتها تنوء بثقل أحمالها فتتكئ أغصانها المتدلية على مساميك خشبية تساعد تلك الأغصان على حمل ما وهبتها الطبيعة وعَرَق الفلاحين وكدّهم من ثمار شهية يعود معظم إنتاجها للذين لم تتناول يدهم أي عمل سوى ضرب من تحدّثه نفسه من الفلاحين أو الفقراء من قطف ثمرة أو حتى إذا التقط إحدى الثمرات التي تكون قد سقطت على الأرض.

فيما يتعلق بي وبرفيقي فريد أكلنا كثيراً من الثمار ونحن نسير باتجاه تلك القرية الهانئة الوديعة، في هدوئها الذي يشبه إلى حد كبير امرأة مرعوبة تنتظر مصيراً مشؤوماً لا تدرك ماهيته. وما إن اجتزنا أحد البساتين سالكين إحدى الطرق القادومية، حتى أوقفنا كمينٌ مسلح فلسطيني من أهالي القرية وأمرنا برفع أيدينا فامتثلنا لأننا حيث كنا قد توقّعنا هكذا احتمال، وقلنا نحن إخوان لكم من الجيش اللبناني نريد الاجتماع بكم.

كنا نتكلم ولم نرَ سوى ثلاث بنادق موجّهة نحونا من مرابض يحتلها رجال يعتمرون الكوفية والعقال. تابعوا قائلين: ماذا تريدون منّا؟ أجبناهم إننا مرسلون من قبل القيادة المشتركة لإعلامكم بوجوب النزوح عن القرية ابتداءً من الغد وأن تحملوا معكم ما يكفيكم لمدة خمسة عشر يوماً أو شهر على الأكثر، لأن الجيوش العربية ستهاجم فلسطين وتقضي على الإسرائيليين تعودون بعدها إلى قراكم دون خسائر بأرواحكم.

تهكّم علينا أحدهم، وأعتقد بأنه كان القائد، وقال: "يا إخوان ليش ما بتبعتوا لنا سلاح وذخيرة وبلاش تيجوا، فوالله قادرون لوحدنا تحرير فلسطين ولا نريد من الجامعة سوى السلاح والذخيرة. يا أخي بدناش سلاح بعنا كل ما نمتلك واشترينا سلاح ولكن البواريد بأيدينا أصبحت كالعصي لا

والله العصي أحسن منها". أجبته: "يا أخي نحن جنود وهذا ما أُمرنا به ولسنا الجامعة ولا علاقة لنا بكل المأساة التي تعانوها". ولم نسمع ما دار بينهم من أحاديث فاقتادونا إلى بلدة الزيب، وهناك اجتمع عدة أشخاص أعتقد أنهم وجهاء القرية، وأوعزوا إلينا بالعودة من حيث أتينا وإخبار من أرسلونا بأن الخبر وصل وسيدرسون الأمر.

كان الظلام قد وقع، لذلك عندما هممنا بالعودة استوقفنا أحدهم قائلاً: لا يجوز أن تعودوا في هذا الليل لأن الطرق غير آمنة، فإنكم ستبقون ضيوفاً عندي واقتادنا إلى بيته حيث قام بسخاء بواجبات الضيافة العربية، ولكن لم نتمكن من التهام الطعام الجيد الذي قُدّم لنا نظراً لما كنا قد أكلناه من ثمار أثناء عبورنا بساتين تلك القرية.

انتشر الخبر بسرعة البرق في القرية وكانوا قد علموا شيئاً عن دخول الجيوش العربية للقتال إلى جانبهم، وكان أشد ما يخيفهم الخيانات والمجازر الوحشية التي كانت ترتكبها العصابات الصهيونية الفاشية أينما حلّت حيث كنا نرى القلق والخوف ظاهرين على جميع الوجوه بما فيه الرجال الذين يحملون السلاح. وأشّد ما آلمنا أن معظمهم لا يوجد لديهم ذخيرة، وكانت ذخيرة المقاتل منهم تقدّر بعشر طلقات أو عشرين طلقة، فتأمل ما هو شعورنا تجاه مقاتلين يحملون السلاح الذي كلفهم جميع ما يملكون بما فيه حتى مصاغ

نسائهم ولا توجد لديهم ذخيرة ولا ما يشترون به تلك الذخيرة.

آه كم أتمنى لو كنت أديباً أو شاعراً لأتمكن من نقل ما أحسستُ به تجاه أولئك الناس الذين لا تزال المؤامرة تلاحقهم حتى الآن.

الذهاب إلى عيترون: عدتُ من مهمتي وقدّمتُ تقريراً موجزاً عن تنفيذ المهمة وعكست حال البلبلة والقلق والخوف الذي ينتاب سكان تلك القرية، حيث أن الحالة واحدة في كل القرى الفلسطينية ومدنها أيضاً. بعد ذلك بدأنا بالفعل نتلقى يومياً آلاف المهجّرين من الداخل والذين كانوا بدورهم يتكاثرون كلما مروا بقرية قريبة من الحدود.

دقَّ نفير الخطر ليل ١٢-١٣ واستنفرت جميع القوات المتواجدة في الناقورة وضواحيها، وتابع النفير معلناً اجتماع قادة السرايا(٣٣).

استنفرت القوات وذهب كل آمر سرّية إلى مركز قائد الفوج، المقدّم جميل الحسامي، وكانت نتيجة الاستنفار بأن

---

(٣٣) كانت معظم الاتصالات يؤمنها النفير Clairon بحيث إن الاتصالات السلكية واللاسلكية غير مأمونة الاتصال نظراً لإمكانية التقاطها من قبل العدو. بالإضافة إلى أنها كانت نادرة، ففي سنة ١٩٤٨ كان الجيش لا يزال لديه أسلحة فرنسية قديمة.

القيادة المشتركة أمرت باشتراك الجيش اللبناني في المعركة، ووافقت الحكومة على ذلك. واستقر الأمر على أن الفوج الثالث هو الفوج المؤهل لخوض معركة كهذه يدعمه فصيلا مدفعية /١٠٥/ بأمرة الضابطين هنري شهاب وفايز الراسي، وكان هذان الضابطان من أحسن ضباط المدفعية، ويدعمه أيضاً فوج المدرعات الذي كان بأمرة العقيد جميل لحود. سار الفوج ليلاً تواكبه المدفعية والمدرعات ومتخذاً الوضع القتالي، فوصلنا نهاراً إلى عيترون وتمركزنا في بساتين الزيتون المحيطة بها، وهناك وُضعت جميع القوات بأمرة المقدم شوكت شقير كقائد عام للقوات المشتركة في القتال.

معركة المالكية: حوالى الثامنة صباحاً من الرابع عشر من ايار تركنا مواقعنا في عيترون متخذين تشكيلة قتالية على الطريق المؤدي من عيترون باتجاه بليدا، وكان قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب يقف في أول الطريق يداعب أصدقاءه من الجنود القدامى الذين عرف منهم الرقيب أول كيروز فسأله القائد وبلهجته الكسروانية "يا كيروز بعدك بتلعب قمار، أجابه أي والله مون جنرال بعدني عم بلعب فإذا معك شي ورق جديد يللا تنبلش"، فضحك فؤاد شهاب وقال: "هلق بس نحتل المالكية". وقالها بشكل جدّي وحازم وغابت ابتسامته المداعبة عن وجهه ثم تابع قائلاً: "إن شاءالله

بتوصلوا بخير وسلامي يا كيروز، ورح جبلك معي ورق جديد من بيروت".

بدأنا نصل تباعا ونتمركز على التلال الواقعة شمال عيترون المشرفة على واحة كبيرة من الأراضي المنبسطة بين تلك التلال وبلدة المالكية التي تقع على رابية مقابلة للتلال التي نتمركز فوقها. ومن المالكية بدأ القصف المدفعي على التلال التي كنّا نتواجد فيها، حيث كانت الأوامر واضحة بمتابعة التمركز مهما كانت قوة القصف شديدة.

تابعنا التمركز، ولم يُصب أحد منّا بجراح على الرغم من الانفجارات المتعددة، بحيث أن معظم الجنود كانوا على درجة عالية من التدريب الجيد خصوصاً الفوج الثالث للقناصة والذي كما ذكرنا قد أُطلق عليه اسم الفوج الديناميكي. وإنَّ عدم وقوع خسائر بالأرواح أو العتاد في أول معركة حقيقية كان يخوضها ذلك الفوج، جعل من الجنود يسخرون نوعاً من القنابل الصهيونية المنهمرة علينا.

كنا بانتظار وصول الطيران السوري ليقصف مراكز تمركز الإسرائيليين في المالكية والكيلو متر تسعة وضواحيها، وكان موعده الساعة الحادية عشرة.

تأخر وصول الطيران نصف ساعة، لذلك تأخر الهجوم أيضاً نصف ساعة على ما أعتقد، ولكن المدفعية المتمركزة في نواحي عيترون بدأت تدكّ المواقع الإسرائيلية بدقة بالغة، وما إن انتهى الوقت المحدد للقصف، حتى وصل الطيران

السوري وبدأ أيضاً بإلقاء قنابله على ما تبقى من مواقع صهيونية. وفي هذه الأثناء صدرت الأوامر بالهجوم فكنت ترى الجنود يسيرون في ذلك السهل بتشكيل عسكري متناسق منتظم من حيث التقدم مع الحماية "نار وحركة"[٣٤].

كنا كلما تقدمنا باتجاه المالكية كان القصف المدفعي يمتد مداه، أي يتدرّج في العمل وكذلك القصف الجوي. وتحت هذا الضغط الناري كان الفوج يتقدّم، ومن الغريب ألا يصاب إلا رقيب أول جُرح في بطنه ويدعى عبدالله شاهين من القبيات. وما إن اقتربنا من الكيلو متر تسعة، وهو في ضاحية المالكية الغربية، حتى صدر أمر الهجوم بالسلاح الأبيض. وكان أول الواصلين إلى حقول المالكية هو الملازم أول فرنسوا جنادري وكان رئيس فصيل السريّة الأولى. أما النقيب أبو طقه مخائيل فكان يسير أمام سرّيته راكضاً وبيده عصاه، وهذا المشهد بعث الحماس الشديد بين الجنود وجعلهم يتسابقون لاحتلال أمكنة تمركز الصهيونيين الذين ولّوا الإدبار تاركين وراءهم عدة قتلى وثلاثة أسرى وعدداً من المعدّات والأسلحة والذخائر وسيارتي شحن كبيرتين .

---

(٣٤) نار وحركة لغة عسكرية وهي تعني الدعم الذاتي للمتقدمين حيث يتقدم فريق في ظل حماية فريق آخر، إلى أن يتم وصول الفريق المتقدم إلى الموقع المعين فيتمركز ويبدأ بإطلاق النار لحماية زملائه الذين كانوا يحمون تقدمه، وهكذا دواليك إلى أن يتم الهجوم بالسلاح الأبيض.

ومن الإنصاف القول بأن الجيوش العربية لو قاتلت كما قاتل الجيش اللبناني آنذاك لكانت إسرائيل في خبر كان، ولكن مرض التفرقة الذي خلقته وشجعته الدوائر الاستعمارية العربية وطبيعة النظام الاقتصادي العالمي الرأسمالي وغياب القيادات العربية المؤهلة لتوحيد النضال، حيث لا تزال أيام "ماكو أوامر" سارية حتى الآن؛ إنني أجزم بأن معركة المالكية هي من المعارك المشرّفة التي خاضها جيش عربي، إذ إنه من غير المعقول حدوث معركة حربية ضخمة ونوعية كمعركة المالكية ولا يزيد عدد الضحايا فيها عن جريح واحد وقتيل واحد وقف قلبه أثناء القصف من دون أن يصاب بأي جرح أو رصاصة، إنما مات نتيجة قوة الانفجار الذي وقع على مسافة قريبة منه لا تزيد عن العشرين متراً، بينما كانت الخسائر عدة قتلى وثلاثة أسرى بينهم فتاة[٣٥] وشاحنتين كبيرتين بالإضافة إلى أعتدة وأسلحة وذخيرة وألبسة لا يُستهان بكميتها.

الرفيق اميل طانيوس الحلو: الرفيق اميل طانيوس الحلو والذي أُطلق اسمه على الثكنة الكائنة في شارع مار الياس باسمه، كان من أبرع العاملين في نزع الألغام، وكان رئيساً لفريق نزع الألغام في هجوم المالكية، وكان يقوم بعمله

(٣٥) أعيدوا إلى اسرائيل بعد عقد الهدنة بواسطة الصليب الأحمر.

ببراعة قلّ نظيرها. لقد كان رفيقاً هادئاً ومحبوباً، وكان موته خسارة كبيرة للجيش كرفيق متفوّق في اختصاصه. وخسارة أيضا لمنظمتنا الحزبية.

استدعي هذا الرفيق لنزع أحد الألغام المزروعة تحت شجرة سنديان وحيدة على ما أعتقد في المرتفع الغربي لبلدة المالكية. وكان يتدلّى من تلك الشجرة جسد أحد الرماة الصهاينة المربوط إلى أغصان الشجرة بواسطة حبل ملفوف على وسطه مع الغصن.

وكما قيل "غلطة الشاطر بألف" فبدل من أن ينبطح هذا الرفيق بالقرب من اللغم وينزعه، كما تقضي التدابير الأمنية الأولية، أخذ وضع القرفصاء فوق اللغم مباشرة. وبعد أن نزع التراب من حوله وأوقف صمّام التفجير حمله ليرميه إلى رفيقه المنبطح قريباً. (كنت على مسافة لا تزيد عن الخمسين متراً أتمركز مع جهازي اللاسلكي المخصص للاتصال بالقيادة العامة للجيوش العربية بقيادة الملك عبدالله) انفجر اللغم وكأنه كان موجوداً في داخل هذا الرفيق الذي جمعنا أشلاءه بعد الانفجار من دائرة قطرها يزيد عن الخمسين متراً لأنني وجدت إحدى قدميه لا تبعد عن مكان تمركز اللاسلكي أكثر من عشرة أمتار. وفي التحقيق تبين أن اللغم كان مفخخاً مما أدى إلى انفجار اللغمين أثناء نزع الأول حيث كان موصولاً بلغم مربوط به من الأسفل.

كان الحزن عظيماً على استشهاد هذا الرفيق، وكان الفوج

بأسره وسرّية الهندسة التي ينتمي إليها يبكون وينتحبون كما لو أن كل منهم قد فقد شخصاً عزيزاً جداً عليه. وقد بدت مشكلة نزع الألغام مشكلة عويصة بعد استشهاد اميل لحود والذي أبى أن يبقى مع الفرنسيين بالرغم من أنه كان في قوات فرنسا الحرة ولم يصب بأذى طيلة خوضه لمعارك الحرب العالمية الثانية خصوصاً في ليبيا. وقد التحق بالقناصة اللبنانيين عندما خيّروه بين البقاء فرنسياً وبرتبة ضابط أو الذهاب لرتبته الحالية في الجيش اللبناني، وكأنه قد صمم مسبقاً على الاستشهاد في أرض الوطن.

صدرت الأوامر بالتمركز محلياً، أي أن كل عنصر عليه البقاء في مكانه من دون أن يتحرك أبداً نظراً لكثافة الألغام المزروعة، فكل تحرك مهما كان بسيطاً، يمكن أن يعرّض مرتكبه للموت، خصوصاً وأن الليل قد أرخى سدوله، وأصبح من المستحيل التمييز بين الأرض المحفورة (وهي علامة تدل على وجود لغم) والأرض العادية.

مفجّر ألغام بالمصادفة: بتنا جميعنا تلك الليلة في حقول المالكية الغربية، تلك الحقول المزروعة بالألغام الكثيرة التي وجدناها في ممرات إجبارية أو حقول ألغام مزروعة بأكملها.

وما إن انتصف الليل حتى بدأت الانفجارات تدوّي والشظايا تتطاير في مختلف الاتجاهات من دون أن تُحدث أي إصابات نظراً لأن الجنود يحتمون كل في مركزه. وهذا

النوع من الالتصاق بالأرض يبعد عن المقاتل الكثير من أضرار الشظايا والرصاص.

امتشقنا السلاح وبقي كل منّا في مركزه ينتظر بدء معركة جديدة، باعتبار أن الانفجارات التي حصلت هي تمهيد لهجوم معاكس يقوم به العدو الصيهوني، ولكن الصباح انبلج ولم نرَ أي أثر لصهيوني يقوم بهجوم معاكس.

وقد تبين في التحقيق عن سبب الانفجار بأن قطيعاً من بنات آوى كان يوّد الهروب كما يظهر من أرض المعركة فاخترق بعض حقول الألغام الموجودة هناك ففجّرها، وقد وجدنا عدداً منها مقتولاً في تلك الحقول. عندما تابعنا تقدمنا في اليوم الثاني لاحتلال المالكية نهائياً، والتمركز فيها بعد أن كانت سبقتنا إليها فرقة كشّافة أكدت على نظافة القرية من الصهاينة الذين انسحبوا منها وأخذوا ما خفّ حمله وارتفع ثمنه. ولم نجد في القرية سوى القليل، شيوخاً ونساءً ورجالاً وقد علمنا منهم بأن معظم السكان غادروها إما إلى بنت جبيل وإما إلى الناصرة في الجليل.

هذا وكأني بأميل الحلو أبى حتى بعد استشهاده إلّا أن يسهل علينا اختراق تلك الحقول الملغومة، فأرسل إلينا تلك الحيوانات التي امتهنت تفجير الألغام ولكن بالمصادفة، وهذا ما كان يردده معظم الضباط والجنود.

تقطيب الجرح بالمسلّة: أثناء تقدمنا بدأت إحدى

الطائرات الصهيونية تقصف تجمّعاتنا، وكان القصف عشوائياً نظراً للارتفاع الكبير التي كانت تسقط منه قنابلها علينا. وتشاء المصادفات أن تنفجر إحدى القذائف وتصيب إحدى شظاياها يد أحد الجنود وبطنه، وأذكر أن ذلك الجندي كان من آل خريش. فبدأ يصرخ ويستغيث، ولم تُجدِ نفعاً تنبيهات وتحذيرات رفاقه في منعه من الصراخ والاستغاثة، لأن هذا النوع من الصراخ والاستغاثة ممنوع عسكرياً، خصوصاً إذا كانت مجموعات مقاتلة، لأن الصراخ والاستغاثة يؤثر على معنويات المقاتلين.

عند ذلك فوّضني النقيب زين الدين آمر السرّية الثالثة من الفوج الثالث للقناصة، وكان هذا الرجل من أشجع الضباط، ومن المناضلين منهم وطنياً، وكان على علاقة جيدة بمنظمة الحزب في الفوج الأول قبل أن ينتقل إلى الفوج الثالث. قلت فوّضني بترك جهازي اللاسلكي والذهاب إلى ذلك الجندي أسكته إما بالإقناع أو بالإعدام، فذهبت مسرعاً إلى ذلك الجندي غير آبهٍ للخطر الذي يحدّق بي في كل خطوة أخطوها في تلك الحقول المغروسة بالألغام المكثفة.

عندما وصلت أمرته بالسكوت وخفْض صوته وإلا سأطلق النار على رأسه فوراً وأريح رفاقه من عمله الهادم للمعنويات. لم يأبه في بادئ الأمر ولكن عندما رآني ألقم سلاحي وأصوبه إلى رأسه قائلاً له: "اسكت وإلا سأقضي عليك، أسكت حتى أتمكن من تضميد جراحك".

أخذتُ ضماده الفردي وربطت زنده المجروح، وما إن كشفت على الجرح في بطنه حتى رأيت الشظية قد مزّقت جلد بطنه ما يقرب من الثلاثين سنتمتراً ومعظم أحشائه اندلقت بعد أن نزعت قميصه عن بطنه.

فوجئت بوضع هذا الجريح الذي بدأ يتلوى بين يدي من الألم وهو لا يجسر على الصراخ، وقد سمحتُ له بالأنين الذي لم ينقطع عن إرساله. ما العمل؟ بدأتُ بإعادة أحشائه إلى جوفه ولكن يجب تقطيب الجرح، فلا مستوصف ولا طبيب وحتى الصحّية كانت لا تزال في الكيلومتر تسعة، ونقل المريض إليها مستحيل دون تقطيب الجرح.

أرسلت أحد الجنود إلى الرقيب علي كلش المسؤول عن دواب النقل (البغال) وكلفته بأن يحضر لي مسلة وخيط مصيص، وهذه أشياء متوافرة عند ذاك الرقيب، لأنه بحاجة إلى هكذا أدوات ليصلح ما يخرّب من أدوات الحمولة. وما إن غاب قليلاً حتى عاد الجندي ومعه المسلّة وخيط المصيص (القنب).

أجلستُ أحد الجنود على قدمي الجريح خريش بينما أمسك آخر بيديه ليمنعانه من الحركة وبدأت بخياطة الجرح متحاشياً الخلط بين أحشائه وجلده، وجعلت القُطَب قريبة بعضها من بعض، وكنت أشدُّها، أي القطبة، حتى يصبح الجرح ملتصقاً وطبعاً منفصلاً عن أحشائه، وقد نجحتْ إلى حد كبير في تلك العملية، حتى أن الطبيب في بنت جبيل

ترك العملية كما هي حتى شُفي الجريح من دون أن تُسبب له تلك العملية أي ضرر لا في الأحشاء ولا في الجلد. وعندما سألني الطبيب كيف تمكنت من إجراء هكذا تقطيب أجبته وبيّنت له كيف كنت أضع إصبعين من يدي اليسرى بين الجلد والأحشاء وأدهشت عند إجراء عملية التقطيب.

احتلال قَدَسْ بواسطة أسير شيوعي: كان فرحنا كبيراً عند تمركزنا في المالكية، خصوصاً وأن الخسارة كانت لا تُذكر بالنسبة لضخامة المعركة، وكذلك بعد أن عادت مدفعيتنا لقصف القواعد الإسرائيلية الصهيونية المتمركزة على تلة الهراوي والنبي يوشع الذي اقتحمه فوج المدرعات بقيادة العقيد لحود الذي اقتحم ذلك المعقل الصهيوني ببسالة نادرة، ثم أعيدت المدرّعات إلى مراكز انطلاقها في الكيلومتر تسعة والمالكية، ولعلّ تلك العملية كانت سطراً من كتاب المؤامرة.

كنا فرحين جداً بانتصارنا الكبير هذا، ولكن بدأنا نتضايق من قلة المياه، حيث لم يعد يُسمح لنا باستعمالها إلّا للشرب والطبخ فقط، لأنه كان لا يوجد لدينا سوى شاحنة صهريج راحت تنقل المياه من صور وغالباً ما كانت تعود من مهمتها إلا وتحصل فيها بعض الأعطال كونها سيارة قديمة والطرقات كانت لا تزال بدائية في تلك الأيام.

كنا نتناقش أنا وبعض الرفاق قرب مخفر الحرس، وكان بالقرب منه، أي من ذلك المخفر غرفة قديمة نحتجز فيها

بعض الأسرى الفلسطينيين، ويظهر أنهم كانوا يستمعون إلى أحاديثنا ومناقشتنا. فاستنتج أحد الأسرى من خلال مناقشاتي بأنني شيوعي وأراد التحدث إليّ بعد أن استأذن رئيس الحرس الذي أوضح له أنه من الصعوبة التكلم معي، باعتباري مسؤولاً عن الاتصال اللاسلكي بالقيادة العليا المتمثّلة بالملك عبدالله صورياً وبالضابط غلوب باشا فعلياً، وكان محظوراً التكلم معي من غير الضباط. ولكن صداقتي مع رئيس الحرس سمحت له بالاتصال بي بعد استشارتي، متسائلاً إذا كان يقع ضرر ما في حال تحقيق ذلك الاتصال؟ قلت له: إرسله إلي ولا ضير عليك من ذلك، فالمصلحة العامة العسكرية تقضي بمعرفة ما يجري بين أسرى فلسطينيين هم إخوة لنا في العروبة.

أتى الأسير وأوضح بأنه يريد الاجتماع على انفراد بالأخ اسبر فمن هو من الشباب؟ ويظهر أنه عرف اسمي من رئيس الحرس أو أنه سمعه من أحد المتناقشين. أجبته ماذا تريد منه؟ قال: "أريد التحدث معه على انفراد فهل أنت هو؟"، قلت له: نعم. وأدخلته غرفة اللاسلكي قائلاً: ماذا تريد؟ قال: أنا رشدي الصعيدي شيوعي من الناصرة، وأنت إذا لم تكن شيوعياً فإنك صديق للشيوعيين. أجبته متحفظاً، أفصح عما تريده، فإنني مستمع إليك شيوعياً كنتُ أو صديقاً للشيوعيين! قال يا رفيق إنكم تعانون كثيراً من قلة المياه، ونحن بدورنا نعاني أكثر، ويوجد أمامكم في سفح جبل

المالكية شرقاً نبع مياه عذبة من أحسن المياه في المنطقة فلماذا لا تحتلونها وتستعينوا بالمياه الموجودة هناك وتحلّون مشكلتكم العويصة؟

بدأت أشكّ بكلام هذا الرفيق غير المنتظر وسألته عمّا إذا كان يرافقنا إذا أردنا أن نستطلع القرية، وأخبرته بأنني سأطلق النار عليه إذا ثبت لي عكس ما يخبرني. فقبل بهذا الشّرط وأبدى استعداده ليسير أمامنا أكثر من عشرين متراً كي يقينا أي مفاجأة غير متوقعة.

ذهبتُ فوراً إلى قائد الجبهة المقدم شوكت شقير وأخبرته بما قاله الأسير لي. ضحك ساخراً وأجابني هل تؤمّن له؟ من المحتمل أن يقودنا إلى فخ يتفق عليه ليهرب من الأسر. فأخبرته بشروطي وكيف قبلها وأخبرته عن استعداده للذهاب في الطليعة تأكيداً على صحة قوله، كما أبديت رغبتي بترؤس دورية الاستطلاع التي ستذهب إلى قَدَسْ والتأكد من صحة وجود المياه، وبالفعل كانت رغبتي تتمثّل بالوصول إلى المياه لأشرب وأغتسل وأكون بعملي هنا طليعياً بالنسبة لحل مشكلة عويصة يعاني منها جميع الأفراد، طبعاً ما عدا الضباط الكبار.

مانَعَ القائد في بادئ الأمر نظراً لمسؤولية الاتصال والمفروض دوام تأمينها فأخبرته بأن رفيقي مارون مطر أهلاً للمهمة وبالفعل كنت أعتمد عليه كثيراً في الاتصال بينما كنت

أذهب للمشاركة في أي عمل مغامر أو تحفّ به الأخطار، ومن صغري كنت أكره حصولي على الأشياء بسهولة .

الاستطلاع: وافق القائد على ذهابي بعد أن أوصاني بالاحتراز من الأسير والأراضي الحرجية المحتمل وجود كمائن صهيونية فيها.

انتقيت ستة أشخاص من المعروفين ببسالتهم فحمل كل منا ما يقرب من الخمس أو الستّ "قِرَبْ" لتعبئتها بالمياه فيما لو وجدناها. وكذلك حملنا مناشفنا وعدّة الحلاقة حتى نعود من الدورية ونحن في أحسن أحوالنا ونكون قد حملنا إلى القائد الإثبات المادي بنجاح مهمتنا.

أعطيتُ أوامري بالسير بتشكيلة الاستطلاع نصف الزمرة بخط الانتشار. وانقسمت الزمرة إلى قسمين متباعدين يفصل بينهما خمسون متراً تقريباً، وكانت المسافة تقصر وتطول بحسب تعرجات الأرض ومدى الرؤية، وكان رفيقنا الأسير معي في نصف الزمرة الأولى، ويتقدمنا بأكثر من عشرين متراً، وكنّا قد أمّنا جانبه جيداً، بعد أن تركتُ عن عمد بندقية أحد الجنود متروكة بالقرب منه، وكذلك من حديثه عن النضال الطبقي والذي كنت أفهمه نظرياً أكثر منه تطبيقاً على أرض الواقع.

وصلنا إلى قَدَسْ بعد مسيرة نصف ساعة تقريباً، وكانت الشمس قد بدأت ترسل أشعتها من فوق مرتفعات نجمة

الصبح شرقي وادي الحولة. ولحسن الحظ رأينا الدخان يتصاعد من أمام أحد البيوت الواقعة في منتصف القرية.

طوّقنا البيت المشار إليه ولم نلقَ أي مقاومة. وعندما أحكمتُ الطوق صرخت بملء صوتي من هناك إذا كنتم عرباً فلا تخافوا فنحن إخوان لكم وإذا كنتم إسرائيليين فلا خوف عليكم من الموت لأنكم أسرانا. فخرجت إلينا صبيَّةٌ جميلةٌ وصرخت مذعورة، إننا فلسطينيون وإنني موجودة هنا مع جدّي العاجز الذي تركوني معه لخدمته. وسألناها من يوجد غيركم في القرية فأجابتنا بأن الجميع ذهبوا ولم يبق غيرها مع جدِّها.

دخلت البيت أنا ورفيقي الأسير، وسلَّمنا على الشيخ العاجز بعد أن فتشنا البيت تفتيشاً دقيقاً ولم نجد فيه ما يثير الشبهات. فأعطيت أوامري للجنود بالدخول باستثناء واحد يبقى كمراقب على مدخل السور الذي يحيط بالبيت من الجهة الجنوبية فقط، وهو كما يظهر مخصص لإيواء بعض الحيوانات الداجنة كالبقر والماعز والغنم وأعشاش للنمل كثيرة، وهكذا كان حال معظم بيوت تلك القرية.

سألتنا عما إذا كنا نريد أن نتروّق، وأخبرتنا أن لديها الكثير من المؤونة: لبن، لبنة، بيض، جبن، عسل، تين يابس الخ... إلى ما هنالك من مؤونة كانت تحتفظ بها معظم عوائل الفلاحين. لم تغرِنا أية مادة غذائية وحتى جمالها لم نأبه له كثيراً في بادئ الأمر، بل كان كل همِّنا المياه التي

طلبناها، وذهبت تلك الصبية مسرعة إلى حمَّال خشبي يشبه المقعد المستطيل حيث يوجد فجوات مدورة على سطحه يدخل فيها كعب الجرة.

شربنا حتى ارتوينا وسألناها عن وضعهم وكيف طردهم الصهاينة من القرية، فقالت الحقيقة لم يهاجم أحد القرية، إنما كان يوجد بعض الجنود هربوا مع رفاقهم المنهزمين من المالكية، وهم الآن إما بالنبي يوشع أو بالهراوي. وقد نسفوا مضخة المياه قبل ذهابهم وهكذا أصبحنا نذهب إلى النبع لننقل المياه يومياً على الدابة الموجودة لدينا.

كان الرجل يصرخ من فراشه ويسأل من نكون، هل عاد جيش الإنقاذ أم نحن من عسكر الشيشكلي؟[٣٦] فأفهمناه بعد صعوبة نظراً لإصابته بالصمم بأننا من الجيش اللبناني ونحن الذين هزمنا الإسرائيليين في المالكية، وسنأتي لنحتل قدس: فهل ترحبون بنا؟ رحّب بنا كثيراً وحثَّ حفيدته على الترحيب بنا وتقديم واجبات الضيافة. وبدأ يتضرع إلى الله كي يعطينا النصر ويأتي التحرير على أيدينا. وقال: "أنتو مثل ولادي (كان يبلغ من العمر الثمانين) وأنا قضَّيت الكثير بزماني، أنا قاتلت مع الحاج أمين الحسيني ومن سنة الستة وثلاثون وأنا أجاهد ولكن يا شباب الله يجمع قلوبنا ولا نوشي ببعضنا،

---

(٣٦) أخبرنا الشيخ بأن الشيشكلي انسحب من النبي يوشع والهراوي دون أن يقاوم الإسرائيليين.

والخيانة يا أولادي أبشع جريمة في الدنيا يا حسرتي عالشباب وعدَّد عدّة أسماء لم أعد أذكر أياً منهم، ياللي طخوهم الانكليز والله لوما الخياني ما وصلناش لهون، كانوا عم بتشكّوا من الجامعة العربية إنها ما عمبتساعدهم بإشي حتى الذخيرة والله ما كان معو الواحد خمس طلقات، فكيف بدكو شباب يحموا القرى باللحم، والله الشباب صاروا بعيترون، وهم سيعودون عندما يُسمح لهم بذلك".

تركنا الشيخ وحفيدته وذهبنا إلى النبع الواقع بين عدة شجيرات من الدلب والسنديان تحيط به بعض البساتين التي لم يبقَ من ثمارها شيء. وما إن رأينا المياه حتى بدأ كل منا بحلاقة ذقنه أولاً ثم اغتسلنا جميعاً على الرغم من برودة المياه، وملأنا مطراتنا[٣٧] والجرة التي أفرغناها في القرية.

ولكن ما إن بدأنا بارتداء ملابسنا حتى بدأ الصهاينة بقصفنا بواسطة الهاون، ولم تصبنا أية قذيقة إذ إن المدفعية القوسية الموجودة لديهم لا يتعدى مداها نصف المسافة الموجودة بيننا وبينهم، هذا بالإضافة إلى تنبه القائد للقصف فأعطى أوامره للمدفعية بقصف الهراوي والنبي يوشع، ولم يمض سوى القليل على قصف مدفعيتنا المحكمة بدقة متناهية والتي تقع على أهدافها مباشرة حتى توقف قصفهم الأقطش.

حملنا مطراتنا بالإضافة إلى الجرة الفخارية التي حملها

---

(٣٧) مطرة: إبريق مسطّح من التنك خاص بالجنود.

اثنان من زمرتنا وعدنا أدراجنا وكأننا في نزهة، مزهوين بالمياه التي نحملها، وأيضاً بنجاح مهمتنا، وكل منّا يعرف فرح النجاح خصوصاً الجندي. مررنا بطريقنا إلى البيت الوحيد الآهل في القرية، وأعدنا إليهم جرّتهم ملآنة، وتابعنا سيرنا إلى أن وصلنا إلى مقر القيادة العامة، حيث كان قلق القائد علينا كبيراً، لأننا بقينا ساعتين بدل الساعة المحددة لنا للذهاب والإياب.

احتلال القرية: ما إن عدنا بالإثبات المادي لنجاح مهمتنا، خصوصاً القائد الذي اعتبر إعطاءه إحدى المطرات المملؤة ماءً هدية كبيرة له، ولأن هذا الضابط كان يعيش حياة بسيطة كالجنود تقريباً بعكس بقية الضباط الكبار الذين كانوا يؤمنون لأنفسهم الخدم وما ينقصهم من مياه ومواد غذائية سواء تأمنت هذه الأشياء للجنود أم لم تؤمن، وبالرغم من الانتصار الكبير والشرف الذي تحقق بقيادته، فعندما حان وقت الترقية، وباعتبار أن الترقية كانت ٦ و٦ مكرر فقد تم ترقية المقدم حلبي إلى رتبة عقيد وتُرك المقدم شقير دون ترقية، مما جعله يستقيل من الجيش ويذهب إلى سوريا، حيث ترأس أركان الجيش السوري لمدة لا بأس بها.

صدرت أوامر باحتلال القرية بعد أن وضعت القائد بصورة دقيقة عنها لأنه كانت تنقصنا الخرائط، فكان من نصيب السرية الثانية احتلال القرية. وقد عارض قائدها آنذاك،

وأعتقد عن جُبْن لأن تلك السرية لم تكن فعّالة كبقية السرايا أثناء الهجوم الناجح على المالكية، أو بالأحرى لم يكن قائد تلك السرية فعّالاً كبقية قادة السرايا الآخرين وهذا هو الأصح حيث دخلت السرية القرية دون أية صعوبات.

إفادة الاحتلال: من المفروض أن ترفع القطاعات تقارير يومية إلى القيادة العليا الموحدة بقيادة الملك عبدالله تبيّن بالتفصيل أوضاعها بالعديد وبالعتاد وطلب ما تحتاج إليه أو ما تحقق لديها من جديد.

وهكذا كان قطاعنا كبقية القطاعات يرفع التقارير اليومية، ويبين يومياً ما يعانيه من النقص في المياه التي كانت تمثّل مشكلته الكبرى، ولكن تقرير احتلال قدس لم يكن يعني حل مشكلة رئيسية نعاني منها جميعاً فحسب، بل هي تقدم جديد في تحرير أرض جديدة.

أرسلتُ البرقية فرحاً للنجاح المزدوج في حل مشكلة المياه وكذلك احتلال تلك القرية، وقد أعطيت الأوامر للسرية التي احتلتها كي تتمركز دفاعياً، باعتبار أن هذا الأمر، أي أمر التمركز في القرية هو الجواب الطبيعي والمنطقي والمعقول لبرقيتنا.

ولكن بعد نصف ساعة وهي فترة الوقت الذي يفصل بين الاتصال والاتصال، تلقيت برقية فوجئت بمضمونها بعد أن حولتها من الشيفرة إلى اللغة غير المرمّزة، تأمرنا بالانسحاب

الفوري من قدس مع لوم واستفسار عن الأسباب التي دفعتنا لاحتلال تلك القرية دون أوامر القيادة العليا.

ذهبت إلى القائد أحمل إليه تلك البرقية المشؤومة، ولم تكن دهشته أقل من دهشتي عندما اطَّلع على فحواها، واتهمني بالجهل في التحويل، ولكنني أعطيته البرقية بالشيفرة فحوّلها بنفسه وقرأ محتواها، فكانت النتيجة واحدة. وهنا قال: مستحيل لن أنسحب، أطلب لي الكولونيل عبدالله التل على السمع الذي طلب منه مراجعة مضمون البرقية (أعطاه رقمها وتاريخها) وإجابتنا، لأنني سوف لا أنفذ بل أريد دعماً لتصرفي.

انقطع الاتصال نصف ساعة حسب التوقيت المحدد للتنصت. ولم يمض سوى القليل حتى بدأ الاتصال وإشعار التهيوء لاستقبال برقية من القيادة العليا.

تلقيت البرقية وحولتها كما هي العادة، فكانت على الشكل التالي: تمركزوا دفاعياً في قدس... الأمر نهائي.

أخذت البرقية وذهبت إلى المقدم شقير قائد القطاع، ففرح كثيراً للنتيجة وقال: هذه أوامر صحيحة ومنطقية.

أعتقد أن أعمالاً كثيرة كهذه طُبقت على مختلف القطاعات، أوامر تمنع التقدم وتؤيد الانسحابات. ولم يمض سوى القليل على هذا الحادث حتى سمعنا بلجوء عبدالله التل إلى القاهرة كلاجئ سياسي... لا أعلم إذا كان اللجوء

لأسباب وطنية أم لأسباب غيرها مخطط لاستثمارها على المدى البعيد؟؟؟

أسطر جديدة من كتاب الخيانة: كان الأمل كبيراً بالانتصار، خصوصاً وأنّ أخبار تقدم الجيوش العربية على جميع الجبهات تردّدها جميع الصحف والإذاعات، فكانت دافعاً لكل المقاتلين العرب، وجعلت من الجميع يعتقدون بأن النصر بات على قاب قوسين، خصوصاً وأن المدفعية العراقية بدأت تدّك على تل أبيب بالذات، ولكن...

في غمرة انتصارات الجيوش العربية أتت الأوامر العليا بوقف إطلاق النار، وتم اجتماع رؤوس الخيانة في رودس حيث كرّس التقسيم الذي كان على وشك الانهيار، وبدأت الجيوش العربية تتراجع على الرغم من الفارق بالعديد والعتاد أمام عصابات يهودية تقل عنها عديداً وعتاداً وحتى على صعيد الروح القتالية، وكنا مدهوشين لتراجع القوات العراقية التي مرت أثناء انسحابها قرب مواقعنا في الناصرة والمالكية وقَدَسْ وعلى امتداد الحدود الممتدة بين لبنان وفلسطين المحتلة. ومما كان يزيد استغرابنا أن معظم المقاتلين كانوا يتمتعون بمعنويات قتالية عالية، وعتادهم الحربي الجيد مع ذخيرته. وعندما كنا نسألهم عن سبب هذا الانسحاب غير المبرر كانوا يجيبوننا وبلهجتهم العراقية "يا إخوان أكد أوامر للانسحاب ولكن للقتال ماكو أوامر".

ولا تزال هذه العبارة محافظة على واقعها وبالممارسة أيضاً على الرغم من أنها بدأت عام ١٩٤٨، ومع أن معظم حكام الأنظمة في ذلك الوقت قد ذهبوا وتغيرت الأنظمة والحكام، وكلها كانت ترفع شعار تحرير الأرض المغتصبة، ولكن منذ ذلك لا تزال معظم الأنظمة ترفع شعارات التحرير ولا تزال الأرض مغتصبة، كما يتم الاستيلاء على أراضٍ جديدة، حتى أصبحنا كلما سمعنا نداءات التحرير تتعالى نتوقع خسارة جديدة للأراضي، وهذا هو ما يحدث بالفعل.

تم سحب جميع الجيوش العربية من الأراضي الفلسطينية ليس وفقاً لقرار التقسيم فحسب، بل تم تسليم تلك العصابات مناطق لم يتناولها التقسيم، فبدأ الصهاينة بتركيز كيانهم تحت ستار الرفض العربي، والذي لا يزال حتى الآن لا يعرف ماذا يرفض ولا يعرف ماذا يقبل، حتى المقاييس العربية كانت مقلوبة حيث تحالفت مع أعدائها وناصبت العداء لأصدقائها.

قلت تم سحب الجيوش العربية جميعها، باستثناء القوات التابعة للجيش اللبناني التي ظلت ثابتةً في مواقعها على الرغم من الأوامر بالانسحاب، في الوقت الذي تم فيه تأليف فوج لبناني خامس أفراده ينتمون إلى مختلف الجيوش العربية والأجنبية بقيادة مقدم يوغوسلافي فاشي فار من يوغوسلافيا مع مجموعات يوغوسلافية أيضاً كانت تعمل كلها في

منظماتِ SS الهتلرية. جميع هذه الفسيفساء البشرية كان يتألف منها ذلك الفوج الخامس اللبناني بالاسم واللباس فقط.

وتحت ستار تبديل القوات للاستراحة أوتي بهذا الفوج واستلم مراكز الفوج الثالث الذي انسحب إلى بساتين الزيتون في عيترون، وبما أن الشاحنات لم تكن كافية لنقل الفوج بأكمله، تابع قسم منه انسحابه إلى بيروت وبقينا نحن ننتظر عودة الشاحنات ولكن...

ما إن انتصف الليل حتى سمعنا هدير طائرات صهيونية بدأت تدك المواقع التي احتلها الفوج الخامس وما هو إلّا وقت قصير حتى بدأت المجموعات التي يتألف منها ذلك الفوج تفر وتتراجع دون أي نظام، وقد أكد لنا معظم الفارين بأنهم لم يشعروا بأنفسهم إلا وهم يفرّون دون أن يروا أمامهم أحداً ودون أن يبدوا أية مقاومة.

إنني عندما أتذكر هذا الشريط الخياني والذي، على الرغم من علامات الخيانة الواضحة فيه، لم أكن أدرك خلفيته في ذلك الوقت، ولم أدرك أيضاً أن ما يجري أمامي على أرض الواقع هو فصل صغير من فصول مؤامرة كبرى، مؤامرة تشريد الشعب الفلسطيني وجعله قميص عثمان لإبقاء جميع الدول العربية متناحرة ومختلفة تحت ستار إعادة هذا الشعب إلى وطنه.

الآن بتُّ أدرك كم تكون حروب التحرير جيدة عندما تقود الجماهير فصائلها الواعية الطليعية والمرتبطة تطلّعاتها

وأهدافها بمصالح شعبها ووطنها وليس بمصالحها الشخصية وبالإرادات المرتهنة لمصلحة كل ما هو خارج الوطن.

الأمير مجيد ارسلان في المالكية: لا أذكر تاريخ احتلالنا للمالكية بفلسطين، إنما أذكر أننا في شهر أيار، وفي صباح اليوم الثاني ليوم الاحتلال، وأذكر أنها كانت الساعة العاشرة تماماً عندما وصل المير، وزير الدفاع آنذاك، معتمراً الكوفية والعقال، معقوف الشاربين وعلى صدره تظهر جنادات محشوّة بالخرطوش وسط مسدس أو مسدسين لم أعد أذكر، ويرتدي بنطلوناً خاص بالخيالة، وكذلك ينتعل جزمة، بالاختصار كان يرتدي لباسه التقليدي بالإضافة إلى ما وصلت إليه يده وما قدر على حمله جسده من الأسلحة والذخائر. كان يرافقه اللواء فؤاد شهاب قائد الجيش، وكان في استقبالهم الضباط الكبار من قيادة القطاع، المقدم شقير قائد القطاع، المقدم حسامي قائد الفوج الثالث والرائد هشام وبقية الضباط. وبعد تأدية المراسم التكريمية للمير ولقائد الجيش تقبل الضباط تهاني المير مقرونة بتهاني رئيس الجمهورية والوزراء والنواب وجميع البلاد فخورة بالانتصار.

ولم نكن قد أنهينا دفن من قُتل من الإسرائيليين بل بقي بعض القتلى الذين كان لهم شرف تصويرهم مع وزير الدفاع المير مجيد الذي تصدرت صورته في اليوم الثاني جميع الصحف اللبنانية التي أشادت بحسن قيادته وحنكته القتالية في

تحقيق ذلك الانتصار. وكان الضباط قد عقدوا حلقة في اليوم الثاني يستعرضون ما تكتبه الصحف عن معاركنا في فلسطين، وكيف كانت تؤكد بأن التحرير بات قريباً، وقد علق أحد الضباط على ذلك قائلاً: من المؤكد أننا سنحرّر فلسطين ما دام المير مجيد وزيراً للدفاع.

رفضتُ ميدالية فلسطين: بدأت لوائح الذين قاتلوا وأبلوا بلاءً حسناً في المعارك بفلسطين وكان اسمي في الطليعة، ولكن أبت الغايات والواسطات إلا أن تُبعد جميع من قاتلوا قتالاً جيداً، واقتصرت الأوسمة "وسام الاستحقاق اللبناني ووسام الصليب الأحمر" على خدم الضباط وبعض المحاسيب، مما جعل الرائد رعد الهاشم يثور لعدم ورود اسمي بين مستحقي الأوسمة وأصرّ على إعادة تنظيم اللوائح. ولكن الذي ضرب ضرب والذي هرب هرب، وقال له جميل الحسامي قائد الفوج: "يا شيخ رعد إسبر من دون أوسمة ما حدا فيه يهدّيه فكيف إذا أخذ وسامين والله بيشوفنا عالطريق وبيصير بدنا نحنا نضربلو سلام بقي شو بدك فيه هيدا كبير رأس وعميخبروا عنو إنو شيوعي". هدأت ثورة هاشم على عدم منحي الأوسمة، ولكنه عاتبني لأنني رفضت أن أقبل وسام فلسطين وكان سبب رفضي هو الاستهتار بذلك الوسام الذي منح لجميع الذين ساروا على طريق الجنوب من العسكريين.

التفكير بالزواج: كان رفيقي الدائم مارون مطر مناوبي على الجهاز اللاسلكي قد بدأ يحثّني بعد تركنا الحدود على الزواج، عارضاً عليّ الاقتران من إحدى بنات قريته كفروة قضاء النبطية.

ذهبنا في فرصة نهاية الأسبوع إلى كفروة حيث يقطن شقيق الزميل مارون. وهناك بدأ هذا الأخير بالكلام عن بطولاتي الرياضية والعسكرية "شي صحيح وشي كذب"، وتشاء المصادفات أن يكون بيننا أحد قبضايات القرية على الطاولة التي تحوي ما لذّ وطاب من اللحم المشوي إلى الفراريج والتبولة والعرق الخ... وكانت الطاولة بعيدة نوعاً ما عن مكان جلوسي. فما كان مني إلّا أن أمسكت الطاولة بجسرها التحتي ولم ينتبه أحد أنني سندت إحدى رجلي الطاولة برجلي ورفعتها بيدي الاثنتين وبقيت كما هي بما حوته من مأكل ومشرب مع أنني رفعتها ما يقرب العشرة سنتمترات عن الأرض وسحبتها باتجاهي، وهنا صدق الجميع ما قاله مارون عني بأنني معجزة في القدرة.

في اليوم الثاني ذهبنا إلى الكنيسة، وبعد انتهاء القداس وقفنا نستعرض بنات القرية، وكان خبر قدومي لاختيار عروس يملأ القرية بالإضافة إلى قدرتي الهائلة، خصوصاً ما حصل أمامهم عند رفع الطاولة.

انتهى الاستعراض وإذا بمارون يعلمني بوجود مصارع

"صهر القرية" يريد منازلتي. فقلت لا مانع من ذلك، فأخذوني إلى أحد الدور في منتصف القرية فوجدت معظم شباب وصبايا القرية قد اجتمعوا هناك ليروا نتيجة المباراة.

بعد المصارعة: دخلنا البيت المزوَّد بعدّة فرش للمنامة تتلاصق مع بعضها بعضاً، وتحتل نصف مساحة باحة البيت حيث كان المصارع الثاني بانتظاري، وللفور بدأ يقوم بحركات بهلوانية رياضية (وهي عادة يقوم بها الرياضيون لتحمية الجسد وكذلك لإخافة الخصم).

نزعتُ ما يستر القسم الأعلى من جسدي وبقيت ارتدي البنطلون فقط ومن دون حذاء. وبدأنا المحاورة والمداورة إلى أن تمسكتُ بإحدى ذراعيه فلويتها ورميته أرضاً وحشرته بين فخذي مقصاً وبدأت أشد. وهكذا بدأ كابن آوى عالقاً بالفخ؛ ذراعه ملوية وجسده بين فخذيّ يشدّان عليه. فما كان منه إلا الاستسلام، فصرخ مستسلماً وبدأ يحتج على أنني ألعب معه مصارعة كاتش بينما هو يلعب يونانية رومانية، وبالفعل يوجد فرق كبير بين الاثنين لأنه في المصارعة الرومانية اليونانية يمنع عليّ الأطراف أو استعمال الأرجل بعكس المصارعة الحرة المسموح بها استعمال جميع أعضاء الجسد، ولكن الأهالي، معظم الأهالي وليس أهالي كفروة فحسب، لا يعرفون الكثير في ذلك الزمن عن الفرق بين المصارعتين وقد ضاع صوت خصمي المحتج على النتيجة بين الأهالي

المشجعين والمصفقين لانتصاري. وقد قال له أحد الحاضرين بالحرف الواحد وبلهجته الجنوبية "ولك روح انقبر بعدك عم تحكي ماكين جعيرك مثل تور البقر إي روح تضبضب روح حاجي تِلتّ حكي".

وهكذا خرج ذلك المصارع ولم يعد إلى القرية. وقد سألت عنه بعد خمس سنوات فأخبروني بأنه هاجر ولم يعد يحضر إلى القرية منذ يوم المباراة.

خرجنا عصر ذلك النهار إلى خراج القرية كما هي عادة أهل القرى في ذهابهم إلى كروم العنب والتين لقطاف ما تيسّر لهم من ثمارها فيعودون إلى بيوتهم فرحين مبتهجين يرددون بعض الأغاني الشعبية.

قَيْمة الجرن: كنا ضمن أحد التجمعات العائدة إلى القرية بعد مشوار العصر، وإذا بأحد الشباب ينفرد بزميلي مارون ويقول له بعض الكلمات همساً . عاد زميلي ولاحظتُ الارتباك على وجهه، فسألته ما الخبر فقال لي غاضباً: يا أخي بتعرف عادة القرى، عندما يأتي أحد الخاطبين إلى القرية لا بد له من قَيْمة الجرن، والشباب قد وضعوا لك في أول القرية جرناً وهم يدعونك لمشاركتهم رفعه. فقلت له: يا أخي لم أطلب أي ابنة بعد من القرية، ولم أرَ أحداً يمكن أن أبدأ محادثتي معه بهذا الشأن والوقت طويل أمامنا للإقدام على هكذا عمل! قال: لا بد من قَيْمة الجرن خصوصاً وأنك

صارعت صهر القرية في الصباح وكنت قبلها قد رفعت طاولة كبيرة بيديك الاثنتين دون أن يهتز أي وعاء موجود عليها ولا أخفيك الأمر إن أخبرتك بأنه بعد النوم قد حاول عدّة أشخاص أن يرفعوا الطاولة كما رفعتها فلم يوفق أحد على زحزحتها، وإذا لم تُقدم على رفع الجرن فيكون كل ما صنعته قد ذهب هباءً. قلت: يا أخي لا بأس سأشترك بالمباراة ولكنني أجهل كل شيء عن هذا النوع من الرياضة. فقال لا بأس، حاول.

وصلنا إلى حقل يقع جنوبي قرية كفروة فرأينا عدة شباب يتبارون برفع الجرن منهم الناجح ومنهم الفاشل. زاد حماس الشباب وبدأوا يتغنون بالرفع إلى أن بقي شابان فقط رفعا أكبر الأجران الثلاثة الموجودة هناك.

نظرت إلى أثقل الأجران فرأيته بنظري خفيفاً، فسألتهم هل يوجد أكبر منه؟ اندهشوا لسؤالي وأجابوني، حاول أولاً بالموجود! تقدمت من أثقل الأجران ورفعته عن الأرض بسرعة ودون أن أتكئ على عصى كما فعل من هم قبلي، ولكن لم أتمكن من إبقاء الجرن ثابتاً على يدي عند رفعه عامودياً بل كان ينكفئ مع يدي مجرد أن تستقيم في الهواء، مع العلم بأن قيمة الجرن لا تحسب ناجحة ما لم تثبت في الهواء بعد رفعها. وقد رفعته عدة مرات ولم أنجح بتثبيت القَيْمة عمودياً.

ويظهر أن زميلي مارون كان يعلم شيئاً عن فن اللعبة

فقال لي: والله لو وضعت لك جرناً آخر فوقه لتمكنت من رفعه، ولكنك لا تحسن فن الرفع. فعليك عندما تمسك بقبضة الجرن في الداخل أن تحصر ذراعك بين حافة الجرن والقبضة وتجعل الجرن وكأنه تتمة ليدك.

وبالفعل ما إن أمسكت بالقبضة وحصرت ذراعي بينها وبين حافة الجرن حتى شعرت بأن الجرن قد فقد نصف ثقله.

رفعته المرة الأولى وأثبته عامودياً وهكذا دواليك أكثر من أربع مرات ورميته أرضاً في المرة الرابعة، وقلت للشباب تقدموا وارفعوه كما رفعته أنا وليس كما كنتم تفعلون في البداية. وهنا انسحب الجميع من الحقل ولم يبق سوى واحد لم أعد أذكر اسمه أتى إلى مارون وقال له: "يا أخي منهنّيك بصاحبك والله أتمنى من كل قلبي أن يصبح صهر البلد. وما عليه إلّا أن يطلب أي ابنة وأنا أزيل جميع العقبات مهما كانت". ولكن لم نعد إلى تلك القرية منذ ذلك الوقت ولم أعلم السبب. ويظهر أنني كنت منشغلاً بإحدى الفتيات التي أنستني كفروة وأنستني أيضا أجمل وأمتع فرصة في حياتي.

تركنا الحدود: تركنا الحدود وعدنا إلى بيروت بعد أن تمّت مؤامرة تسليم جميع المواقع التي كانت بيد الجيش اللبناني إلى الإسرائيليين كما أسلفنا سابقاً. ووصلت إلى مدرسة القتال في حارة حريك لمتابعة دورة ضابط.

احتدم الصراع السياسي، وبدأت، كما لا تزال، المتاجرة

والمؤاجرة بقضية فلسطين. فلم يمضِ كثير من الوقت بعد انقلاب حسني الزعيم في سوريا، حتى جرت محاولة انقلاب فاشلة قام بها الحزب السوري القومي بزعامة انطون سعادة عام ١٩٤٩. وكان نتيجة الفشل إعدام انطون سعادة ومعظم قادة الحزب آنذاك.

نقلي إلى مدرسة القتال "الحربية": كنت من الرياضيين الطليعيين، وما إن أنهيت دورة ترقية لرتبة صف ضابط حتى أرسل المقدم عزيز الأحدب قائد المدرسة آنذاك وطلب نقلي من القيادة.

تمنى قائد الفوج المقدم حسامي على القيادة عدم نقلي نظراً لأنني من المدربين المتميزين في الفوج خصوصاً وإنني كنت الأول في دورتي تقريباً، وفي كل المباريات الرياضية. ولكن القيادة رفضت التمنّي وأعادت التأكيد لنقلي إلى المدرسة الحربية باعتبارها مقراً عامّاً لأدق التدريبات ومن المفروض أن يكون أفرادها مميزين.

استُقبلتُ حذراً في المدرسة في بداية الأمر. ولم تمضِ عدّة أيام حتى استقطبت معظم عناصر المدرسة، خصوصاً وأن المقدم وضع ثقته فيّ، بحيث كنتُ مسؤولاً عن إدارة التدريب العنيف وعن الأجهزة والمعدات والأسلحة وصيانة المدرسة، وبالاختصار كنتُ العنصر الرئيسي في المدرسة، وهذا الوضع ساعدني كما قلت على استقطاب الجميع تقريباً

مما عُرف عني من صفات حميدة وبعيدة عن الأنانية وحب المعشر الخ... بعكس من يتولون هكذا مناصب فإن الجميع يناصبونهم العداء نظراً للتشابك والمسؤوليات في هكذا فروع.

تم نقلي إلى المدرسة أنا والرقيب محمود العياش، وكنا أقرب الناس لبعضنا خلقاً وصفات، وهكذا بدأت ألقنه بعض المبادئ الشيوعية، وما هي إلا فترة قليلة حتى أصبح من خيرة الرفاق ثقافة وكان سريع الإدراك وسريع البديهة أيضاً، وكان أيضاً محبوباً من الجميع لأنهم كانوا يعرفون علاقتي الحميمة معه وكانوا يتوسّطون لديه لقضاء بعض حاجياتهم التي كنت مسؤولاً عن تلبية معظمها، وما هو إلا القليل حتى كنا متفقين على خطة عمل نتقاسم تنفيذها لتأليف خلية شيوعية في المدرسة بعد أن أصبح العياش عضواً في الحزب.

كان العمل سرّياً جداً، خصوصاً بعد أن مُنع الحزب من مزاولة نشاطه العلني عام ١٩٤٨، وكان الاتصال مع أي رقيب أو جندي يتم إفرادياً فقط، وذلك تلافياً للوقوع في براثن الشعبة الثانية، وإمكانية إنكار انتمائنا للحزب الشيوعي واختلاق أي عذر لإنكار أي ادعاء ما دام ذلك الادعاء صادراً عن شخص بمفرده ومن دون شهود. وبهكذا أسلوب تمكّنا من تنظيم خليّتين، خلية في المدرسة تولّيت قيادتها مباشرة وخلية محمود، وكان كلٌ من أفراد الخليّتين لا يعرفون بعضهم بعضاً، إنما كانت تربط الجميع صداقة حميمة مميزة.

صندوق مالي مشترك: ولإدخال روح التعاون والمشاركة بين مدربي المدرسة[٣٨] اقترحت إنشاء صندوق مشترك يدفع كل مدرب منا مبلغ خمساً وعشرين ل.ل. شهرياً ويجري سحب أو اقتراع لإعطاء المبلغ بكامله لأحد المدربين. وهكذا يصبح لدى المدرب المعوز أو الذي وقعت عليه القرعة مبلغ محترم من المال حيث يستمر في الدفع إلى أن ينتهي الجميع من استعادة ما دفعوه تقسيطاً.

وليس هذا العمل وحده هو الذي كان يعمّق روح التعاون والمشاركة فحسب، بل كنت كلما ألمّت بأحد المدربين مصيبة، كنت أدعو الجميع للمشاركة مادياً كلٌ بقدر استطاعته حتى يجتمع لدينا قدر من المال نقدمه للمتضرر.

وهذه الطريقة كانت تتبع في الأفراح والأتراح، حتى أصبح الجميع يعيشون وكأننا بالفعل عائلة واحدة إذا تألم أحدها تألم الجميع معه. وقد تعطلت جميع المشاركات عام ١٩٥٨ عندما انضميت مع رفاقي إلى المقاومة الشعبية، وكان من بينهم مقصوف العمر محمود العياش.

محاضراتي المشبوهة لتلامذة الضباط: من المستحيل في ذلك الوقت أن تتحدث أي حديث وتتلفظ بكلمة شيوعية، وتحديداً في المدرسة الحربية ومع تلامذة الضباط. فكانت

---

(٣٨) جميعنا كنا مدربين كل باختصاصه، ما عداي، فقد كنت مسبّح الكارات.

صفتي كمدرب رياضي تساعدني كثيراً على أن ألقي محاضراتي ملغومة، عندما كنت أتكلم عن تاريخ الأولمبياد والاحتفالات العظيمة التي كانت تُقام للأبطال. وكيف أن الحروب عطلت الأولمبياد أكثر من مرة، وكم قضت على فتيان وشباب كان يمكن أن يكونوا من الأبطال. لكنني بقدر ما كنت أندد بالحرب كنت أؤكد على منافع السلام وحسناته.

وفي إحدى المرات قررنا مع الخلية أن أضع للتلامذة النتائج السلبية للحرب على أساس أن لا ناقة لنا ولا جمل. ووافقنا على أن يقتصر الشرح على أن الحرب هي فقط لإعادة اقتسام الأسواق في العالم بين الدول الكبرى.

وكان التلامذة بمعظمهم يميلون إلى المناقشة خصوصاً إذا كان الدرس ملاكمة أو مصارعة حرة أو تدريباً عنيفاً، فكانوا في كل مرة يكون فيها دوري في التدريب يطرحون موضوعاً سياسياً لمناقشته. ولكنني انتبهت لاستدراجي إلى هذه الناحية، وعدنا أنا ومحمود لاستعمال الأسلوب المطبق نفسه في مدرسة القتال أي الاتصال الفردي في كل تلميذ.

لم يتمكن العياش من جلب أي تلميذ وقد تمكنت من تأليف خلية في المدرسة الحربية بالإضافة إلى خلية مدرسة القتال، وكان فؤاد عوض يعتبر صديقاً مقرّباً من أفراد الخلية. وللأسف لم يبق أي ضابط من تلك الخلية إلا وترك الجيش بعد أن فقدوا ثقتهم على ما أعتقد بإنشاء جيش وطني، وقد انقطعت عن الاتصال بهم منذ عام ١٩٥٨ وكانت التخبّطات

في الحزب الناجمة عن القيادة الفردية هي السبب الرئيسي في فركشة معظم تطلعات حزبنا، ويا ليتها اقتصرت على الفركشة فحسب بل ذهب ضحية هذه القيادة الفردية كثير من الرفاق الكبار، خصوصاً المثقفين منهم.

وهكذا بقيت في المدرسة الحربية ما يقرب من العشر سنوات وقد تألفت ثلاث خلايا، اثنتان في مدرسة القتال وواحدة في الحربية. وكما قلت فإن سوء التنظيم وعدم الإقدام بجرأة على الاتصال بعناصر الجيش الذي هو بمعظمه وحتى ضباطه من الطبقات الوسطى وما دون.

الشعبة الثانية ومضايقاتها: بدأت "الشعبة الثانية" تدرك الخطر من نشاطي في صفوف الجيش وتلامذة الضباط في الوقت الذي أصبحت الحلقة الرئيسية التي تصل تنظيم الجيش بالحزب. وكانت التهديدات حيناً والإغراءات أحياناً، وكانوا في جميع محاولاتهم يبؤون بالفشل، لأن جميع محاولاتهم لم تكن ترتكز على شيء من الصحة، إذ إنه لم يكن لديهم أية مستمسكات. وبعد أن انتقلنا إلى العهد السرّي جداً كما نسميه آنذاك، لم يتمكنوا من إيجاد أي شيء ضدنا سوى الاستنتاجات. وقد كانوا يضغطون عليَّ بواسطة أحد أقربائي الذي كان يحتل منصباً ممتازاً بالشعبة دون أن يعرفوه بأنه شيوعي سابق ومنظّم. وفي كل محاولة كنت أنكر بأنني لا أقوم بأي عمل حزبي وأتحداهم بأن يثبتوا ذلك. ولكن بقيت

الاستنتاجات فارطة دون أي إثبات، بالرغم من أنني كنت أوزّع المطبوعات لثلاثة عشر تنظيماً في الجيش بدقة متناهية، ولم يتوصّل أحد لمعرفة كيفية وصولها إلى القطع، لأن بعضاً منها وقع بين أيدي بعض العملاء دون معرفة مصدرها. فكنّا مثلاً نضع النشرة تحت مخدة أحد العملاء فعندما يجدها يبدأ بالسؤال عن واضع الورقة، فيتلقاها أحد الأصدقاء مثلاً أو أحد الرفاق الذي يكون بانتظارها، ويأتي مندهشاً ويسأله عن مضمونها ويأخذها منه ويتلوها بصوت عالٍ حيث كان يجتمع بعض العسكريين ويسمعون تلاوة النشرة. وما إن ينتهي منها الرفيق، حتى يعيدها لصاحبها قائلاً: "يخرب بيتك خدها للضابط وشوّوفو إياها، بلكي فيها شي ممنوع والله أنا ما فهمت منها شي شو قصة سلام وعمال وفلاحين ومدري شو". وهكذا كان رفاقنا في معظم الأحيان يستهبلون كأسلوب وينجحون كنتيجة. ولم ينكشف أسلوبنا أبداً مما حيّر عناصر المكتب الثاني، وكانوا في كل مرة يفشلون في معرفة مصادر النشرات. لقد كانوا يلجأون إليّ بالترغيب مراراً وبالترهيب أحياناً ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود؟

نقلي إلى طرابلس: فكروا بالتخلص مني من بيروت، فنقلوني إلى مدرسة القتال في طرابلس لتدريب تلامذة مكتب الدراسة للترقية لرتبة عريف ورتبة رقيب، وكم كانت فرحتي كبيرة وفرحة رفاقي عندما التقينا بما لا يقل عن خمسة

شيوعيين وكانوا من خيرة القادة الحزبيين في الجيش. وكان أبو الشيوعيين في الجيش الرفيق رشيد السيّار والرفيق بطرس باسيل والجندي داود الأسمر وأبو شاهين، ولم أعد أذكر بالضبط أولئك الرفاق، لكن بالرغم من هذا النقل لم يختل أبداً توزيع المناشير، حيث كنت أنزل إلى بيروت وفي الوقت المحدد التقي الرفيق اغباش ناقل النشرات؛ هذا الرفيق الذي لم أعرف أحداً من جميع رفاقنا بالحزب دقيقاً بمواعيده كما هو. إذ إنه في إحدى الليالي وكان المطر منهمراً بشكل غريب وكان موعد لقائي مع الرفيق اغباش قرب صيدلية الظريف بالزيدانية. وصلت المكان ولا يزال المطر ينهمر والأرض تظهر ليلاً وكأنها نهر. فقد كنت أنا الجندي المنتعل حذاءً عسكرياً ومعطفاً ذا قبعة، بالإضافة إلى ثوبي العسكري وألبستي الداخلية، ومع كل ذلك كنت أنتفض من شدّة البرد والصقيع.

ذهبتُ إلى الموعد وأنا شبه متأكد بأن الرفيق اغباش سوف لا يحضر، لأنه كما كنت ألاحظ بأن هندامه، أي لباسه قديم جداً، وبالتحديد حذاءه الذي رممه أكثر من أربع مرات، وهذه لم تكن حال الرفيق أغباش فقط بل كانت حال معظم قادة الحزب خصوصاً الكوادر منهم. فكنت أُكبر فيهم صمودهم وعدم مبالاتهم للفاقة التي كانوا يتحملونها، هذا بالإضافة إلى الملاحقات والمطاردات والسجون والحياة غير المستقرة لهم ولعائلاتهم.

قلت كنت متأكداً بأن الرفيق أغباش سوف لا يحضر لأن لباسه لا يساعده على التغلب على طقس ماطر وبارد كهذا. وأنا مستغرق في التفكير ليس بوضع اغباش المعيشي بل بوضع كل رفاقنا الكوادر آنذاك، ولم اشعر إلا وشخص يكلمني قائلاً: مرحبا يا رفيق؟ قلت مندهشاً: أهلاً وسهلاً يا رفيق، والله لم أكن متأكداً بأنك ستحضر بهكذا طقس نظراً لأن لباسك غير مناسب. قال بلغته العربية الأرمنية: "يا رفيق، الشيوعي لا يقف أمام المصاعب إنما عليه أن يعرف جيداً كيف يتخطاها". وكم أفادتني تلك الحكمة التي رافقتني طيلة حياتي الحزبية، وكم ساعدتني بالفعل على تخطي المصاعب.

أمر النقل ومقابلة جنادري: كان يرافق أمر نقلي إلى طرابلس أمر آخر وهو وجوب المرور على وزارة الدفاع لمقابلة النقيب جنادري.

نقلتني سيارة جيب مع جميع أمتعتي وأوقفتني قرب وزارة الدفاع المتحف، وكانت بانتظاري شاحنة ذاهبة إلى طرابلس ورتيب ينتظرني ليقودني إلى مكتب النقيب جنادري الذي كان غير معروف مني.

دخلتُ المكتب، وبعد أن أدّيت التحية العسكرية وقف لملاقاتي لمنتصف مكتبه، وهذا العمل زيادة في التكريم بالنسبة لضابط وصف ضابط، وشدّ على يدي مصافحاً

وأجلسني على أحد المقاعد بقربه. وبدأ حديثه قائلاً: "أنت لا تعرفني يا إسبر، وأنا أعرفك، فقد كنّا سوية في الفوج الثالث وحاربنا سوية في المالكية، وتعرفني بأنني لا أكذب ولا أحب الكذب مطلقاً، لذلك أقول لك بكل صراحة بأنني أعرف بأنك شيوعي ليس من التقارير بل من حياتك مع رفاقك وتأكيدك على المطالبة دائماً بأشياء تنقص العسكريين. وبدك تعرفني صحيح أسأل عني مصطفى العريس فأنا كنت عامل مطبعة وشيوعياً قبل منك بس هلق نحن بالجيش وما لازم يكون عنا حزب غير الجيش. عم تفهم عليي، ما لازم يكون عنّا حزب غير الجيش! وإذا ما بتسمع مني يا إسبر ستندم وإذا تحقق لي بأن الجيش أصبح حزبك الوحيد فكن أكيداً بأنك ستصبح ضابطاً عما قريب لأنك هلق لست برتبة ضابط عادي فحسب بل يمكنك أن تكون ضابطاً كبيراً وممتازاً".

شكرت له اهتمامه بي وأكدتُ له بأن حزبي الوحيد هو الجيش (لم أحدد له أي جيش)، وأكدت أيضاً بأن إتقاني وتنفيذي الجيد ليس بدافع الحصول على رتبة أعلى، أو للترقية لرتبة ضابط، بل إن قناعتي بصحة المهمة التي يناط بي تنفيذها هي الدافع الوحيد. وخلاف ذلك كن على ثقة لا مطامح شخصية لي أبداً سوى جيشي. وطبعاً هنا كنت أعني جيش العمال والفلاحين الذي يتألف الجيش النظامي منهم.

اقتنع الضابط بكلامي وقال إن الشاحنة بانتظارك فاذهب

إلى طرابلس، وإياك أن تخالف وصاياي لأنك ستهدم مستقبلك، والذين يقومون بمراقبتك هناك كثر، وبالفعل كانوا كثيرين إنما تقاريرهم كانت قليلة.

في مدرسة القتال-طرابلس: كانت مناسبة عظيمة عندما تمّ نقلي إلى مدرسة القتال في طرابلس لتدريب وتعليم التلامذة المنوي ترقيتهم لرتبة عريف ولرتبة رقيب.

كانت المناسبة عظيمة ليس لأنها جمعت عدة رفاق عسكريين مجربين، بل كذلك جمعت عناصر من مختلف الفرق، وهذا ما وفر لنا إمكانية العمل بين مختلف أفراد قطع الجيش وقد نجحنا إلى حد بعيد في تكتيل جو عطف عسكري حولنا كمدربين أوادم كما يعرّف عنا ظاهرياً وبعضهم كان يتناقل الحديث سراً، ومنهم بعض الرفاق غير المعروفين. ويقولون "هؤلاء شيوعيون يا أخي ما بيهمهم غير العمال والفلاحين". وكانت هذه البساطة في التعبير التي تشبه الهبلنة أحياناً وتعكس انطباعات جيدة عند معظم المتدربين باعتبارهم أبناء عمّال أو فلاحين. ولم تكن تثير أي شبهات بالنسبة لناقلي هكذا أحاديث.

لم يمض على وجودي أسبوع أنا ومحمود العياش حتى تألف جو شعبي كبير حولنا نظراً لعلاقاتنا الإنسانية مع الجميع وباعتبارنا مدربين لفنون المصارعة والملاكمة والتدريب العنيف، وكانت تنصبّ معظم تعليماتنا على الرياضة ومنافع

الرياضة وما يلزم للرياضة من مناخات واستقرار وعالم لا حروب فيه ولا غزو حتى يتسنى للرياضيين البروز وتطوير وتعميم الرياضة، باعتبارها أفضل الوسائل لإطالة عمر الإنسان وتحصينه ضد مختلف الأمراض. وبهذا الأسلوب كنا نبثّ الدعاية من أجل السلام دون إثارة أية شبهات من عملاء المكتب الثاني والذين كان عددهم وفيراً بين التلامذة. مع العلم بأن الدعاية من أجل السلام كانت المهمة الرئيسية لحزبنا في تلك الفترة.

لم يتمكن عملاء الشعبة الثانية من إيجاد أي مستمسك ضدي، لأن العياش كان غير معروف بأنه شيوعي إنما بدأوا باستفزازي، فمثلاً: أتى المقدم هنري غازي[٣٩] ورآني وأنا أدرّب فريق كرة القدم مرتدياً قميصاً أحمر، تجاهلتُ قدومه فنهرني بعض التلامذة الذين أوعزوا إليّ بقدوم المقدّم فما كان مني إلّا أن وضعت التلامذة في وضعية التأهب، وتقدمت باتجاهه معلناً عدد المتدربين ونوع التدريب والوقت المخصص للمادة. وهنا صرخ بي دون أن يمنح التلامذة فترةً من الاستراحة. ما هذا القميص الذي ترتديه فإذا كنت شيوعياً فهنا لا مجال للشيوعية أبداً. قلت وأنا لا أزال في وضع التأهب مع التلامذة: "رويدك يا سيدي: إنني من المشايخ والشيوعية للعمال والفلاحين، ولا علاقة لي بها، وقميصي

(٣٩) كان مديراً لمكتبَيْ الدراسة رقم ١ و٢ .

الأحمر ليس علماً شيوعياً إنما هو اللباس الرسمي لفريقي في كرة القدم في المدرسة الحربية ولا علم لي بأن أفراد فريق المدرسة الحربية كلهم شيوعيون". صرخ: "بلا استغلال مواقف"، وكأنه شعر بأنني من خلال جوابي أردت أن أوضح ما معنى الشيوعية، فقال: "إنني سأحقق بالموضوع وإذا تبين لي عكس ما تقول، وأن فريق الحربية لا يرتدي القميص الأحمر ستعاقب وسأطلب تخفيض رتبتك". أجبت: "لا علاقة لي بما تنوي عمله يا سيدي فهل تأمر بأن أضع التلامذة بوضع الاستراحة؟ وتسمح لي بمقابلتك في المكتب؟"، أجاب: "ضع الصف في وضع الاستراحة أما مقابلتك لي في المكتب فأنا أحددها وسأطلبك عندما يتم التحقيق في ادعائك". وكنتُ كلما أراه ابتسم ازدراءً لأنه لم يطلبني ولم يناقشني منذ ذلك اليوم.

جلسة مع الرفاق: كنا نجتمع، معظم الرفاق، وكانوا جميعهم من رتبة عريف أو رقيب. في الغرفة المخصصة لمدرّبي مدرسة القتال، ويصدف أن نجتمع جميعاً ما عدا "أبو شيوعيي الجيش" الرقيب أول رشيد السيّار. وهذا التأخير ليس من عادة الرفيق رشيد الذي كان يحرص على الوقت كشيء ثمين جداً ويعتبر التقيد في الوقت محكاً لكل رفيق أو مختبراً كما كان يقول.

اقترح الرفيق بطرس باسيل إرسال جندي لاستدعائه من

الغرفة، واستدعيت أول جندي رأيته وقلت له: اذهب ونادي الرقيب أول سيّار وقل له بأن يحضر إلى غرفة مدرّبي الرياضة. فأجابني "يا سيدنا ما بعرف الرقيب أول يللي عمال تقللي عنو؟" وهنا تنطّح الرفيق بطرس باسيل للتوضيح قائلاً للجندي: "إذهب إلى غرفة صفوف الضباط وعندما ترى وجه صف ضابط أبشع من وجهي يكون هذا هو الرقيب أول سيّار". وبالفعل ذهب ذلك الجندي وأحضر رشيد السيار دون أن يكون لديه أي توضيح سوى إرشادات بطرس باسيل، وما إن وصل الرشيد حتى ضحكنا جميعاً مما أثار استغرابه، فاستوضح السبب: فأخبرناه السبب مما جعله يشاركنا الضحك قسراً باعتبار أن وجهه لم يكن أبشع من وجه بطرس.

وهكذا كان الشيوعيون يعيشون في الجيش كعائلة واحدة متماسكة توزع خبرتها فيما بينها، تستلهم ما تهضمه من النشرات التي لم تنقطع أبداً على الرغم من انتقالي إلى طرابلس. كنا نساعد بعضنا بعضاً مادياً ومعنوياً في الدروس، في الرياضة في الأكل، وفي المنامة وفي كل ما يتعلق بحياتنا العسكرية القاسية، فكان تضامننا وتعاوننا يجعلنا لا نشعر بأي صعوبة أو شقاء. ولكن كان هاجسنا الاتصال بالحزب وتنظيم علاقتنا مع الحزب لا من خلال المنشورات والمصاري فحسب بل من جهة شرح النظريات، وعندما توصّلنا إلى هذا الهدف لم يعد لتنظيمنا بالجيش أي فاعلية، باعتبار أنه صدر

قرار من الحزب بإلحاق كل منظمة عسكرية في المنظمة الحزبية المتواجدة في منطقتها، مع البقاء على سرية وجودها ومنع الاتصال بالمنظمة العسكرية إلا بمسؤول واحد فقط.

أقول بصراحة إنّ العمل معنا في ذلك الوقت يشكل برأيي جريمة كبيرة، لأنه حتى عندما خاننا دانيال خوري وأعطى أسماءنا إلى الشعبة الثانية لم تتفرق المنظمة وتصاب أعمالها بالشلل كما حصل لها عندما تسلم قادة من الحزب تنظيم الاتصال بنا وتطويرنا نظرياً.

من تلك الأعمال المؤذية: كان المسؤول عن رفع مستوانا النظري أحد الرفاق القادة "ح.ق"، وقد انتخبنا أنا والرفيق داود للدورة الأولى، وأعطانا الرفيق المذكور مقطعاً في "أسس اللينينية" على ما أذكر لدراسته على أن يقدم كل منا تفسيراً منفرداً لما استوعبه من القراءة.

مضى الأسبوع ونحن نقرأ ونفسر ونعطي أمثالاً يدوّنها كل منا على ورقة، وكنا جد فرحين ببدء ذلك العمل الثقافي، حيث كنا ننتظر يوم اللقاء على أحر من الجمر نظراً لما كنا نأمله من الحصول على سلاح نظري جديد سنضعه بين أيدي رفاقنا، وكذلك ما كنا نأمله في التخلص من القرارات غير المفهومة، والتي كنا في معظم الأحيان نعجز عن توضيح مضمونها.

أخذ الرفيق يطرح الأسئلة فيجيب كل منا حسب ما

استوعبه في الأسبوع الدراسي. وقد كانت أجوبتي في معظمها صحيحة بعكس الرفيق داود الذي كان بعيداً نوعاً ما عن الجواب الصحيح بالنسبة إلى بعض الأسئلة. وهنا انتفض الرفيق المثقف وبدأ التلفّظ بكلمات نابية أدهشتني. ثم تركنا وغادر المنزل السرّي الذي كنا نجتمع فيه، ومنذ ذلك الوقت لم نعد نتلقّى أي تثقيف خصوصاً، أنه ترك مكان الاجتماع دون أن يحدد موعداً جديداً للقاء، ولم يحدّده لاحقاً رغم تكرار مطالبتنا بذلك.

عدنا إلى إلحاحنا لإرسال من يثقفنا، وأذكر بأن الذي كان يتصل بنا في ذلك الوقت هو يوسف خطار الحلو. فكنا نحن نطالبه بالتثقيف، وهو يطالبنا بزيادة التبرعات باعتبارنا عسكريين وعندنا على الأقل رواتب مؤكدة كل شهر.

وفي إحدى المرات كنا نطالبه أين أصبح المثقف دون أن نذكر ما حدث لنا معه، فأجابني يا رفيق عم تقرو في سبيل سلم دائم؟ أجبت نعم! عم تقرو نشرة تاس[٤٠] أجبت نعم، عم تقرو "نضال الشعب؟" أجبت نعم. عم تقرو "الطريق" أجبت نعم نعم يا عمّي عم نقرا كتير بس مش عمنفهم. فقال: إيه لكن يا رفيق لو يقوم لينين من القبر ويجي لعندكم مش راح تتثقفوا.

أذكر أيضاً بأنهم أرسلوا لنا الرفيق ارتين مادويان لإلقاء

---

(٤٠) نشرة تاس كانت تعمم على الآلة الكاتبة.

محاضرة تثقيفية، وكان الاجتماع في بيتي بالغبيري فحضر الرفاق جميعهم كالعادة لأنه من المستحيل أن يتغيّب أحد عن الاجتماع. وكان الرفيق قد بذل جهداً عظيماً لتوضيح أفكاره باللغة العربية، ولكن عبثاً، فكنّا مضطرين مراراً لتوقيفه والاستفسار عن معنى معظم الكلمات التي كان يُلقيها.

ذهب الرفيق ارتين والعرق يتصبب منه مع أن الطقس كان شتاءً وصقيعاً وما إن ابتعد عنا حتى قلت: يا رفاق خلينا عاغبانا ونفهّم بعضنا، يا عمّي شوها الحزب ما عندو ولاد عرب يبعتلنايّاهم حتى يبعت لنا رفيق أرمني". وأعتقد أنه عند هذا الحد انتهت علاقاتنا الثقافية بالحزب حتى انضمامي لثورة عام ١٩٥٨.

مقابلة قائد الجيش فؤاد شهاب: طلبت مقابلة قائد الجيش لأستفسر عن الأسباب لعدم ترقيتي، وطبعاً كان بناءً على قرار اتخذته قيادة بيروت التي كانت مسؤولة عن قيادة العمل في الجيش، لأن نتيجة المقابلة ستكشف لنا ما هو الموقف العام من ترقية الشيوعيين في الجيش خصوصاً وأن ما يقرب من الـ ٢٥ صف ضابط ترقياتهم متوقفة، بالرغم من معرفة قادتهم وبإقرار منهم على أنهم من أقدر الرتباء...

أُدخلت لعند قائد الجيش وكان جالساً بقربه العقيد عزيز غازي قائد المدرسة الحربية آنذاك، وما إن دخلت حتى سأله قائد الجيش بالفرنسية. هل هذا هو المصارع الأحمر؟ أجاب

بالفرنسية: نعم يا سيدي الجنرال أجبته أنا أيضاً. نعم يا سيدي أنا المصارع الأحمر وكل رياضي أحمر ومن لا يحمرّ أثناء الرياضة يكون دمه فاسداً، وفاسد الدم لا يصلح أن يكون رياضياً حتى ولا جندياً في جيش الأمير فؤاد شهاب.

وهنا اندهش لجرأتي ولجوابي غير المتوقع وصار كل منهما ينظر إلى الآخر بحيرة وارتباك إلى أن قال لي قائد الجيش: يا ابني لماذا طلبت مقابلتي.

قلت: يا سيدي إن أوراقي أمامك وتقييم رؤسائي مدوّن فأرجو يا سيدي أن أعلم ما هو سبب عدم ترقيتي.

قال: أنت شيوعي وأنا اكتفيت بعدم ترقيتكم وليس بطردكم كما فعلت مع القوميين السوريين. قلت: يا سيدي تكلمت بالجمع وأنا أتكلم عن نفسي ولا أعلم بوجود غيري ممنوع من الترقية، إنما أعلم بأن دانيال خوري وغسان... رفعا تقريراً للقيادة بأنني منظم شيوعياً أنا وأشخاص تربطني بهم صداقة بريئة إنما متينة، وقد طمعوا بالترقية ولا يُخفى على سيادتكم بأنهما ترقّيا لرتبة أعلى، ولكنهما بعد قليل طردا من الجيش لأنهما خانا المهمة الموكولة إليهما إذ سرقا الذخيرة وباعاها لمدنيين، فهل يمكن أن نُدان من أجل إفادة ناس سرقوا ذخيرة الجيش؟

قال طيِّب: وقصة الصابون والرواتب والفوارق بين الجنود والضباط مين عمبيحرِّض العسكر عليها.

قلت: سيدي كنتُ أطالب رؤسائي المباشرين وهذا ما

ينص عليه قانون الجيش: وأنا من ضمن حرصي على الجيش، وإذا قلت لرئيسي شو عم بيحكو العسكريين بكون مش مليح؟ بالعكس المفروض أنو نرفع لرؤسائنا دائماً ما يثير نقمة العسكريين للعمل لإزالتها.

قال: يا ابني هيدي الشيوعيي.

قلت: فإذا أنت شيوعي يا سيدي لأنو ما إجا حدا لعندك إلا ما انصفتو.

وهنا صرخ بي قائلاً: أخرج من هنا وسوف ترى. Et nous allons voir.

خرجتُ من عند قائد الجيش وأنا لا أعي نفسي أين أصبحت وماذا ستكون النتيجة، خصوصاً وأن المعروف عن عزيز غازي أنه من أكثر الضباط الأشد قساوة في الجيش. وقلت في نفسي بأنه سيعاقبني، وسوف لا أرى الترقية في حياتي، وسوف لا أتزوج لأنني كنت قد ربطت قضية زواجي بترقيتي لأن راتبي بدون ترقية لا يسمح لي بإعالة عائلتي، مع العلم أن معظم أقاربي وأهلي كانوا إلى جانب من يحرّضهم بالشعبة الثانية باستعمالهم كأداة ضغط عليّ للابتعاد عن الشيوعية وإعطاء أسماء الرفاق، مقابل الترقية لرتبة ضابط وإعطائي مخصّصات تساعدني على الحياة مرفّهاً وسعيداً ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل وكنتُ كلما ازداد الضغط عليّ ازددت تمسكاً بعقيدتي وعناداً في تطوير استيعابي لما يصلني من منشورات لرفع مستواي الثقافي.

الزواج: نقلي إلى طرابلس قرّبني من بلدتي عندقت، وكان الاتصال مستمراً مع أقربائي وأصدقائي، وكذلك الرفاق هناك الذين لم يكونوا يعرفون عن الشيوعية شيئاً سوى أنها حزب العمال والفلاحين، وأنها ستصادر أملاك الإقطاعيين وأموال الرأسماليين وتوزعها على الفقراء. وهذا الفهم البدائي للشيوعية كان كافياً لجعل بلدتي عندقت تعطي جميع أصواتها سنة ١٩٤٧ للرفيق نقولا الشاوي عندما ترشح للانتخابات، باستثناء صوت واحد هو صوت وحيد نصّار مختار القرية وقد أصبح معزولاً مرذولاً بعد تلك الانتخابات.

وهذا الاتصال مع أهل القرية ومع من يقطن منهم في طرابلس جعل مشروع الزواج مطروحاً بشكل جدي، وكان والدي لا يحدثني في كل مرة إلّا بالزواج. وكان يعرض عليّ أحسن البنات في القرية، ولكنني تعرفت على معظمهن، وكنت كلما عرضت أفكاري الشيوعية على إحداهن كانت لا تفهم مما أقوله شيئاً، وأشعر ببلادة ذهن من معظمهن فأعدل عن الاستمرار في العلاقة والتعرف عليهن مما جعلني في معظم الأوقات أعزف عن الزواج لولا إصرار الأهل والرفاق.

وكان أحد أقربائي يقطن طرابلس، وكان دائماً يقول بوجوب الزواج، وإن بقربهم إحدى البنات من آل جعجع مثل القمر وهي عاقلة ومهذبة وجميع ما يحيط بها تقريباً من الشيوعيين. وتشاء المصادفات وأنا أقوم بواجب الزيارة لقريبي

هذا، فتمر تلك الفتاة فينهرني قريبي ويقول لي هذه هي الفتاة التي أخبرتك عنها. تأملتها ملياً وبالفعل كانت كما وصفها لي فتاة بيضاء خدودها كالورد شعرها أسود ناعم طويل يتدلى على ظهرها مجدولاً. تهبط درج بيتهم وتبتسم ابتسامة طيبة ناعمة كابتسامة الطفل تماماً ولا تزال ابتسامتها حتى الآن كذلك.

مرت بنا وألقت التحية متابعة طريقها، وما كادت تبتعد حتى طلب قريبي رأيي فيها، وكانت بالفعل قد أخذت في نفسي موقعاً لا بأس به للوهلة الأولى، إنما قلت يجب الاتصال أو بالأحرى التعرّف على أهلها لنرى رأيهم، وأنا مبدئياً موافق على المشروع. فقال عمي: أهلها عليّ، ولكن عليك الانتباه لئلا يعرف والدها بأنك شيوعي إنما خالتها زوجة أبيها[٤١] فهي شقيقة المرحوم فريد الأشقر قائد شيوعي من الشمال ويمكنك التكلم معها بكل حرية.

وهكذا تم اللقاء مع ولية الأمر مدام جعجع دون علم من عمي فأخبرتها قصتي وأنني شيوعي وملاحق، وقلت لها بأنني كنت أنتظر ترقيتي وتجديد عقد تطوعي، ويقال لي: بأنه

---

(٤١) كانت والدة زوجتي متوفاة وعمي متزوجاً مرتين، فكانت الزوجة الثانية أشد حناناً وعطفاً على دلال من أولادها، ولم أشعر يوماً بأنها كانت تحب بناتها أكثر من أبناء الزوجة الأولى بحيث أنها كانت خالة نادرة وليست كالخالات.

سيوافق عليهما، إلا أنه يمكنني الزواج قبل الموافقة على ترقيتي وعلى عقد تطوعي، وحتى ولو قبل تجديد تطوعي، فبدون ترقية لا يمكنني القيام بأعباء عائلة في راتبي الحالي.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى أتت الموافقة على ترقيتي وعلى عقد تطوعي، فحملت البشرى إلى العروس وأهلها وحددنا موعد الزواج وبدأنا بشدّ الروابط التي كانت قد فترت نوعاً لأسباب عائلية عديدة ومتنوعة.

وهكذا تم زواجي في السادس من أيار عيد الشهداء، وللقارئ أن يعلّق ما شاء له التعليق على المناسبة، مع أن المقارنة بين الزواج والاستشهاد قريبة نوعاً ما. ففقدان الحرية في أي مجال لا يقل عن الاستشهاد بالنسبة لأي رجل شريف وحر.

تم الزواج مع العودة إلى بيروت: لم أستغرب الموافقة على ترقيتي وتجديد تطوعي، لأنني كنت على يقين بأن الأشخاص الذين تعاونوا مع المكتب الثاني، سوف لا يكتبون عني شيئاً يضر بي. وكنا قد اجتمعنا مع الرفاق ودرسنا نتيجة مقابلتي لقائد الجيش فؤاد شهاب وقد مضى عليها ما يقرب من الشهرين دون عقوبة، هذا بالإضافة إلى الموافقة على ترقية جميع الرفاق تقريباً، والموافقة أيضاً على تجديد عقد تطوّعي لمدة ثلاث سنوات.

وكنت قد طرحت في الاجتماع توقّعاتي عن نتيجة المقابلة ولم أدرِ لماذا كنتُ متفائلاً بالنتيجة، إذ إنني كنت واثقاً من أن فؤاد شهاب سينصفنا، وثقتي هذه ناتجة عن مراقبة مسلكية لهذا القائد النظيف، لأنّ ما من جندي اشتكى له إلا وأنصفه.

كذلك أخبرت الرفاق بأن معظم الأشخاص الذين كلفوا بمراقبتي أخبروني عن مهامهم، منهم المعاون أول كامل الدرزي وكذلك الضابط الذي كان يرأس الشعبة الثانية في الشمال الذي استدعاني وأوصاني بالاحتراس لأنني مراقَب، وقبل نقلي إلى بيروت أخبرني ذلك الضابط بأنه رفع تقريراً لرؤسائه يؤكد عدم قيامي بأي نشاط شيوعي في طرابلس.

وهكذا عدت من طرابلس "صوفتي بيضاء وليست حمراء" كما كانوا يصنفونني، وكذلك ترقيتي جاهزة وعقد تطوعي مجدد والعروس جاهزة.

تم تجهيز الغرفة الوحيدة مع مطبخها بسرعة، ولم يكن لديّ من المال سوى ستمائة ليرة لبنانية استدانها والدي من خالي عبدو. فتم الزواج في السادس من أيار كما أسلفنا عام ١٩٥٠. وهكذا أصبح هناك بيت جديد للحزب

١

تعليق: لا بد للشيوعي من الزواج، فوجود بيت وزوجة تهتم به يسهّل على المناضل كثيراً من المتاعب والمشقات. ولكن شرط التفاهم المسبق وتوضيح الطريق الخطرة للزوجة المرتقبة قبل الزواج.

وهذا الشيء خبرته من تجربتي الشخصية، صحيح أن زوجتي لم تكن شيوعية في بادئ الأمر، إنما كانت على اتصال بالشيوعيين، وترى أعمالهم وتؤيدهم، وبالرغم من أنني كنت قد تحدثتُ معها عن مبادئي وعما ينتظرها من صعوبات ومشقات، فوافقت على الزواج مني على الرغم من

علمها بدخلي المحدود وبالرغم من أنه تقدم للزواج منها أناس ميسورون وميسورون جداً، كما تقدم لها بعض العسكريين الأعلى رتبة مني، وكانت ترفض الجميع ولم ترض بالزواج إلا مني فكانت دائما تشترك مع خالتها بالثناء على الشيوعيين وتصفهم بأنهم أوادم. وأعتقد بأن هذه القناعة المسبقة من زوجتي ساعدتني في تخطي الكثير من الصعاب، وقد رافقتني ولا تزال ترافقني وتساعدني على اقتحام جميع الصعاب، ولم تكن تتذمر إلا لماماً وعندما يأتيها العملاء ويهدّدونها باغتيالي ما لم تساعدهم عليّ. فكانت في كل مرة تنكر بشدة أي علاقة لي بأي نشاط خارج النشاط الرياضي وسآتي على ذكر بعض ما قامت به هذه الرفيقة الأمينة الصامدة البطلة.

لذلك أعود للتأكيد بأن كل مناضل لا يوضح المخاطر والصعاب لشريكة حياته ويعرف بأنها مقتنعة فكرياً وموافقة طوعياً على المشاركة في سلوك الطرق الوعرة التي يسلكها المناضل، وبالتحديد الشيوعي، فإنه سوف يعاني الكثير من الصعوبات والمتاعب، لأنّ الزواج إن لم يكن مبنياً على هذه الأسس الواضحة للنضال سيفشل، هذا إذا لم تنقلب الزوجة على تطلعات زوجها وتحرفه عن طريق النضال.

وكم من الرفاق وصلوا إلى هذه النتيجة؟ فتاريخ حزبنا مليء بحدوث حالات كهذه.

العودة إلى بيروت: بعد العودة تمّ الزواج، وأضيف بيت

جديد لبيوت شيوعيي الجيش، وعاد العمل إلى فرقة مدرسة القتال التي كان قد بدأ الوهن يدبّ في عملها نظراً لبعدنا نحن الاثنين، أنا والعياش عنها، ولأن التنظيم السرّي كان يقضي بعدم الانفلاش وعدم تعرّف الفرق بعضها على بعض.

استأنفت الاتصال برفاقنا العسكريين في بيروت، وكنّا كما قلت نجتمع، مسؤولو الفرق فقط، دون أن يعمل أي من العناصر عند الآخر. وكانت المعرفة تقتصر على العدد الموجود عند كل رفيق دون معرفة الأسماء.

بدأ التشديد على مكافحتنا وأوقفوا الترقيات مجدّداً، وأعادوا أساليب الترغيب والترهيب، وكان كلما تغير رئيس للمكتب الثاني تُستأنف الملاحقات بشدّة أكثر لأنها كانت تجري على أساس الشبهات فقط، كوجود نشرات شيوعية غير معروفة مصادرها، كتابة على جدران الثكنة من الداخل، أو الخارج، وكذلك الكتابة على جدران بيوت الخلاء، النقمة على الفوارق بين رواتب الجنود والضباط، وكذلك التأمينات الاجتماعية والمطالبة بتحسينها.

اشتد النضال الوطني ضد التجديد للشيخ بشارة الخوري وانعكس هذا النضال على الجيش فشدّدنا التعاون مع العناصر الدرزية[٤٢] دون أن نتمكن من التعاون مع أي من الطوائف الأخرى. وكانت تعليمات قيادة الجيش تشدّد على عدم

---

(٤٢) تمكنا من التعاون مع دروز جنبلاط نظراً لترؤسه الجبهة الاشتراكية ضد بشارة الخوري مع كميل شمعون وعبدالله الحاج.

التدخل بالسياسة مطلقاً حيث كان الطرد هو أقل عقوبة تنزل بمن يتعاطى السياسة، وخصوصاً القوميين السوريين. فمجرد وشاية فقط بحق أحد العناصر من هؤلاء كانت تسبب له الطرد فوراً دون أي مراجعة. ولكن بالرغم من كل التدابير لم يتمكّنوا من إيجاد أي مستند ضدنا.

ويظهر أن اشتداد النضال الوطني ضد "التجديد" لبشارة الخوري، قد بلغ قيادة الجيش مما جعل أو بالأحرى مما دفع قائد الجيش فؤاد شهاب لرفض قمع التظاهرات التي عمّت البلاد تطالب بإقالة رئيس الجمهورية مع أن البرلمان بأغلبيته الساحقة صوت على هذا "التجديد". ونظراً لرفض قائد الجيش قمع التظاهرات الشعبية استقال بشارة الخوري ونجح كميل شمعون عام ١٩٥٢ بعد مؤامرة إنكليزية حيكت ضد نجاح حميد فرنجية، وكان على رأس المؤامرة هنري فرعون.

وهكذا تابعنا نضالنا بمفردنا بعد أن يئسنا من تأمين قائد مدني يوجّهنا ويثقفنا، وبالفعل نجحنا نجاحاً كبيراً في جمع معظم الأشخاص الذين تعرضوا للأذى جراء نتائج الانتخابات التي أجراها كميل شمعون، وتم فيها إسقاط جميع زعماء البلاد التقليديين، من أحمد الأسعد، إلى صبري حمادة، وكمال جنبلاط، وعبد الحميد كرامي، إلى آخر ما هنالك من زعماء تقليديين كان يُعتبر أن نجاح اللوائح التي يتزعمونها أمر حتمي.

الاحتفال بعيد ثورة أكتوبر: كان احتفالنا التقليدي بعيد الثورة الاشتراكية العظمى، يقتصر على الاجتماع في أحد البيوت المهجورة في المقابر الموجودة جنوب غرب كنيسة مار الياس بطينا. ولكن عندما اشتدت الملاحقات ضد رفاقنا المدنيين قررنا أنا والرفيق عياش، دون الرجوع إلى أحد، الاحتفال بعيد الثورة على طريقة لم يسبقنا إليها أحد (كعسكريين). وهي كناية عن الشعارات على الجدران ونحن بلباسنا الكامل كصفوف ضباط لأنّ هذا الأسلوب الجديد في العمل لا أعتقد بأن أحداً قد أقدم عليه قبلنا.

لا أذكر السنة إنما في الخمسينيات، وبعد انتخاب كميل شمعون رئيساً للجمهورية، حصلنا على سطلين بويا أحدهما أحمر والآخر أسود.

بدأنا بتنفيذ المهمة، أنا والعياش، وكنّا نتبادل العمل أحدنا للمراقبة والآخر للكتابة، ولم نترك جداراً في معظم المعامل الموجودة آنذاك في مارالياس وحارة حريك إلا وقد أصبحت شعارات التحية لثورة أكتوبر، وللطبقة العاملة، ولتضامن عمال العالم، تملأ تلك الجدران ثم بدأنا بعدها بكتابة الشعارات نفسها على مفارق الطرق، وبشكل خاص الطرق المؤدية إلى المطار.

وقد مرّت بنا عدة دوريات من الجيش ومن الأمن الداخلي ولم يشك أحد بأن اثنين من صفوف ضباط المدرسة

الحربية يمكن أن تكون الكتابة من عملهما. مع العلم بأن الكتابة ليلاً لم تكن تظهر بشكل واضح. وبقينا طيلة الليل نتبادل المهمتين الكتابة والمراقبة، إلى أن أشرف الصباح على البزوغ. وأنهينا عملنا برسم المنجل والمطرقة على مدخل مخفر الدرك في ساحة الغبيري مع بعض الشعارات. ولم أتمكن من ردع محمود العياش من عدم رسم المنجل والمطرقة فوق رأس الخفير النائم إلا بالقوة.

وكم كان سرورنا عظيماً عندما بدأنا نسمع الناس تشيد بالحزب الشيوعي وبقدرته الهائلة على تخطي الصعاب، خصوصاً رئيس مخفر الغبيري الذي كاد أن يفقد عقله بعد أن علمت المحلة بأسرها بأن الحزب الشيوعي رسم شعاراته ليس على مدخل المخفر فحسب، بل في داخله أيضاً.

وبالفعل كان ذاك العمل عملاً تاريخياً ولم أسمع أو أقرأ بأن عملاً كهذا صدر عن أي حزب شيوعي.

العياش يحزن: كانت علاقتي والعياش متوطدة جداً، وكيف لا تكون كذلك؟ ونحن كما يقال انجبلنا بالقلق. ولكنني بدأت أشعر بعض المرات بتلكُئه عن تنفيذ المهمات التي تُناط به، وبإيجاد بعض الأعذار للتغيب عن الاجتماعات ولم تعد الخلية تضم إلا ثلاثة بعد أن ترك الجيش اثنان من أعضائها "كانوا من آل شمعون" وذهبا إلى أميركا. وكنت أشعر بأنه مغتمّ دائماً، وحتى علاقته بزوجته وأولاده بدأت

تتغير أيضاً. ولم يكن يعطيني سبباً معقولاً لهذا الفتور النضالي بعد أن كان بالفعل شعلة عمل. وكنتُ أرى الحسرة تهزه كلما رأى أحد تلامذتنا سبقنا بالترقية. وكان أصعب شيء عنده أن يؤدي التحية العسكرية لعنصرٍ كان يدرّبه ويعلّمه ويعرف حق العلم بأنه أقل منه معرفة وإدراكاً عسكرياً واجتماعياً وقد أصبح أعلى رتبة منه.

لقد كنّا نعاني الشعور نفسه، ولكنني كنت أراها طبيعية، وقلتُ له عدة مرّات "يا عياش"، ما بيهمّ يا رفيق، "ياللي بدو يسكر ما بدّو يعد قداح"، صحيح هني عم يربحوا شريطة وشوية مصاري زيادي، بس نحن بدنا نربح الدنيا كلها.

وفجأة يُرقّى العياش لرتبة رقيب، ولم يخطر ببالي بأن العياش قد خانني ووشى بي إلى الشعبة الثانية فاستحق الترقية! وهذا ما كان مطلوباً منه للترقية وهو إعطاء دليل يثبت استمراري في نشاطي السياسي. بل ذهبتُ إليه مهنئاً فرحاً معتبراً بأن تلك الترقية هي بداية لترقية الآخرين، الذين لم يُعرف أحد منهم لا من العياش ولا من أي عميل آخر.

الأحدب يحقّق معي: كان عزيز الأحدب ضابطاً مميزاً في الجيش سواء كان من ناحية القساوة العسكرية أم من ناحية العمل الدؤوب، فهو دائماً يدرس ويخطط ويكتب ويرفع تقارير لا يهدأ. وهو دائم العمل ليلاً نهاراً لأنه كان

يذهب في المساء لا يحمل شيئاً ويأتي في الصباح حاملاً العمل الذي أنجزه ليلاً ويتابع نهاراً. هكذا كانت حياة هذا الضابط والذي وصل إلى "منصب" حاكم لبنان العسكري بعد انقلاب صوري، وكان وضعه شبيهاً جداً بمطران مكة.

كان هذا الضابط يقدّرني ويحترمني لأنني كنت ألتقي معه في عدة نشاطات عسكرية. وكنت أساعده في أعماله ويشعر بقدرتي التنظيمية وبصواب رأيي مما جعله يضع ثقته التامة بي.

وبشكل مفاجئ يطلبني إلى مكتبه، وما إن دخلت المكتب حتى بادرني بالسؤال وبصوت عال: "كيف تقول لي بأنك لست شيوعياً وأنت لا تزال تمارس نشاطاً حزبياً ومكثفاً؟ تصنعتُ الدهشة وأبديتُ جهلي لما يقصد إليه بسؤاله، وأكدت له مجدداً بأنني لم أجدّد ولم أقم بأي نشاط شيوعي". وللحال نادى الحاجب وقال له: "استدعِ العياش"، وكما قلت لم يخطر ببالي بأن العياش هو الواشي عليّ وقد فكرت بأن الأحدب سيحقق مع العياش لممارسته نشاطاً شيوعياً كما كان يحقق معي. وفوجئت بسؤاله للعياش" "لنتكلم بصراحة، اسبر بعدو شيوعي ولّا لاء؟". ويشاء سوء حظ الاثنين الأحدب والعياش أن تكون خلف الأحدب خزانة لها درفة زجاجية يُحفظ في داخلها علم المدرسة. فانعكست صورة العياش الذي كان يقف ورائي على زجاج الخزانة وكأنه مرآة ولم يدرك هذا الأخير، أي العياش، أنني أراقب حركاته من خلال زجاج الخزانة.

فوجئ العياش أيضاً بالسؤال وبدأ مرتبكاً في البداية ولم يرد على سؤال الأحدب، فانتهره الأحدب مجدّداً وكرر السؤال: "لماذا لا تجيب، اسبر شيوعي ولّا لاء؟". أجاب العياش مع غمزة من عينيه ظهرت واضحة على الزجاج. "كلّا يا سيدي، ليس شيوعياً". فأعاد الأحدب التأكيد قائلاً: "ليش خايف، حكي الصراحة". أجابه بعد أن كادت عيناه تخرجان من محجريهما مكرراً الغمز: "كلا يا سيدي، ليس شيوعياً". عند ذلك قال له "طيب طيب فلّ من هون". عند ذاك تأكد لي بأن محمود هو الواشي، وكان ثمن وشايته ترقيته لرتبة رقيب أو رقيب أول لم أعد أذكر.

ثم عاد الأحدب لاستجوابي: "لماذا تنكر بأنك شيوعي؟ والكل يقولون لي بأنك شيوعي. ولا تتكلم إلا عن الشيوعية". أجبت: "يا سيدي إنني لا أتكلم إلا عن الحق والعدل والإنصاف. ولم أذكر في حياتي كلمة شيوعي! فإذا كان الكلام عن الحق والعدل والإنصاف هو كلام عن الشيوعية، فالأجدر بك أن تكون في طليعة الشيوعيين، لأنك دائماً تكتب عن الإنصاف والحق. وإذا كانت وشاية العياش أدّت لترقيته فأنا مستعد أن أعترف بأنني شيوعي كرمال ترقية العياش، لأن هذا الأخير مظلوم بالتهمة مثل ما أنا مظلوم. ويمكن أن يكون قد رأى بأن الطريق الوحيد لترقيته هو القول عني بأنني شيوعي وإلا فالمفروض فيما لو وجد شيوعيين في الجيش عليه معرفة رفاقي أما والتضحية محصورة بي فقط،

فإنني أعتبر وشاية العياش لا تخرج عن نطاق السعي للترقية لرتبة أعلى. وإذا كان هكذا أسلوب يؤخذ بعين الاعتبار ويحصل الواشي على رتبة، فسأوعز لجميع معارفي وأصدقائي كي يقولوا عني بأنني شيوعي ويحصلون على ترقية، وهكذا أكون قد خدمتهم أحسن خدمة".

أجابني: "تعرفني أنا لا يحرّكني إلّا ضميري وقناعتي وأنا غير مقتنع بما يقال عنك، لذلك سأثابر على المطالبة بترقيتك وتقديمك لنيل شهادة آمر فصيل، وبعد نيلك شهادة آمر فصيل سوف أقدّمك للفحص لرتبة ضابط، وستكون كما عوّدتني الأول في الدورة، وأقول لك بصراحة، بأنني سأدعمك للنهاية، وستكون عندي في المدرسة بعد حصولك على رتبة ضابط".

ولكني نلت شهادة آمر فصيلة وقبل أن أتقدم لفحص الترقية لرتبة ضابط كنت قد التحقت في ثورة عام ١٩٥٨ وسيأتي الحديث مفصلاً عن ذلك.

طرد العياش: خرجتُ من عند الأحدب، وأنا أستشيط غيظاً لخيانة العياش، وفتشت المدرسة تفتيشاً دقيقاً ولم أجده. فقلت في نفسي لا بأس، فسأراه في اجتماع المدرّبين بعد الظهر. وبالفعل هكذا كان، واستغليت فترة الاستراحة، وناديته فأتاني غير آبه وكأنه لم يرتكب أي ذنب. قلت: "ماذا فعلت يا يوضاص؟ أما كان الأجدر بك أن تدرس القضية

معي وتتفق على إخراج ينفعك ولا يضرّني. وعلى كل فإنَّ وشايتك بما أنها اقتصرت عليّ وحدي دون ذكر الآخرين فهذا شيء يشفع بك بأن لا توصم بالخيانة. أما أنت منذ الآن اعتبر نفسك مطروداً من الحزب. على الرغم من أنني تركتُ لك خط الاستمرار في الترقية مفتوحاً لأنني قلت للأحدب بأنك مظلوم ولا علاقة لك بالشيوعية، وإن وشايتك عليّ ليست إلا وسيلة استخدمتها لتصل إلى الترقية".

وقد أثّر موقفي هذا كثيراً به فأصبح ينظر خجلاً إلى الأرض، بعد أن كان يخاطبني وكأنه لم يرتكب أي خيانة. وقال: "لا بأس يا رفيق فالفقر يصنع الكثير، وأنت تعلم، عائلتي كبيرة وكم تتراكم الديون عليّ، هذا بالإضافة إلى أن معظم الأشخاص الذين لا ترضاهم أنفار بحضائرنا قد أصبحوا صفوف ضباط وأنا مجبر لتأدية التحية لهم".

أجبته: "أنني أقدر كل هذه الظروف ولا يخفاك بأن ظروفي هي نفس ظروفك، ولكنني سأبقى على مبادئي مهما كانت العقبات، حتى ولو كما قال لي الأحدب، بأن الشعبة الثانية ستطلق الرصاص على رأسي وأنا سائر في أحد الشوارع. ولكن عليك بعد الآن ألّا تناديني يا رفيق. لأن هذه الكلمة أكبر من أن يتلفظ بها أمثالك". وانتهت علاقتنا الحزبية عند هذا الحد، حيث تم طرده في أول اجتماع عُقد لقيادة بيروت التي كانت في الوقت نفسه مسؤولة عن كل

التنظيم في الجيش، وانقطع الاتصال السياسي بيننا حتى بدأت أحداث عام ١٩٥٨.

بعد اغتيال نسيب المتني: تفاقمت الأحداث بعد اغتيال المرحوم نسيب المتني. وقد أعطى شمعون أوامره للجيش بواسطة وزير دفاعه رشيد بيضون، لضرب المقاومة الشعبية، ولكن قائد الجيش آنذاك رفض تنفيذ الأوامر باعتبار أن الأحداث كانت قتال كراسي وأكلة الجبنة، وأعطى أوامره بألا يقاتل الجيش أحداً إلا من يعتدي عليه. وموقف قائد الجيش هذا لم يرقْ لشمعون الذي أصدر أمراً بإقالة قائد الجيش من منصبه وإسناده إلى أحد الضباط الموالين له من آل كرم[٤٣] باعتبار أن هذا الأخير سينفّذ كل ما يطلب منه من أوامر وكان قد ارتكب عدة مجازر ضد الوطنيين في طرابلس بصفته قائداً عسكرياً لمنطقة الشمال.

اتصل بي أحد الضباط الوطنيين وأخبرني بضرورة لقائه واتفقنا على اللقاء في مدرسة القتال مقرّي العسكري.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى حضر ذلك الضابط، ودرسنا عدة حلول لإفشال المخطط الشمعوني وإبقاء فؤاد

---

(٤٣) هو غير العميد كرم الزغرتاوي، بل هو من آل كرم الشوف. وكان قد قام بقطع عدة رؤوس من مسلحي المقاومة الشعبية في طرابلس وساعده بذلك الملازم أول شوقي خيرالله.

شهاب قائداً للجيش، باعتبار مجيء أنور كرم كارثة كبيرة ستنزل بالبلد وبالمقاومة الشعبية وسينجح كميل شمعون بتنصيب نفسه أميراً على لبنان.

فاقترحتُ آنذاك فك الجيش بانضمام بعض العسكريين إلى المقاومة، وإذاعة بيان يدعو العسكريين للامتناع عن قتال إخوانهم في المقاومة، وكذلك انضمام من يريد إلى المقاومة الشعبية. وأعلمته أيضاً بأنه يوجد ما لا يقل عن الثلاثين عنصراً في المدرسة لديهم الاستعداد الكامل للانتقال معي إلى المقاومة ولم أوضح له من أمورنا السياسية أكثر من ذلك.

تركني ووعدني بالاتصال بي ثانية وعليّ انتظاره لمدة لا تزيد عن الساعة، وبالفعل عاد وعرض عليّ أسماء بعض الضباط الصغار الذين لديهم الاستعداد للانضمام للمقاومة ولكن جميعهم من المسلمين.

لذلك كان رأيي أن أكون أول المنضمين مع فصيلتي، باعتباري أولاً مارونياً، ولا يمكن أن يأخذ انضمامي للمقاومة طابعاً طائفياً كما كان يريد كميل شمعون. وثانياً لأنني أكثر الرتباء شهرة في الجيش نظراً لأنني أحد الأبطال والمدربين الرياضيين المعروفين بالجيش ليس فقط كرياضي بل كخُلق وإنسان. وهكذا بتُّ على استعداد تام لتنفيذ تلك المهمة والتي كنتُ قد هيأتُ لها نفسي مسبقاً على أساس أن ألتحق

بالمنضمين وليس أول المنضمين. وعرضت الوضع على فرقتي الحزبية التي وافقت على إعطائي الصلاحية المطلقة في التقرير.

العياش يفاجئني: كنت أجلس في مكتبي أفكر بإيجاد طريقة للاتصال بالمقاومة، لنتفق على المكان الذي سنلتحق به والأفضل إلى محلة الطريق الجديدة، دون الاصطدام بالمقاتلين هناك. وإذا بمحمود العياش يدخل عليّ محيياً وهو يبتسم ابتسامته الخبيثة. فقال: "شوباك قاعد وحدك هون منعزل عن العالم وبرّا الدني خرباني". قلت: "وماذا عليّ أن أعمل". فقال: "أنا أريد الذهاب إلى المقاومة فما هو رأيك؟".

وبالفعل سقط عليّ سؤاله كدوشٍ بارد. وخشيت أن يكون الضابط على الرغم من معرفتي الحزبية به قد أصبح عميلاً واستدرجني للإيقاع بي ويريد إثبات خديعته بواسطة العياش الذي كان معروفاً بتلك الصفة أي المخادعة[٤٤].

ويظهر أنه لاحظ ارتباكي وأدرك بأنني أشكك بقوله

---

(٤٤) من المحتمل أن يكون الضابط الذي اتصل بي على اتصال بالمقاومة، ولم أتثبت من هذا الاتصال نظراً لعودة ذلك الضابط إلى قواعده اللاوطنية بعد ١٩٥٨، أي بعد شعار "لا غالب ولا مغلوب".

فقال: "يا رفيق دع الماضي وما حدث به، ولنفتح صفحة من جديد، فهذه فرصتي الوحيدة لإعادة اعتباري. وكن على ثقة بأنني سأكون معك حتى الموت وسأنفّذ كل مهمة يطلبها مني الحزب مهما كانت. وأخبرك بأن أحداً من آل المقداد سيأتي بعد قليل للتفاوض معنا، وندرس معه كيفية انتقالنا من المدرسة إلى الطريق الجديدة. وهو على علم بما نعمله هنا".

حضر أبو طعّان في الوقت والمكان المحددين. والمكان المحدد جولة المقاتل. واتفقنا معه على الحضور في اليوم الثاني، واتفقنا أيضاً على المكان بحيث أكون أنا شخصياً همزة الوصل باعتباري كنت لا أزال غير واثق بالعياش. وكان لديّ متسع من الوقت للاجتماع مع رفاقي في منظمة بيروت للموافقة على التحاقي بالمقاومة وتفويضي بالعمل الثوري لكل ما أراه مناسباً في هذا الموضوع، على أن أعود إلى المنظمة في حال تمكننا من الاتصال. وأخبروني أيضاً بأنهم سيتصلون بأي وسيلة مع الحزب لتأمين الارتباط بي والحزب بدوره يوجهني في عملي.

الالتحاق بالثورة: ليل العشرين من حزيران عام ١٩٥٨، وكنتُ قد هيأت أكثر من ثلاثين عنصراً وجميعهم من الرتباء والأفراد الذين إما كانوا مدرّبين وإما من أبطال الجيش في الرياضة والريادة. ولكن كما هو معروف عن كل موعد مع

بقية الأطراف، بحيث أنّ الساعة تصبح ساعات. فبدلاً من أن يأتي صاحبنا في الموعد المحدد أتى متأخراً عن الموعد ما يقرب من الساعة والنصف، وهذا التأخر سبب لنا خسارة كبيرة بعدد الرفاق إذ إن هذا التأخير كان قد أتى بعد الوقت المحدد لمغادرة الدوريات الليلية مدرسة القتال، بينما كنا قد حدّدنا وقت مغادرتنا الثكنة قبل الوقت المحدد للعمل بالدوريات الليلية.

أتى الضباط مع شاحنتين لنقل الدوريات في الوقت المحدد، وبدأ الشباب يأتون إلى مكتبي مستفسرين ما العمل؟ فخشيت أنا بدوري من انفضاح أمرنا فأوعزت إليهم بالذهاب كالمعتاد دون أن يتركوا مجالاً لتسريب أي شيء يدلّ على ما ننوي عمله، في التحاقنا بالمقاومة الشعبية.

وهكذا ذهبت الدوريات ولم يبق سوى بعض الرفاق لا يتجاوز عددهم العشرة على ما أعتقد. وهنا تم عقد الاجتماع معهم وقررت الالتحاق بالمقاومة، كبداية، إذا حضر الوفد. ثم نرسل نداءً إلى العسكريين للانضمام إلينا، فوافق الجميع. وهكذا تم تحقيق الهدف من انضمامي للمقاومة، وهو خلق تقاليد ثورية في الجيش بالانضمام للشعب في حال تعسُّف الحاكم وقيام تحركات شعبية.

تنفيذ الانضمام للمقاومة: حضر أبو طعّان بعد الوقت

المحدد متأخراً ما يقرب بين الساعة والنصف، وقد وجدناه بالمصادفة بعد أن قطعنا الأمل من حضوره، ولكن إصرار العياش ومعرفته لقيمة الوقت عند ذلك الموفد جعله "أي العياش" يكرر التردد إلى المكان المعين إلى أن حضر.

عند ذلك تركه العياش وأتى اليّ يخبرني بحضور "أبو طعان" وهنا استنفرت الجميع وأخذتهم إلى مخزن الأسلحة[٤٥] بعد أن أبعدت حارس المخزن في إحدى المهمات وبدأت أوزّع على كل واحد قطعتين من السلاح بالإضافة إلى ما يتمكن نقله من ذخيرة وقنابل يدوية.

تمّ التوزيع وتمّ تعيين نقطة التجمّع خارج المدرسة، وتأكدنا من أن أحداً من العناصر الباقية في مدرسة القتال لم يعلم ما ننوي القيام به، ذهبنا الواحد تلو الآخر بفاصل دقيقة واحدة بين كل عنصر، وقد نفذنا هذه الخطة خوفاً من انفضاح أمرنا فيما لو ذهبنا بشكل جماعي. وهكذا تم التنفيذ، كما قلت، ومررنا جميعاً، من ثغرة فتحت سابقاً في الشريط الشائك الذي يحيط بمدرسة القتال دون أي عائق، وفي مكان التجمّع المحدد سابقاً كنا ننتظر بعضنا بعضاً إلى أن اكتمل العدد وذهبنا للقاء أبو طعان الذي استلم قيادتنا لإدخالنا إلى متاريس المقاومة دون اشتباك معهم.

---

(٤٥) كنت في مدرسة القتال بالإضافة إلى كوني مسؤولاً عن التدريب العنيف، مسؤولاً ايضاً عن الألبسة والصيانة والأسلحة والذخيرة.

وهنا لا بد من ذكر حادثة بسيطة وقعت لأحد الأشخاص الذين انضموا إلينا، ونحن في منتصف الحرش الواقع غرب مدرسة القتال. تفقد ذلك العنصر (من شبعا الجنوب) سلاحه فوجده دون جرّار، وهنا أتى إليّ راكضاً وهو يصرخ يا سيدنا، بندقيتي دون جرّار إنني أريد العودة للتفتيش عليه. وهنا أدركت على الفور بأن هذا العنصر اختلق هذا العذر ليعود عن قرار الانضمام إلى المقاومة. فقلت له: "لا بأس إذهب وفتش عنه وإذا لم تتمكن من اللحاق بنا فإياك أن تذكر أي شيء عما حصل لك معنا وهذا لصالحك، قبل أن يكون لصالحنا، وعلى كل يا ابراهيم الدنيا ليل ومش رح تلاقي الجرّار فخلّي لعبكرا وتعى فتش عليه. وهنا أدرك الجميع بأن العذر مختلق فضحك الجميع ودعوا لزميلهم بالتوفيق والصمت وإلّا...".

وصلنا إلى "الطريق الجديدة" برفقة الأخ ابو طعان، وكان في انتظارنا معين حمود[٤٦] ومحمود الدنا كذلك بعض المقاتلين في حركة المقاومة الشعبية.

كان الاستقبال حاراً في بادئ الأمر وفي بيت شخص من آل المكاوي كما أعتقد، وفوراً درسنا إمكانية العودة إلى مدرسة القتال والاستيلاء على ما تبقّى من أسلحة وذخيرة.

---

(٤٦) ضابط طُرد من الجيش متهماً بالمشاركة في انقلاب حاول تنفيذه الزعيم عزيز غازي.

ولكن عدنا عن تنفيذ العملية لأنه كان قد مضى على مغادرتنا مدرسة القتال وقت لا بأس به، وبالتالي أخذنا بعين الاعتبار عودة رفاقنا من الدوريات وحصول اشتباك فيما بيننا، نحن الذين كنا مثال العيش العائلي، بحيث ستقع ضحايا ليست بريئة فحسب بل يمكن أن تساعدنا فيما بعد ببقائها في الجيش وحتى في الانضمام إلينا لاحقاً عندما تدعو الضرورة، لأنه كان بنظري لا يجوز سحب جميع العناصر الوطنيين من مركز قريب من خطوط قتالنا إذ إنه من المحتمل أن يتحول إلى مركز تجمع يغلب عليه العنصر الطائفي أي بعكس ما كانت عليه مدرسة القتال أنموذجاً للعيش المشترك والتفاهم بين مختلف العناصر المتواجدين هناك.

وافق الجميع على رأيي هذا ما عدا المدعو علوان الحسيني الذي رفض البقاء بيننا ما لم نهاجم المدرسة مرّة ثانية باعتبار أن هذا الهجوم هو العذر الوحيد الذي يبرر وجودنا مع المقاومة لأننا يمكن أن نقول بأنهم أخذونا أسرى، وبهذا تنتفي عنا الملاحقة فيما بعد بسبب انضمامنا للثوار.

أجبته: "إن انضمامنا للثورة نريد له أن ينعكس وطنياً على صفوف الجيش حالياً ولخلق تقاليد جديدة في الجيش اللبناني على المدى البعيد، نريد أن يكون عملنا هذا حافزاً أو أمثولة لأي جندي أو ضابط وطني لينضم إلى الشعب عندما يحاول الحكم قمع الشعب بواسطة الجيش. وعلى كلٍ

اقترح أن تعود أنت إلى المدرسة كما عاد ابراهيم ولا أحد يعلم بك ولديك ألف سبب لانتحال عذر يبرّر غيابك ولديك متسع من الوقت لتفكر وتتخذ القرار المناسب". وفي هذا الوقت تنحّيت أنا ومحمود العياش وابراهيم علي ابراهيم وأحد الرفقاء من آل سكرية، ودرسنا قضية علوان. فكان قرارنا أنه إذا قرر العودة فيجب القضاء عليه أثناء عودته، وإذا بقي بيننا فيجب مراقبته بدقة وبصورة دائمة، لأن هكذا ظواهر تدفع بصاحبها إلى ارتكاب مختلف الخيانات.

عدتُ وسألتُ علوان عن قراره فقال سأبقى معكم مهما كلف الأمر. وقد تبين لنا فيما بعد بأنه قد شعر بأننا نُضمر له شراً، وهكذا بقي بيننا خوفاً من عاقبة عودته، وقد أمّن اتصالاً مع بعض الأشخاص المشبوهين والمعروفين في ارتباطاتهم بالشعبة الثانية، ولكننا لم نتمكن من إثبات هذا التعامل إلا بعد أن انتهت أحداث عام ١٩٥٨.

ردّة الفعل: نبأ انضمامي مع مدربين من مدرسة القتال نزل نزول الصاعقة على المسؤولين العسكريين من مختلف الرتب جنوداً ورتباء وضباطاً وحتى سياسيين حيث حاولوا إخفاء ما حدث في مدرسة القتال يومين على ما أعتقد.

وفي اليوم الثاني جاء أخي فيليب وكان صف ضابط آنذاك مرسلاً من قبل قيادة الجيش لإقناعي بالعودة باعتبار أن رجال المقاومة أخذوني بالقوة إليهم، وهذا تبرير ستتدبره

قيادة الجيش وتخرجه بشكل ألا ينالني أي جزاء. وكان أخي ينقل وعداً بإعطائي مبلغ ستين ألف ليرة لبنانية (أقبضها سلفاً فيما لو وافقت على العودة). هذا بالإضافة إلى المستقبل الزاهر الذي ينتظرني كضابط كبير في المستقبل. ولكنني رفضت جميع تلك المغريات. وعقدتُ مؤتمراً صحفياً بيّنت الأسباب التي دعتني للانضمام إلى المقاومة، ألا وهي إقالة شمعون لفؤاد شهاب من قيادة الجيش والإتيان بالعقيد كرم قائداً للجيش. وقد بيّنت بالمناسبة كيف أن هذا المجرم قطع رؤوس عدّة مقاتلين بعد أن حاصرهم وألقى القبض عليهم في مغارة. وكانت القوة التي فعلت تلك الجريمة بإمرة الملازم أول شوقي خيرالله[٤٧].

ثم ذهبت بعد المؤتمر الصحفي إلى إذاعتي "صوت العروبة" التي كان يُشرف عليها الأخ عدنان الحكيم "النجادة" وإلى "صوت مشعل" التي كانت تشرف عليها المقاومة الشعبية في الطريق الجديدة وبثّيت عبرهما بيانين أدعو الجنود للتمرد والانضمام للمقاومة الشعبية حيث لبّى النداء ما لا يقل عن المئتين وسبعة عشر عنصراً. ونظراً لعدم إيجاد أماكن تتسع للعسكريين المنضمين، وكذلك لعدم إفراغ الجيش من الوطنيين، وبعد أن سحب كميل شمعون مذكرة

---

(٤٧) ضابط مطرود من الجيش كان قد اشترك في محاولة الانقلاب ضد فؤاد شهاب عام ١٩٦٠.

إقالة فؤاد شهاب من قيادة الجيش، عدتُ فوجهت نداءً من الإذاعتين دعوت العسكريين إلى التوقف عن الانضمام إلى المقاومة معتبراً بأن كل من يلتحق بعد هذا النداء سيُقبض عليه ويحاكم كأنه مخالف للأوامر العسكرية أثناء الحرب وبالفعل توقف انضمام العسكريين.

إن عملنا هذا لم يوقف فقط إفراغ الجيش من الأشخاص أصحاب النزعة الوطنية بل أوقف أيضاً الأعمال التعسفية التي كان يقوم بها بعض الضباط والرتباء المأجورين والموجّهين من قبل الشعبة الثانية والتي كان يرأسها آنذاك العقيد سعد.

البدء بتدريب المقاومة: منذ اليوم الأول لانضمامي إلى المقاومة تفقدتُ مع الرفاق جميع المراكز، وأشرت كم هو متدنٍّ العمل العسكري بحيث أنه لا تمضي ليلة واحدة دون أن تحدث عدّة إصابات ومعظمها خطيرة نتيجة هذا المستوى، فقررت إنشاء مركز للتدريب في "مدرسة البر والإحسان"، وقسمت العمل على الرتباء ودعوتُ جميع المقاتلين للالتحاق بمركز التدريب للتأهيل العسكري لمدة أسبوع.

وكانت التلبية كبيرة حيث أنها فاقت كل تصوّر مما جعل رفاقي المدربين يبذلون جهوداً جبارة لتلبية متطلبات التأهيل. وبالفعل نجحنا إلى حدٍ كبير في جعل المقاتلين يستوعبون بسرعة استعمال السلاح والرماية والقتال الجماعي. وبالطبع كان تأكيدنا على ترسيخ المهمات الفردية للمقاتل، وعلى

القتال وجهاً لوجه، وكان هذا الاستيعاب في نظري كافياً، بالإضافة إلى ما كنا نبذله ليلاً لتعليم الحرّاس كيفية التوقيف والتعرف على الوافدين أو الدوريات ليلاً مع كلمة السر.

والذي كان يُفرحنا وينسينا أتعابنا المرهقة، هو ما نلحظه من سرعة في الاستيعاب والتنفيذ، فقد كان الشباب متعطّشين للدروس العسكرية.

لم يكن التدريب شاملاً، بحيث أن بعض المقاتلين لم يتمكنوا من الحضور إلى مركز التأهيل في "مدرسة البر والإحسان" في "الطريق الجديدة". فاتفقنا مع الأخ ابراهيم قليلات ومع بعض زعماء الأحياء كفاروق شهاب وسهيل يوسف الدين واحمد الارناؤوط وعبد الحفيظ كريديه واحمد شاتيلا وحسين اليتيم الخ... اتفقنا معهم للذهاب إلى مراكز تجمّعهم ندرّب من لم يتمكن من التدريب حيث اخترت بعض العسكريين الحسني التدريب بالإضافة إلى المدربين الأساسيين ووزعتهم على مراكز تجمّع مقاتلي الأحياء حيث كانوا يقومون بالتدريب حسب البرامج المحددة، وكنت بدوري أشرف على جميع المشاغل بمساعدة رفيقي وزميلي محمود العياش، وهكذا عم التدريب جميع المقاتلين ولم يبق إلا القليل خارج ذلك التأهيل.

وبكل بساطة وفخر أيضاً أقول بأنني كنت أول شيوعي عسكري يقوم بعمل عسكري جبهوي. كذلك يمكنني الجزم بأن حزبنا الشيوعي هو أول حزب شيوعي عربي حمل السلاح

لمحاربة الأحلاف الاستعمارية كحلف بغداد والهلال الخصيب والخ...

أول اتصال بالحزب بعد انضمامي إلى المقاومة: في اليوم الثالث من انضمامي للمقاومة، وكنتُ غارقاً بالتراب من جراء العراك الذي أقوم به كتمرين مع المقاتلين[٤٨] وإذا بأحدهم يقول لي: يوجد أناس يريدون رؤيتك ضروري". فأجبته: "قل لهم أن ينتظروا حتى أُنهي درسي وسأقابلهم في وقت الاستراحة".

وبالفعل ذهبت في ذلك الوقت ووجدت شاباً ترافقه سيدة شقراء، وكلاهما مفعم بالحيوية والنشاط، وما إن أطليت عليهما حتى عانقاني وقبلاني الواحد تلو الآخر، ودهشتُ في بادئ الأمر ولم أعرف من هما هذان الرفيقان، وخجلت أن أسألهما عن هويتهما أمام رفاقي والحشد الذي كان يلتف حولي عند انتهائي من كل جولة تدريب، حيث أن أخبار التدريب وبخاصة مادة القتال وجهاً لوجه، قد أحدثت ضجة في أوساط جماهير المقاومة وجعلت مني أسطورة، بحيث روى لي أحد رفاقنا بأنه سمع من "أبو زهير السروجي"، أحد الوجهاء في طريق الجديدة، يروي قصة عني بأنه رآني

---

(٤٨) كنت أدرب مادة القتال وجهاً لوجه مع وبدون سلاح وهو من أشقى التدريبات الجسدية.

في عينيه أطرح أكثر من عشرة مقاتلين، كانوا يتدرّبون، بأقل من دقيقة واحدة في منتصف باحة "مدرسة البر والإحسان"، وكانت روايات عديدة تُحكى عنّي وعن رفاقي المدرِّبين مما جعل باحة "البر والإحسان" تمتلئ يومياً بالمشاهدين والمشجعين، وخصوصاً النساء، الأمر الذي كان يدفعني استحسانهم لعملي طبعاً بالإضافة إلى إيماني بصحة عملي في إعطاء الجماهير حداً أدنى من الحصانة القتالية ضد أعدائها حاضراً ومستقبلاً.

قلت كان يدفعني استحسان عملي إلى المزيد من الجهد والمزيد من العناية في ترسيخ التمارين القتالية التي لعبت دوراً كبيراً في تعميق ثقة الجماهير بقدرتها على المقاومة والثبات في وجه أعدائها، بعد أن كانت تفتقر إلى السلاح حتى البدائي منه، بحيث أصبحت مسلّحة تقوم بحركات قتالية تتمكن بواسطتها من انتزاع سلاح الخصم و القضاء عليه، هذا بالإضافة إلى تعويد الذين لا سلاح لديهم بأن يستعملوا تلك الحركات متسلحين بالهراوات والسكاكين والمعاول والرفوش والمياه المغلية، والحجارة وأحواض الزهور وقذفها عن الشرفات الخ... إلى ما هنالك من أساليب قتالية شعبية جعلتهم كما قلت يستعيضون عنها بدلاً من الأسلحة النارية التي كانوا يفتقدونها. ومن المؤسف أن بعض تلك التدريبات قد استعملت من قبل بعض المقاتلين ضد بعضهم الآخر، وإن كانت نادراً ما استعملت. فقد أعطت تلك المخالفات البسيطة

حجة للذين لم يتدرّبوا بأن يثقوا بأنفسهم وبقدرتهم على مقارعة عدوهم مهما كان يملك من أسلحة حديثة وجيوش منظمة، فكنت دائماً أزرع في نفوسهم الإيمان بعدالة القتال الذي نقوم به في مكافحة الأحلاف الاستعمارية والنضال من أجل السلام العالمي، وهكذا كنتُ أعيش مع رفاقي تلك الأيام أعراساً دائمة، نظراً لما كنا نرى من نتائج طيبة وسريعة من زرع الثقة والأمل بالانتصار على كل العقبات التي تعترض طريق نضال الناس عندما يريدون أن ينظموا أنفسهم، خصوصاً وأن نضال تلك الأيام كان منصّباً على إفشال مشاريع الأحلاف الاستعمارية كمشروع الهلال الخصيب، وسوريا الكبرى، وحلف بغداد الخ...

إن شعبنا اللبناني العربي شعب حساس كان يتجاوب مع كل حركة تحرر في العالم أينما كانت، ولم أذكر مرة وقع ضغط على أي شعب، إلا وكان شعبنا اللبناني في طليعة المؤيدين أو الشاجبين حسبما تقضي مصلحة ذلك الشعب. وهذا التعاطف مع القضايا العالمية، كان يكلّف شعبنا كثيراً من التضحيات المادية والمعنوية حتى أصبح نضالنا محط أنظار جميع الشعوب المحبة للسلام، ومحطة رئيسية في الوقت ذاته للتآمر عليه. وبالإضافة إلى نضال شعبنا، كانت الصحف الوطنية تلعب دوراً بارزاً في إذكاء روح الثورة والإصلاح في الجماهير مما جعل من نسيب المتني، أول شهداء تلك الحقبة من التاريخ، التي كانت في الوقت نفسه

عود الثقاب الذي أحرق أحراش التآمر لكميل شمعون والقضاء على أحلامه في تنصيب نفسه أميراً على لبنان.

أعود للتأكيد بأن أول من اتصل من في الحزب، والذي منعني أدبي أن أسأل زائريّ عن هويتهما أمام ألوف المتفرجين، كانا الرفيق أحمد غربية وزوجته جورية، فكان لهما دور بارز في مساعدة المركز على تخطّي معظم متطلّباته التموينية، غذائية كانت أو تسلّحاً. وقد فرحتُ بهذين الرفيقين كثيراً بحيث شدّتنا الساحة الواحدة للنضال والقتال، وكذلك الوحدة الفكرية، عنيت به حزبنا الشيوعي المبني على أساس الفكر الماركسي اللينيني، هذا وسنأتي على ذكر بعض ما قام به هذان الرفيقان الزوجان.

اختطاف أحمد صالح من السجن: لا يوجد أحد في الحزب لا يعرف الرفيق احمد صالح. ذلك الرفيق الطيب الشجاع المقدام والمنفّذ لمهمات الحزب ببساطة وبطيبة خاطر غير آبه بالعواقب حتى ولو كانت الموت.

لم أعرف ذلك الرفيق إلا من خلال جريدة "التلغراف" وجرائد الحزب الشيوعي من "صوت الشعب" إلى "الصرخة" التي كانت تبرز الاعتقالات التي كانت تقوم بها زمر كميل شمعون وفاشيّو الكتائب، ولم يكن اسم احمد صالح يغيب كثيراً عن صفحات تلك الجرائد. بحيث ما إن ينتهي من اعتقال إلا ويدبّرون له اعتقالاً آخر. وآخر اعتقال

كان له عام ١٩٥٨ عندما أقدم بعض فاشيي الكتائب على وضع متفجرات في جيوب الرفيق أحمد وقبضوا عليه وسلموه للدرك باعتباره كان ينقل مواد متفجرة. وبعد أن أُشبع ضرباً وتعذيباً لعدة أيام حكموا عليه مدة عشر سنوات أشغالاً شاقة. وتصادف أن وقعت الثورة وهو في بداية سنته الأولى.

لذلك صدر قرار من قيادة المركز الحزبي، وكان قائده الرفيق المأسوف على شبابه المحامي محمد الخطّاب، صدر قرار بالإفراج عن احمد صالح وخطفه من سجن الرمل، على أن تتم العملية بإشرافي وقيادة محمود العياش وبمساعدة الرفيق خدّاج آمر سجن الرمل الفعلي آنذاك[٤٩].

الاستطلاع: استطلعنا وضع سجيننا بواسطة الرفيق خدّاج، وأوصينا السجين بأن يتمارض لأننا سننقله إلى المستشفى وسيخطف أثناء النقل. ولكن... ولكن بعد جهدٍ جهيد أقنعنا ذلك الرفيق بأن يقبل بالتمارض ويقبل بالنقل إلى المستشفى حيث استغرقت عملية الإقناع أكثر من ثلاثة أيام.

تم التخطيط للعملية بكل دقة بقيادة محمود العياش المعروف بأساليبه البوليسية. وفي اليوم المحدّد احضرنا بعض الزملاء العسكريين وألبسناهم بزاتهم العسكرية كاملة كما أتوا

---

(٤٩) أقول آمر السجن الفعلي، لأن جميع الضباط قد هربوا وأوكلوا القيادة إلى ذلك الرفيق الطيب.

بها من مدرسة القتال مع شارات الرتب والمدرسة الحربية، وبدوا وكأنهم دورية عسكرية عادية. وطبعاً كنا أنذرنا جميع المراكز الأمامية بعدم التعرّض للدورية لأنها ستقوم بعملية تخريب ضد عناصر تابعة للجيش. وهكذا اتجه ابراهيم علي ابراهيم بدوريته على الطريق غرباً بعد أن رأينا سيارة الإسعاف تأتي إلى المستشفى لتنقل الرفيق أحمد إلى السجن. وما إن وصلت الدورية إلى مستديرة الكولا[٥٠] حتى دخلت سيارة الإسعاف فأوقفها رئيس الدورية بإشارة عادية.

لم يشك سائق الإسعاف بأي شيء باعتبار الدورية عسكرية ولا غبار على سلوكها، فالجيش كان مطلق الصلاحيات في توقيف أية آلية مهما كانت مدنية أم عسكرية. توقف السائق، وللحال انقضت الدورية عليه وعلى مساعده ونزعت منهما سلاحهما بينما كانت بقية الدورية تفتح أبواب السيارة لتنفيذ عملية الاختطاف. ولكن أحمد عندما رأى العسكريين يتقدمون لاختطافه اعتبر القضية مؤامرة على حياته وكاد يُفشل العملية من جراء مقاومته للخاطفين بحيث تمكنوا بالقوة من إنزاله وسوقه إلى مركز الحزب بينما كانت الأصفاد لا تزال في يديه، وقد بذلنا كثيراً من الجهد لقطع السلسلة التي تربط الأصفاد ببعضها بعضاً. وأعتقد بأن الأصفاد بقيت في يديه طيلة ذلك الوقت حتى تمكنا من جلب مفتاح للقيد

---

(٥٠) لم تكن "الكولا" أصلاً هناك على ما أعتقد.

ونزعناها من يدي أحمد الذي ظلّ لفترة طويلة يذكّرني بتلك الحادثة التي يعتبرها أهم حادثة مرت في حياته النضالية.

أما سيارة الإسعاف والجنود فقد أعيدت لهم أسلحتهم بعد أن انتزعت منها ذخيرتها وأطلق سراحهم فوراً بعد أن أُنزل أحمد.

وكان فرح الرفاق كبيراً بخلاص احمد من السجن، حيث أقيمت حفلة ساهرة على شرف خلاصه. وكان الجميع يغمرهم الفرح نظراً لنجاح العملية، ونظراً لما يتمتع فيه ذلك الرفيق من محبة وتقدير رفاقه لصموده وشجاعته ومواقفه الجريئة في مقاومة جلاوزة الحكم، فكان يستحق عن حق لقب شيوعي.

رفيقة حياتي أم فريد: ماذا أكتب عن رفيقة حياتي ونضالي، هذه الرفيقة التي ارتضت بي زوجاً وهي ابنة الستة عشر ربيعاً على الرغم من معرفتها المسبقة بي بأنني شيوعي وفقير. وبالرغم من طلب يدها من أناس يفوقونني جاهاً ومالاً. وعندما سئلت عن سبب موافقتها على الزواج مني أجابت ببساطتها المحببة: "أريد الزواج به لأنه شيوعي، والشيوعيون كما يقولون عنهم أوادم ويقدرون المرأة حق قدرها". وأعتقد بأن خالتها زوجة أبيها كان لها الموقف الفصل في هذه الناحية إذ إنها تربّت في بيت شيوعي وهو بيت حبيب الأشقر من حلبا عكار وهو والد الرفاق فريد ورامز وحسني وغسان وأديبه ورمزة (خالة أم فريد) ونجلا

وليلى، فمنهم الأطباء ومنهم المناضلون، وبالاختصار كانت قد رُبّيت في أحضان عائلة شيوعية من كبيرها إلى صغيرها بعكس آل جعجع عائلة أبيها والتي لم أعرف أحداً من أفرادها بأنه اعتنق أي فكر تقدمي.

أقول وبكل صراحة، لا أجد ما أكتبه لإيفائها حقها، فهي من الرفيقات القلائل لأنها تحملت عذابات مشاركتي نضالي، منذ اليوم الأول الذي أصبحنا فيه عروسين. فكان زواجنا يوم السادس من أيار ١٩٥٠ عيد الشهداء، وأرجو ألا يعلق القارئ على هذه المناسبة فيعتبر أن كل زواج استشهاد.

علمتْ بأنني شيوعي ومهدَّد بالطرد من الجيش، وبقيت مصرّة على الاقتران بي بالرغم من أنه كان قد تقدم بطلب الزواج منها عدة أشخاص ميسورين جداً بالنسبة لي، أنا الذي تزوجت بالدين "طبعاً ولم أوفي أولادي بالفايظ كما يقول المثل". ذلك الدين كان من خالي عبدو فخر وقيمته ستماية ليرة لبنانية. وبالفعل لم أفِ ذلك الدين، ولكن كان يوجد لديّ مسدس ستار، استعاره ابن خالي رشدي فخر المرشح للنيابة آنذاك حيث اعتبرناه /أي الدَيْن/ بعد نجاح الخال في النيابة "هالقبع بهاالربع"، أي الستمائة ليرة مقابل المسدس المفقود والذي كان قد صادره الدرك من أحد الأشخاص الذين كانوا ينشطون في الحملات الانتخابية.

أعود للتأكيد بأن تقديري لأم فريد يفوق كل تقدير، ويمكن أن يكتب عنها قصة كاملة، نظراً للأحداث التي

وقعت لي بعد الزواج وتحملتها بشجاعة نادرة لا تقل عن شجاعة اي شيوعي مؤمن ومخلص لعقيدته، بحيث أن إخلاصها كان نابعاً فقط من "أن الشيوعيين أوادم" كما كانت تردد دائماً" (طبعاً قبل أن تصبح هي نفسها رفيقة).

وقناعة بهذا العمق الآتي ليس فقط عن معرفتها بالمبادئ الشيوعية فحسب، بل من خلال معرفتنا بمناضلين متفانين في طرابلس، أمثال يوسف خطار الحلو، احمد المير الأيوبي، اديبة الأشقر خالتها، فريد الأشقر خالها، وعائلة حبيب الأشقر بكاملها حيث كما قلت رُبيت وترعرعت بين أفراد تلك العائلة الشيوعية التي كانت تحتمل الاضطهاد والملاحقة والاعتقال والسجن بصبر وتضحية وشجاعة نادرة مما جعلها (أي أم فريد) تتفانى في مساعدتي لتخطّي كل الصعاب التي اعترضت حياتي كعسكري.

لذلك أعود للتأكيد بأن أقوى دعاية يقوم بها الشيوعي ليس فقط ما يتكلم به وما يطرحه من شعارات ويتعمق في دراسة الماركسية، وبالتحديد الذين يرددون آياتها بشكل ببغائي وينسون بأنها، أي الماركسية مرشد للعمل. أقول إن أقوى دعاية يقوم بها الشيوعي هي ممارساته العملية وتفانيه العملي وربط الكلام بالعمل، لأنني من خلال تجاربي الحزبية رأيت بأن معظم الرفاق الذين كانوا ينضمون إلى الحزب ليس عن اقتناع فكري، بل إيماناً بصدق الأعمال التي كان يقوم بها

الرفاق بتفانٍ ونكران ذات في سبيل إحقاق ما يحق للجماهير الكادحة من مطالب اجتماعية وسياسية.

إن أم فريد كانت من هذا النوع، أي من الذين اقتنعوا بالشيوعية بالعدوى كما يقال. أي إنها كانت تراقب وتلاحظ عمل الشيوعيين المتفاني منذ صغرها بحيث أحبت الشيوعية والشيوعيين، وكانت بتضحياتها لا تقل تفانياً عمّن سبقوها، لو لم تكن قد عصرها كبر العائلة وضيق ذات اليد. وهذه الحالة أخذت معظم أوقاتها، وقد ترعرعت في كنفها عائلة مؤلفة من ستة أشخاص، ثلاث بنات وثلاثة شباب، وكلهم مناضلون متفانون في خدمة حزبهم وشعبهم.

التحقيق مع أم فريد: كانت المراقبة شديدة عليَّ من جيرتي في حارة حريك تلك المنطقة التي كان يجيِّرها شمعون كيفما يشاء، إذاً فلماذا لا يشدّدون المراقبة على فارٍ من الجيش ينادي علناً بسقوط شمعون والأحلاف.

كان لا بد من هذه المقدمة لأنه ما إن عادت أم فريد من زيارتي إلى مقرّي الثوري حتى داهمتها الشرطة العسكرية واقتادوها للتحقيق، وبالطبع كان هذا العمل ناتجاً عن وشاية بها بأنها غادرت بيتها واتجهت إلى مقر المقاومة في الطريق الجديدة.

اقتادوها إلى قائد منطقة جبل لبنان باعتبار أنّ مدرسة

القتال مقرّي العسكري تابعة عسكريا لقيادة تلك المنطقة، وقد علمت من زوجتي بأن أحد أفراد الشرطة الذي رافقها عند الاعتقال كان يبكي طيلة الطريق، وطبعاً ممكن أن يكون هذا العنصر من معارفي أو من الأشخاص الوطنيين الذين عزّ عليهم اعتقال زوجتي وهو غير قادر على مساعدتها، وهذه حالات تحدث كثيراً في الحياة العسكرية.

لم يمض إلا القليل حتى وصلوا إلى ثكنة الفياضية، (مقر قائد المنطقة) فأنزلت من سيارة الجيب وقد احتفظت (كما أخبرني رفاقي في الثكنة) بكامل شجاعتها وعنفوانها، وكأني بها كانت تتحدى كل القوى الفاشية في العالم. واقتيدت إلى مكتب المقدم أبو طقة قائد الموقع آنذاك. فاستقبلها هذا الأخير بكل لطف ومودة خصوصاً بعد أن علم أنها من آل جعجع، وكما عبّر لها عن كرامة تلك العائلة وعراقتها اللبنانية الأصيلة.

بعد مقدمة من الترحيب، وجعلها تعتبر نفسها في بيتها وبأنه سوف يحافظ على كرامتها ولن يسمح بمس شعرة منها، إنما عليها أن تجيب عن بعض الأسئلة فقط ثم ستعود فوراً إلى بيتها وأولادها (الكلام للمقدم ابو طقه).

أجابت أم فريد بعد أن شكرته على حسن ضيافته بأنني مستعدة للإجابة على كل سؤال تطرحه عليّ:

س: هل زوجك شيوعي؟

ج: لقد كان زوجي شيوعياً ولكنه كما أخبرني ترك الحزب والشعبة الثانية على علم بذلك[٥١].

س: طيب ما دامو خبّروكِ، إنو بطّل يكون شيوعي ما خبّرك إنو بدو يهرب على المقاومة الشعبية؟

ج: طيب يا حضرة الضابط (كانت تجهل الرتب) حْساب إنو المسألة صارت معك، بتْخبّر مرتك إذا كان بدك تعمل هيك شغلي، وبتعرف إنو المرا ما بتتسلّم سر. يا عمي معقولي يخليني أعرف وتاركلي أربع طفاله وما حدا بيقدملهم شربة مي إلا هوي. والله والله لو عرفت لكنت خبرتهم بالمدرسة القتالية وخليتهم يكمشوه ولا يتركوه يعمل هالعملي، كان بالقليلة بقي قرب ولادو مين بدو يربيهم طفالا راح دب حالو ها الدبّي أنا عارفي شو بدو يصير فيه". وهنا فاضت معها المسألة وبدأت تبكي وتشهق وكانت الفرصة الوحيدة التي سمحت لها الظروف بفش خلقها كما يقول المثل الدارج، وبفشة الخلق هذه روّحت عن نفسها وكسبت عطف الضابط، وبدت وكأنها صادقة لا يشوب إفادتها أية شائبة.

فنهض المقدم أبو طقة واقفاً وبدأ يخفف من لوعتها وذكّرها بعائلتها قائلاً: أنتِ من بيت جعجع عائلة عريقة

---

(٥١) كانت الشعبة الثانية قد أجبرت الشيوعيين على توقيع تصريح بأننا لسنا شيوعيين وقد اتخذنا قراراً آنذاك بالتوقيع مع الحفاظ على التنظيم السرّي الجديد الذي انتقلنا إليه بعد خيانة دانيال.

لبنانية، وإن شاء الله بتنجلي الأمور وبترجع الأحوال لطبيعتها ويعود زوجك لعائلته.

ثم أعادوها إلى بيتها بالسيارة نفسها مع المرافقين بعد أن أوصاهم المقدم بإكرامها وبعدم التعرض لأي شيء في المنزل.

محاكمتي غيابياً: كان التدريب لا ينقطع. ففي النهار ندرّب على كيفية القتال واستعمال السلاح والرماية، وندرّب ليلاً على كيفية الحراسة وكيفية التوقيف والتعرف على الوافدين من خارج المنطقة، وكان هذا التدريب قد أعطى المنطقة دفقاً جديداً من المعنويات والثقة بالنفس، وبالطبع انعكس شراً على شمعون وأوساطه، فأوعزوا للإسراع بمحاكمتي وإصدار حكم الإعدام نظراً لأنّ نداءاتي اليومية قد أزعجتهم من خلال إذاعة "صوت العروبة" وجريدة "بيروت المساء" بحيث كنت أدعو الضباط والجنود إلى الثورة على شمعون وأحلافه.

انعقدت المحكمة العسكرية بسرعة وأصدرت حكمها بالإعدام عليّ وعلى خمسة من رفاقي بينهم علوان الحسيني الذي وضعوا اسمه بين المعدومين تغطية لاتصاله بالشعبة الثانية. أما الذين حوكموا بالإعدام معي فهم على ما أذكر:

- محمود العياش.
- ابراهيم علي ابراهيم.

- شخص من آل سكريه، محمد، على ما أعتقد.

إن الخدمات التي أدّاها هؤلاء الرفاق والأعمال التي ساهموا فيها كانت خير شهادة صادقة على وطنية الكادح الواعي المتفاني في سبيل خدمة شعبه ووطنه، وقد كافأنا الشعب البيروتي أحسن المكافآت بحيث كانوا يستقبلوننا بالترحاب وبالضيافة، ولم يمض يوم واحد إلا ويتقدم بعض الأهالي للتبرع بالأكل أو باللباس بحيث لم نشعر أبداً بأننا في غير بيوتنا وأهلنا. وهذا ما تعنيه الثقة بالشعب لأن الشعب عندما يرى المخلصين يتفانون عملياً في خدمته فسيتجاوب دون شك مع رغباتهم وتطلعاتهم مهما كانت، حتى ولو وصلت إلى التضحية الجسدية. وشهادة للتاريخ بأن هؤلاء الرفاق وحتى الجاسوس علوان الحسيني أدّوا خدمات جلّى، ونفذوا مهماتهم الثورية بشرف.

الإعدام الثاني: كنت في غمرة عملي التدريبي في باحة "البر والإحسان" في الطريق الجديدة قلعة العروبة وإذا بأحد المنضمّين يُعلمني بأن أحد العسكريين يريد أن يراني من كل بد وسبب، وقد سلّم نفسه لأحد المقاتلين كي يقوده إليك حيما تتواجد.

وللحال أوقفت التدريب في كل المشاغل وأمرت بالاستراحة لمدة عشر دقائق، وذهبت فوراً إلى ذلك الجندي الفار والعائد في الوقت نفسه، فلما رآني عرفني فوراً وأدى

التحية العسكرية قائلاً "احترامي سيدنا بدي شوفك لوحدك ضروري جداً". وكان الخوف بارزاً على وجهه. أجبته: "لماذا أنت خائف؟ هدئ من روعك وأنت بين إخوانك ومحبيك ما الخبر؟". وانفردتُ به في مكتبي وقلت له ماذا تريد: "يا سيدنا باعتينلك خبر من المحكمة العسكرية انو عبكرا بدهم يحكموك بالإعدام انت ورفاقك ولكن مش رح يتنفذ غير فيك. في احتمال بعد إصدار الحكم سيتم إخطارك لتسليم نفسك وإلا ستتخذ تدابير زجرية بحقك وبحق محمود العياش فقد اعتقلوا والده. لذلك يجب عليك نقل العائلة هذه الليلة من حارة حريك إلى طريق الجديدة أو أي مكان آمن آخر إذ من المحتمل اعتقال امرأتك وأولادك ليدفعوك لتسليم نفسك"، ثم تابع: "لقد نبّهوني رفاقك في الحزب بضرورة تنفيذ هذا العمل". سألته: "هل أنت شيوعي".

أجاب: "كلا يا سيدنا، بس بحب الشيوعيين كتير لأنني بعرفهم أوادم وأنت واحد منهم، لذلك قبلت بكل طيبة خاطر أن أنقل لك الخبر باعتباري مسلماً وليس عليّ خطر من اجتياز الحواجز، وقد عاملني الإخوان بكل ترحاب عندما قلت لهم خذوني لعند أبو فريد". شكرته وقبلته وكلفته بنقل تحياتي للرفاق ولكل الوطنيين في الجيش وقلت له أخبرهم ما رأيت بأم عينيك وانظر إلى الناس كيف يأتون بكل طيبة خاطر للتدريب.

ودعني ثم غادرنا يرافقه أحد المقاتلين إلى أن أوصله إلى

حدود مستشفى البربير حيث كانت هناك خطوط التماس عام ١٩٥٨.

جمْع شمل العائلة: البيت مراقب مراقبة شديدة، ما العمل لإيصال خبر للعائلة لترك البيت مع الأولاد فوراً. درست عدّة احتمالات ولكن معظمها كان غير مأمون العواقب لما يحيط بكل احتمال من مخاطر.

أخبرت الحزب بضرورة إرسال عائلتي إلى طريق الجديدة دون تأخير، وفي الوقت نفسه أرسلت لأحد أصدقائي المقرّبين ويدعى شريف خبراً بوجوب إحضار عائلتي فوراً من حارة حريك (وكانت آنذاك إحدى القلاع الشمعونية) إلى الطريق الجديدة، وكان هذا الصديق الصدوق يعرف مقرّي فلم ينتظر حتى هبوط الليل بل رأى كما قال لي: من الأفضل إحضارها نهاراً، بعد أن اتفق مع أم فريد بأن تخرج من البيت مع الأطفال وكأنها تريد التنزه حيث سيكون بانتظارها في مكان حدّد سلفاً.

وهكذا كان، فما إن وصلت العائلة إلى المكان المعين حتى وجدت شريف بانتظارها مع سيارته فتمّ نقلها فوراً إلى الطريق الجديدة دون أن يثير انتباه أحد على الرغم من المراقبة الدقيقة. ومن المحتمل أن تكون الخطة قد نجحت بتضليل المراقبين فاعتبروها عائدة مع الأولاد إلى البيت كونها تركته دون أن تأخذ منه شيئاً.

كان فرحي عظيماً بوصول أم فريد والأولاد ليلى وفريد وجمال ووفاء. وما إن حطت بهم الرِّحال حتى بدأت النساء يتسابقن على استقبال أم فريد مع الأولاد في بيوتهنّ، ولكنني فضلت السكن في أحد بيوت آل..... الذين قدموا لي بيتهم مفروشاً وهو يحتوي على جميع اللوازم البيتية حتى المؤونة. وكانوا فرحين بي وبعائلتي وكأنني أحد أبنائهم أو عائلة منهم، لأنهم لم يكتفوا بتقديم البيت بل كانوا على استعداد لتقديم كل ما يلزمني من مصروف يومي. وكانوا يعتبرون أنفسهم مقصرين تجاهي كما كانوا يقولون لي، بأن لي عليهم حقاً كبيراً لأنني ضحيت بمستقبلي وبراحتي، وكانت عائلتي على وشك الاعتقال أيضاً فمهما قدّموا لي، والقول لهم، هو قليل بالنسبة لما قدمته من خدمات للوطن، خصوصاً محاربتي للأحلاف وللتعصب الطائفي. وهكذا كان الجميع يأخذونني كأنموذج لعدم وجود طائفية في صفوف المقاومة الشعبية وخصوصاً عندما أتى الأميركي "مورفي" إلى لبنان عام ١٩٥٨ وقام بزيارة السيد صائب سلام فكنتُ آنذاك الدليل المادي على أن لا وجود لانقسام طائفي في لبنان، كما يدَّعي شمعون إنما يوجد معارضة من الجميع لأي انقسام طائفي ولأي خرق مهما كان مصدره.

وحتى اليوم، وعندما نتذكر تلك الأيام تقول أم فريد عنها بأنها من أجمل أيام العمر بالنسبة للعناية التي كانت تحاط

بها من قبل نساء الحي. ولولا الانفجارات وإطلاق الرصاص لكانت أجمل أيام العمر قاطبة.

إنشاء مركز للحزب: كنا بحاجة ماسة لإيجاد مركز يستوعب جميع الرفاق تدريباً ومنامة، وقد لعب الدور الرئيسي في إيجاد هذا المركز المرحوم المحامي محمد الخطاب الشخصية السياسية المحبوبة في منطقة البسطا. وقد سعيت معه مع المقدم عبد الحميد سلام الذي وافق فوراً على طلبنا بفتح أبواب مدرسة عائشة أم المؤمنين والكائنة قرب الحرش. ومنذ ذلك الوقت أصبح ذلك المركز محط الأنظار من الأصدقاء ومن الأعداء على السواء، وكم جرت محاولات وصلت إلى حد التآمر على ذلك المركز الذي فرض وجوده وهيبته ليس بقوة السلاح، إذ إن هذه القوة على الرغم من أهميتها في ذلك الوقت كانت تأتي بالدرجة الثانية بالنسبة لما كان يتمتع به الشيوعيون من عزّة نفس وكرامة واحترام واهتمام بقضايا الناس في كل ممارساتهم العملية. وهذا ما جعل معظم المحاولات تفشل، لأن الجماهير كانت معنا. وهنا لا بد من التأكيد بأن العمل الجيد بين الناس هو الذي يتعمّق بين الجماهير. أما الشعارات والأهداف، وأي خط سياسي لا يأخذ بالاعتبار الممارسات الصحيحة ويقترن بها، يبقى لا يساوي الحبر والورق الذي يعكسها، لأن الناس تحس وتشعر بالممارسات وليس بالشعارات.

تمكنّا من الحصول على المدرسة كما قلنا بواسطة إذن من المقدم عبد الحميد سلام والذي عوتب كثيراً على هذا السماح إذ إن الملامة كانت تزداد على هذا المقدم الطيِّب كلما ازدادت شعبية الحزب ونفوذه، ولكن لم تنجح أية مؤامرة، بل بالعكس كانت المؤامرة تنقلب على أصحابها. والسبب يعود في الدرجة الأولى إلى قيادة المركز السياسية التي كان يمثلها الرفيق محمد الخطاب والقيادة العسكرية التي كنت أمثلها أنا، وإلى ممارسات الرفاق، جميع الرفاق، والذين سآتي على أهم ما حدث لبعضهم في المركز.

لقد كان ذلك المركز كخلية النحل يعجّ بالرفاق وتتكثف فيه التدريبات العسكرية وخصوصاً الرماية منها، وكان الرفاق، بالإضافة إلى ما يتحلّون به من صفات شيوعية، يلتهمون الدروس والتمارين بلهفة وحماس قلّ نظيرهما، وكانوا يرددون: يا رفيق لا تنسَ بأننا لأول مرة نحمل السلاح ونقاتل ليس فقط نحن بل أي حزب شيوعي عربي يحمل السلاح ويقاوم الأحلاف بالسلاح، وبالفعل كان الموت من نصيب حلف بغداد الذي سقط بواسطة القوات التي كانت مرسلة إلى لبنان بقيادة عبد الكريم قاسم لضرب الثورة، ولكن الضربة وُجّهت لذلك الحلف اللعين ولعملائه كعبد الإله ونوري السعيد واتباعهم.

الحياة في المركز: الحياة كانت عسكرية بكل ما تحوي

هذه الكلمة من قساوة ومشقة. فجميع الرفاق دون استثناء مجبرون، بالإضافة إلى الحراسات والدوريات الليلية، أن يكونوا في الصباح جاهزين للنظافة الفورية بعد النهوض مباشرة والتي كانت تستغرق ربع ساعة تقريباً، يتلقون بعدها إشارة الاجتماع حيث ينخرط الجميع بالطابور وننشد جميعاً أحد الأناشيد الوطنية، ثم نبدأ بالدرس الرياضي الذي يستغرق ثلاثة أرباع الساعة تقريباً، والذي نختتمه أيضاً بنشيد وطني كان الناس الذين يقطنون في البيانات من حولنا يرددون معنا فرحة تلك الأناشيد، وكم رفضنا من المتحمسين الذين أرادوا الانخراط في صفوفنا، وكان السبب الرئيسي في ذلك بأنه لم يكن لدينا المكان والمدرّبون الذين يستوعبون المزيد غير الرفاق طبعاً.

كنا نعيش في ذلك المركز أعراساً يومية، وكنا والرفاق نؤلف عائلة واحدة بالرغم من أننا من مختلف المناطق والمذاهب والأديان، وهنا تكمن قوة التعاليم الشيوعية التي لا تنظر إلى الإنسان إلا من خلال كفاءته وقدرته على الخدمة والانخراط بين الناس. وهنا لا بد لي إلا أن أذكر ما بقي راسخاً في ذاكرتي عن تلك الحقبة التاريخية.

فالرفيق محمد الخطاب هو ذلك الرجل الرصين الخلوق والمحب، والفضل الأول يعود لهذا الشاب المندفع حماساً والمتوقّد الذهن. إذ إنه هو الذي أعلمني بأن من الواجب عليّ الالتحاق بمنظمة الحزب والسهر على تدريب الشباب

والرفاق، هذا بالإضافة إلى شعبيتي الكاسحة في ذلك الوقت والتي يجب استغلالها إلى أقصى حدّ حسب قول محمد الخطاب. لقد أعلمني، أو بالأحرى اتصل بي بواسطة أحد الرفاق الذين لا أعرفهم، ولكن عندما قال لي إنّ الرفيق محمد الخطاب هو الذي طلب مني أن أقول لك ذلك، ولا أدري ما هو الشيء الذي جعلني أرضخ دون مناقشة لأوامر رجل لم أعرف عنه شيئاً سوى أن اسمه كان يتصدر تواقيع المحامين المدافعين عن السلم. هل هي الروح العسكرية؟ أم الانضباط الحزبي؟ أم شوقي للاتصال بالحزب بأية طريقة كانت حتى ولو كانت عن طريق أنصار السلم؟ يمكن أن تكون كل هذه الخلفيات، وإن كنت أعتقد بأن تعطشي للاتصال بالحزب هو الدافع الأقوى.

للحال رفضتُ تعييني عضواً في المجلس العسكري لبيروت، في بيت صائب سلام، وقلت بأنني سأمارس عملي في هذا المجلس، ولكن مقري يكون مع الشيوعيين لأنني لا أؤمن إلا بالعمل معهم، فرضخ الجميع لرغبتي وبقيت في مركز الحزب بينما كنا قد وزعنا رفاقنا العسكريين على معظم النقاط الحساسة في المقاومة الشعبية وفي بيت صائب بالضبط.

وكان الرفيق آنذاك محمود العياش في طليعة العسكريين الذين ساعدوني على ترسيخ التدريب العسكري للحزب

خاصة، ولجميع عناصر المقاومة الشعبية عامة، بحيث لم يبق مركز إلا وتدربت عناصره على الحراسة وكيفية استعمال السلاح والرماية. وكنا بواسطة هؤلاء الرفاق على علم بكل ما كان يجري في المقاومة من سلبيات وإيجابيات بالنسبة إلينا أو لغيرنا. وسآتي بالتفصيل على حياة باقي الرفاق الذين كانوا معنا والذين لا أزال أذكرهم.

١٤ تموز عام ١٩٥٨: الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ كان يوماً أسود على الأحلاف وعلى المروّجين والساعين لها؛ فالسقوط المريع لذلك الحلف واتباعه، أعطى دفعاً جديداً للمقاومة الشعبية ولجميع المناضلين من أجل السلم والحياة الأفضل والأوطان السعيدة، بقدر ما انعكس هلعاً على كميل شمعون وجميع مناصري الأحلاف والمروّجين والساعين لها.

وأذكر بأنني كنت ساهراً عند أحد الأشخاص من آل الذهبي في طريق الجديدة ليلة انهيار الحلف، طبعاً كان معي بعض الرفاق خصوصاً سعد سمهون الذي لم يفارقني أبداً. وسألني صاحب البيت "ماذا تتوقع بعد انهيار حلف بغداد؟" فأجبت بالحرف الواحد: "إن سقوط حلف بغداد ضربة قوية لأميركا وأتباعها، وإنها، أي أميركا، حفظاً لمعنوياتها ومعنويات حلفائها أيضاً، ستوجه ضربة في مكان ما تكون حلقته ضعيفة، وهذا المكان هو لبنان. ولكن لا أعلم ماهية

تلك الضربة ونوعيّتها، وسيكون هدف تلك الضربة إيقاف المد الثوري الذي حصل في العراق وفي لبنان".

وعصر اليوم الثاني من تموز عام ١٩٥٨ أتى صاحب ذلك البيت راكضاً يسأل عني بلهفة وفزع. وعندما واجهته سألته عما به؟ فقال: "يا أبا فريد، شو أنت نبي؟ مبارح خبّرتني إنو اميركا بدها تضرب لبنان، تفضل هلق تلفنولي من الجناح إنو الأسطول السادس عم بينزّل عسكرو على الشاطئ".

فوجئت بالخبر على الرغم من توقعاتي المسبقة، ولكنني لم أكن أتصور بأن الرد سيكون بهذه السرعة. وللحال سألت من يقاوم الإنزال فأجابوني بأنه لم تطلق طلقة واحدة في وجه الغزاة، عند ذلك استنفرت ما يقرب من الثلاثين جندياً من المنضمين إلى الثورة وحدّدت لهم نقطة التجمع في نادي الخريجين للمقاصد في البسطة. ولما اكتمل النصاب أردت أن أخرج وإياهم لملاقاة الغزاة، ولكني وجدت النادي محاطاً بالمقاتلين الذين منعوني من الخروج مع جنودي فأقنعتهم بالسماح لي أن أذهب وحدي كي أقابل صائب سلام. فسمحوا لي وحدي، وذهبت توّا إلى منزل صائب سلام وشكوت له ما حصل معي، وكيف أن مقاتليه منعوني من الذهاب لمقاتلة الغزاة الأميركيين ومحو عار اللامقاومة إذ إن جميع الأخبار تؤكد بأن نزول البحرية الأميركية على الشاطئ لم يقاومه أحد.

عند ذلك أثنى صائب سلام على شجاعتي ووطنيتي وأخبرني بأن أوامر المنع كانت منه وهو على علم بكل تحرّكاتي، لذلك هو يمنعني من الانتحار حتى ولو كان على حساب نزول الاميركيين دون مقاومة. ولا تخف، فالجيش تحرك ضد الإنزال وما علينا إلا التعاون مع الجيش اللبناني لمقاومة هذا الغزو، وبالفعل تم هذا التعاون وكنت ترى أفراد المقاومة يتمركزون قرب عناصر الجيش للقتال ضد الإنزال كتفاً إلى كتف.

إنّ عملية الإنزال تمّت في مدة ساعتين تقريباً، وكان يمكن القيام بعدة عمليات ضدها، ولكن الأوامر حتى أوامر الحزب كانت منساقة مع رغبة صائب سلام في عدم المقاومة.

وفي اليوم الثاني صدر مقال في مجلة "الحوادث" عنوانه محو عار اللامقاومة بقلم سليم اللوزي. وعندما قلت له بأن العنوان مأخوذ من كلماتي عند صائب سلام أجابني: صح ألا تذكر بأنني كنت موجوداً عندما كنت تطلب منه بتوسل كي يعطي أوامره لعناصره بفك الحصار عن النادي، لذلك فإنّ المقال جاء انعكاساً لتلك الواقعة.

صائب سلام حاول اعتقالنا: احتفاءً بنا، دعاني السيد صائب سلام مع معين حمود ومحمود العياش وأتذكر وجود رفيقين معنا أيضاً يمكن أن يكون أحدهما ابراهيم علي ابراهيم. دعانا إلى حفلة عشاء حيث بقينا عنده إلى ساعة

متأخرة من الليل، وهو يحدثنا في الشؤون السياسية والعسكرية، وعندما أردنا الاستئذان للعودة إلى مراكزنا، رفض السماح لنا باعتبار أن الدنيا ليل ولا يجوز أبداً السير في ساعة متأخرة كهذه. "بيتنا هون، أهلاً وسهلاً فيكم والصبح من غير شر بتقوموا على مهلكم بتتروقوا وبضلكن رايحين". ولم نلحظ أي نية سيئة بل وجدنا الأمر طبيعياً والسبب واضحاً.

وتشاء المصادفات أن ينهض محمود العياش بعد قليل قاصداً بيت الخلاء ولكنه فوجئ بوجود خفير عند المدخل الخارجي، فتجاهل الحارس وذهب وقضى حاجته وعاد من دون أن يترك مجالاً للحارس بأن يشعر بوجوده. وللحال بادر محمود إلى إيقاظنا وأخبرنا بأنه مقبوض علينا. لذلك اتفقنا بأن يحاول محمود الخروج وكان الفجر قد بدأ ينبلج، فإذا مُنع من الخروج نتحرك جميعنا بأسلحتنا ونعتقل الحارس أثناء محاورته محمود. وهكذا كان، وقد أبدى الحارس اعتذاره وأعدنا له أسلحته دون ذخيرتها. وهكذا نجونا من الاعتقال، ولكن معين اعتُقل في مكان آخر فيما بعد.

بلبلة: تدنيس الأسطول السادس للمياه اللبنانية، ثم نزول بحارته إلى الشاطئ دون أية مقاومة جعل الجميع دون استثناء في قيادة المقاومة الشعبية في حيرة وبلبلة انعكس نوعاً من الذعر عند الجماهير، مما اضطرني للذهاب إلى إذاعة

"صوت العروبة"، وكنت قد دبجت بياناً أحثّ الجماهير على الصمود ومقاومة الغزاة دون خوف أو وجل، وعليهم، أي الجماهير المقاومة بأية وسيلة توافرت لديهم. فأسلحتكم عديدة ومتنوعة ومتوافرة. فعليكم بالزيت المغلي، والحجارة، وتنك الزهور والمعاول والرفوش والفؤوس وقضبان الحديد والعصي والمنجل كما كانت بور سعيد "ستالينغراد" العرب. فاجعلوا من بيروت بور سعيد لبنان[٥٢] والعرب. ولكن الأخ شفيق جدايل سامحه الله أبى إذاعة البيان ما لم يطلع عليه صائب بك. فذهبت للحال إلى بيت صائب سلام فوجدت الجماهير محتشدة تطالب بالسلاح للقتال ضد الأميريكان. وما إن رأوني حتى هتفوا بمعظمهم "بدنا سلاح يا ابو فريد". عند ذلك خرجت إلى الشرفة مع صائب بك الذي وافق على أن أذيع البيان من الإذاعة دون ذكر ستالينغراد بل أكتفي بالقول: "وكما كانت بور سعيد البطلة في مقاومتها كذلك بيروت ستكون بور سعيد العرب". وهكذا أُذيع البيان بعد أن كان صائب بك قد أوعز إلى الناس بالتفرق والاستماع إلى البيان الذي سيصدر من الإذاعة حول التسلح. وبالفعل فإن إذاعة البيان شددت من عزيمة الناس، ونشرته في اليوم الثاني جريدة "بيروت المساء". وقد عادت إلى الجماهير ثقتها

---

(٥٢) بور سعيد: أقصد مقاومة المدنية الباسلة عند حدوث العدوان الثلاثي.

بقدرتها بعد أن تبيّن لها وفرة السلاح بين أيديها، وكذلك المشاركة الفعّالة والتعاون المخلص الذي حدث بين الجيش والشعب لمقاومة الغازي.

موقف الجيش: منذ لحظة الغزو الأمريكي للشواطئ اللبنانية ١٥ تموز عام ١٩٥٨ وقف الجيش وقفة باسلة، وكان على رأسه اللواء فؤاد شهاب. إذ إنه عمم أوامره على القطاعات العسكرية للتعاون مع الجميع لمقاتلة الغزاة والابتعاد عن أي عمل يعرقل هذه المقاومة. وقد أخبرني ابن خالي طانوس شحود، وكان مرافقاً للواء شهاب، بأنه كان يقود السيارة التي نقلت قائد الجيش وقائد الأسطول مع رتل من سيارات الجيب الأميركية. وقد لاحظ اللواء شهاب بأن أحد الشباب يقف على الرصيف ويصفق للأميركيين ويرفع بيده إشارة النصر. عندها أوقف اللواء الرتل بأكمله وأمر طانوس بأن يذهب إلى ذلك "العكروت" الذي يصفق ويضربه ضرباً مبرحاً، وأن يفهم المصفّق بأن الضرب كان جزاء لترحيبه بالمحتل. وهكذا كان، فنزل طانوس وهو ذلك الشاب القوي والوطني، ووجّه له عدّة لكمات رمته أرضاً وتابعها ببعض الركلات من قدميه ولم يترك له مجالاً حتى يستغيث لأنه منذ اللكمة الأولى فقد الوعي وفقد القدرة على النطق.

وكما علمت أيضاً بأن اللواء شهاب كان يبكي عندما رأى جنود الأسطول تدنّس الشواطئ.

الاستعداد للمقاومة: اجتمعت القيادة العسكرية للحزب وقررت المقاومة حتى النفس الأخير وبشتى الوسائل، وقد أذيع بياني التحريضي عدّة مرات من إذاعة "صوت العروبة". كذلك بدأنا بتهيئة زجاجات المولوتوف وهي السلاح الوحيد الذي كان متوافراً لدينا. وقد جهزنا هذا السلاح تجهيزاً متقناً، وساعدنا بذلك وجود المقدم درويش "ضابط هندسة" بيننا حيث أشرف هو شخصياً على تعبئة الزجاجات وإضافة بعض المواد إلى المازوت.

كان يُشرف على قيادة المجموعات الحزبية الرفيق كريم مروّة يساعده أحد الرفاق على رأس كل مجموعة حيث كنتُ أنا منهمكاً بتنظيم زحف الشباب الذين بدأوا يتوافدون إلى مركزنا من جميع أنحاء بيروت الغربية، ولأن الزحف الأميركي كان يتجه إلى مركزنا مباشرة فقد صدرت الأوامر للجميع بالحضور إلى الحرش ليضعوا أنفسهم تحت تصرفي لتنظيم المقاومة.

أحاط بي بعض الرفاق ينتظرون مني الأوامر كي ينقلوها إلى المراكز ويُخبروهم بمنع أي اشتباك دون أوامري.

لم أرَ طيلة حياتي تجاوباً كما رأيت في ذلك اليوم، فآلاف الشباب كانوا يأتون قائلين: "نحن باعتنا صائب بك، ونحنا باعتنا الارناؤوط، ونحنا باعتنا عبد الحفيظ كريديه، ونحن باعتنا حسن اليتيم، ونحنا باعتنا جميل شاتيلا، ونحنا

أولاد الحلبي، ونحنا باعتنا النويري، ونحنا باعتنا محمود الرخا، ونحنا باعتنا شهاب الدين الخ..." إلى سائر ما هنالك من تجمعات تابعة لزعماء الأحياء، والجميع كانوا يقولون: "نحن تحت تصرفك شو بتريد نعمل". فكنت أرشد كل مجموعة بعد أن أكلف مسؤولاً عنها كي يبقى على اتصال بي ويتلقى أوامري، أرشدها إلى مكان تمركزها بعد أن أوصيها بالتقيّد التام بأوامري وإلّا فالموت هو جزاء من يخالف الأوامر في الحرب.

وكم وجدتُ صعوبات لإقناع ما يقرب من نصف العدد بالعودة إلى المراكز الأساسية نظراً لخطورة إفراغ معظم المراكز من المقاتلين، بحيث أنّ كلاً منهم يرغب في أن يكون البادئ بالصدام مع الأميركيين. ولكن الأوامر بقيت كما كانت ولم تزل "ماكو أوامر".

الشيوعيون أوقفوا زحف الدبابات: ليس من باب التمايز أو التقليل من قدرة الآخرين، إنما مركزنا "مدرسة عائشة أم المؤمنين" هو المركز المتقدم والأول بالنسبة لخط زحف الدبابات الأميركية، التي كانت تتجه من الأوزاعي والمطار باتجاه طريق الجديدة. ولما كان الليل قد بدأ يرخي سدوله، أمرت الرفاق بالتسلل من المدرسة إلى الحرش وبمحاذاة جدار التصوينة التي تحيط بالحرش، حيث بإمكانهم الوصول إلى قرب الدبابات الأميركية وعلى المسافة التي تمكنهم من

رمي زجاجة المولوتوف بعد إشعالها، تلك المسافة التي تتراوح بين الخمسة والعشرين والثلاثين متراً. وحذّرتهم بعدم الإتيان بأي حركة أو قذف أي زجاجة دون أن يسمعوا صفارتي المميزة.

بدأ الرفاق يتسللون وبمحاذاة الجدار الغربي كما أوصيتهم بحيث كان كل منهم يحمل زجاجتي مولوتوف وسلاحاً فردياً كان إطلاق الرصاصة منه يتطلب معجزة ومهارة فائقة، إما لقدمه أو لعدم وجود الذخيرة.

تابعت الدبابات زحفها بعد مستديرة شاتيلا شمالاً باتجاه مركزنا، وكأنها كانت على موعد اللقاء مع رفاقنا الشجعان والذين كان سلاحهم الرئيسي إيمانهم بقدرة شعبهم وقيادة حزبهم.

وبالفعل وصلت الدبابات إلى قرب بناية بيضون على مدخل طريق الجديدة الشرقي، وما كدت أوشك على وضع صفارتي في فمي لإطلاق الإشارة المتفق عليها، حتى توقف الزحف، وبدأنا نسمع تبادل أصوات اتصال اللاسلكي فيما بينها، وما هو إلّا القليل حتى عادت تلك الدبابات من حيث أتت وتمركزت بعيداً عنا على دائرة شاتيلا. وأذكر بأن أحد الرفاق لم يتمالك نفسه عندما أصبحت الدبابة على مسافة لا تزيد عن الخمسة عشر متراً منه، فقذفها بقنينة مولوتوف دون أن يولعها أولاً فانكسرت القنينة على الدبابة إنما أرعبت طاقمها.

وقد علمتُ في اليوم الثاني بأن صائب سلام أنذر الأميركيين بأن عليهم إيقاف زحفهم لأن أول صدام لهم سيكون مع الشيوعيين المتمركزين في المقدمة، ولا أعلم إذا كان هذا هو السبب الوحيد أو هو أحد الأسباب الرئيسية؟؟؟

إبعاد عائلتي: كان الخوف جدّياً من اجتياح أميركي للمنطقة، لذلك صدر قرار بإبعاد زوجتي وأولادي وإرسالهم إلى قريتي عندقت. ولكن ما العمل في أن امرأتي وحيدة وغريبة عن القرية وليس لها أي معرفة بالطرقات ولا بوسائل النقل غير المتوافرة آنذاك، لذلك لجأنا إلى المتطوعين.

لدى أحد الأشخاص من آل الحوري سيارة أميركية تطوع لنقل العائلة مع الرفيقة البطلة أم عاصم رعد التي تطوعت لمواكبة العائلة إلى حمص (طبعاً كان السفر عن طريق سوريا) أو إلى طرابلس أو أي مكان آخر. وهكذا حُلَّت المشكلة وتركتني العائلة بعد أن بقيت طيلة الليل أقنع أم فريد بخطورة بقائها معي والأولاد، "خصوصاً وأن الأميركيين سيجتاحون المنطقة، فماذا سيكون مصيركم إذا علموا بأنكم عائلتي. فالأفضل والأضمن ذهابك فإن متُّ أنا فستبقي إنتِ والأولاد والحزب سيتولى أمركم فلا خوف على مستقبلكم وإذا بقيتُ حياً وهذا محتمل أيضاً لأن ليس كل الذين يقاتلون يموتون، نكون قد نجونا جميعاً، وأكون قد حُرمت نعمة الاستشهاد".

وهكذا اقتنعت وذهبت ولكن ماذا حصل لها أثناء ذهابها بعد أن دخلت الأراضي اللبنانية ووصولها إلى حلبا؟

عادت أم عاصم إلى بيروت بعد أن اطمأنت إلى وصول العائلة إلى حلبا، وكانت قد عادت من حمص مع الحوري بعد أن أمّنت انتقال عائلتي إلى حلبا بواسطة إحدى سيارات الأجرة.

ولكن ما إن وصلت أم فريد إلى حلبا حتى ارتفعت حرارة فريديريك إلى الأربعين، ولأنه لم يكن يوجد طبيب هناك فكانوا مضطرين للنزول إلى طرابلس. وكيف يمكن النزول إلى طرابلس والطرقات مقطوعة بواسطة حواجز الجيش، واسمي معمم على كل الحواجز. وهنا أيضاً تدارك الرفاق الأمر، خصوصاً الرفيق حسني الأشقر الذي تطوّع لمرافقتها إلى طرابلس بالرغم من أن الجيش كان يطارده أيضاً نظراً لنضاله الدؤوب ضد الأحلاف. ولم يتمكن الرفاق من ثنيه عن قراره باعتبار أنه خبير بالتسلل بين النقاط التي لا يسيطر عليها الجيش.

كان الانتقال من حلبا إلى طرابلس آنذاك يمر في مرحلتين مرحلة أولى من حلبا باتجاه حاجز المنية، ومن هناك، أي قبل الوصول إلى الحاجز، يتسلل المناضلون في سقي طرابلس المنية سيراً على الأقدام حتى يصلوا إلى المنطقة الوطنية، عند ذلك يصعدون إلى الطريق العام ويمتطون أول سيارة أجرة تصل إليهم.

وهكذا حدث مع عائلتي المؤلفة من زوجتي وأولادها الخمسة حيث كان عمر الصغيرة هدى لا يزيد عن الأربعة أشهر. انتقلوا بسيارة أجرة إلى ما قبل الحاجز بقليل. وهنا بدأ السير الشاق المضني خاصة على سيدة كأم فريد لم تشقَ بحياتها ولا مرة واحدة، ولم تكن تعرف ما معنى تحمّل المشاق الصعبة عدا عن أن جسدها الغض غير قابل لهكذا مشاق.

حمل حسني ولدين وأم فريد ولدين وبقيت ليلى فوضعوها فوق ظهر الحمار الذي استأجروه لنقل الحقائب، ثم بدأ السير في بساتين السقي المغمورة عمداً بالمياه لعرقلة تسلل المناضلين، وهنا كما أخبرتني أم فريد "عينيك ترى كيف كان سيرها مع أولادها"، وما هي الجهود الرهيبة التي بذلها حسني الأشقر ليتمكن من الخلاص مع عائلتي من تلك الأوحال، حيث كان الخوف ينتاب الجميع على صحة فريدريك، وكذلك الخوف من أن يراهم الجيش ويقصفهم أو يعتقلهم، وكذلك الخوف من عدم التمكن من الخلاص في تلك البساتين الموحلة خاصة وأن نَعْلَي حذاء زوجتي قد انسلخا مما زاد الطين بلّة، وأصبحت تسير حافية القدمين، ولم تصل إلى طريق الآمان إلا وكانت قدماها مشققة والدماء تسيل منها بالإضافة إلى قواها المنهوكة إلى درجة الانهيار. يا لكِ يا أم فريد من رفيقة طيبة وشجاعة كم تحملت من عذاب

وآلام منذ اليوم الأول لزواجنا، وحتى الآن لا تزالين تلك المناضلة الشجاعة التي لم يُرهبها شيء برغم كل العقبات والملاحقات التي رافقت حياتك جميعها معي، ولم تُرهبك حتى أحكام الإعدام والاتهامات المجرمة التي كانوا يلاحقونني بها، ويهددون لقمة عيشي ومستقبل العائلة بأسرها تارة بالترغيب وتارة بالترهيب. أرى نفسي عاجزاً يا أم فريد عن إيفائك حقك مهما كتبت عنك. ولكن عزائي الوحيد هو أنك لا تزالين في صحة جيدة تسهرين على تربية عائلتك الشيوعية التي أصبحت تفوق الخمسة عشر شخصاً. وشكراً لعنادك الوطني الذي جعل تلك الصلابة الشيوعية تصمد برغم الجوع الذي عضّنا مراراً. وها نحن الآن نتخطى وعائلتك كل تلك الصعاب ونسير بفخر واعتزاز تحت راية حزبنا المرتفعة عالياً عالياً بعد مؤتمرنا الثاني فكيف وقد أصبحنا في مرحلة التحضير للمؤتمر الخامس.

لم تنتهِ المأساة: وللوصول إلى بيت عمي في طرابلس "شارع لطيفة" يجب أيضاً المرور على حاجزين للجيش، فما العمل؟ قالت أم فريد: حسني مطلوب من الجيش وكذلك أنا والعائلة، وبالتالي أصبحتُ مع أولادي الصغار لا نقوى على السير ولو خطوة واحدة خصوصاً وأن قدميَّ قد أصبحتا دون حذاء بعد أن تمزق عند انتقالنا بين المناطق البعيدة عن

حراسة الجيش، لكنّ الذي كان يزيد الأمر صعوبة أن ولدي فريد كان يبكي وتزداد حرارته ارتفاعاً، عند ذلك تم الاتفاق على الانتقال بالسّيارة والوصول إلى البيت ورؤية الطبيب مهما كانت النتائج.

وافق الرفيق حسني الأشقر واستأجروا سيارة ركاب، وانتقلوا بها مع بعض الركاب من طرابلس. ولدى وصولهم إلى الحاجز الأول تبين أن هذا الحاجز كان يحرسه المعاون أول الياس فخر ابن خالي والمعروف بعدائه للمقاومة الشعبية وبقصر نظره السياسي وحب الكنفشة وتبييض الوجه حتى ولو كان على نفسه.

كما أخبرتني أم فريد أن الجميع خافوا من النتيجة ولكن تشاء المصادفات أن يفتش السيارة عسكري أدنى رتبة من الياس المذكور ولم ينتبه لا لحسني ولا لأم فريد والأولاد. وهنا كانت قد بدأت الفرحة تدخل قلوب الجميع بعد أن تخطوا الحاجز الأول بسلامة. وأضاف حسني: بقي علينا أن نتخطّى حاجزا آخر، وهذا الحاجز يرأسه أيضاً أحد الرتباء من عندقت ولكنني لا أعرف اسمه. فقالت أم فريد "ليكن كائناً من كان فأولاد عندقت جميعهم أوادم وهم يحبون بعضهم بعضاً وبخاصة يحبون أبا فريد، وما دام زمطنا من الياس فخر فالنتيجة ستكون جيدة".

وبالفعل كان يرأس الحاجز الثاني الرقيب يوسف طربيه

وهو أحد أقربائي اللزم، وقد تعرّف على أم فريد والأولاد وعرف حسني الأشقر. ولكنه تعامى عن وجود الجميع بالإضافة إلى تطوّعه بأن يقوم بأي خدمة يطلبونها منه، ولم يكتف بذلك بل سألها عن صحتي وعن أحوالي فطمأنته بأنني بصحة جيدة، وإنني أسلّم على جميع أبناء القرية ما عدا الياس فخر الذي كان شيوعياً سابقاً واستقال من الحزب. ولكن الأخبار عنه بالنسبة لعمله ضد المقاومة الشعبية كانت سيئة جداً، وكان على مستوى واحد تقريباً مع المقدم أنور كرم والضابطين شوقي خيرالله وناجي الأحمد اللذين كانا ينتميان إلى الحزب القومي السوري. فكان جميع هؤلاء الرتباء والضباط لا يتورّعون عن ارتكاب أي عمل شنيع ضد عناصر المقاومة الشعبية التي كانت تقع أسيرة بين أيديهم أو يشتبهون بها. لهذا السبب كنت أحذّر الجميع بأن يكونوا يقظين في تعاملهم الوطني مع الياس فخر بالرغم من أنه ابن خالي وكان شيوعياً سابقاً.

وهكذا وصلت عائلتي إلى بيت عمي جعجع بحيث لقوا ترحيباً من الجميع، وفوراً نقلوا فريد إلى المستشفى، واتصلوا بي من هناك فاطمأنيت لوصول العائلة، وبذلك الخبر شعرت وكأن حملاً ثقيلاً رُفع عن كاهلي، خصوصاً وأن هاجساً دائماً كان يرافقني طيلة ثلاثة أيام لم أذق النوم خلالها ولم أعرف كيف أتدبر أمري، فكنت كالضائع أو التائه لا أعرف

أين تحطّ بي الرحال، فعادت إليّ حيويتي وعدت إلى طبيعتي أملأ الدنيا أوامر وتوجيهات لا تخلوا أبداً من النكات، وانصرفت كلياً لترتيب بعض العمليات ضد الغزاة الأميركيين.

التعامل مع الأميركيين: كان الرأي السائد هو عدم التعرض للأميركيين باعتبار أن قائد الجيش فؤاد شهاب وصائب سلام وبقية قادة المقاومة الشعبية لا يريدون توريط المقاومة الشعبية والثوار، لأن القوى متفاوتة وأي عمل ضد الأميركيين سيعطي مبرراً لهم كي يضربونا بقسوة وحتى يقضوا علينا.

عدتُ إلى رأي الحزب، فكان الرأي منقسماً بين مؤيد للتعامل بالسلاح مع الأميركيين وبين معارض لهكذا أعمال. لذلك قررت العمل بمفردي مستنداً إلى رأي الرفاق القلة الذين أيدوا رأيي بمقاومة الأميريكيين بالسلاح، وبما أنه لم يكن لدينا أي متفجرات، ومعلوماتنا بدائية من هذه الناحية قررت الاستعانة بأحد صيادي الأسماك وهو من آل ستيتية على ما أعتقد، فزوّدني بما يلزم من أدوات لصنع متفجرات وكانت عبارة عن بعض المسامير وقليل من القطع الحديدية وبعض أصابع الديناميت وسطلين سمن فيجيتالين فارغين على ما أذكر. وما هي إلا ساعات حتى مزج هذا الصياد الماهر جميع هذه المواد بعضها مع بعض ووضعها داخل السّطلين

الفارغين. عند ذلك سألني أين ستستعملها يا رفيق؟ قلت إن الأميركيين يتمركزون في بناية البان اميركان قرب تمثال رياض الصلح، ونحن لا يمكننا الاقتراب منهم إلا على مسافة ما يقرب من الخمسة وعشرين متراً حيث الطريق المؤدي إلى البناية التي يتمركز فيها جنود البحرية الأميركية(٥٣).

عاد الصياد فتأكد من المسافة التي تفصل بين مكان الإرسال وبين تمركز الأميركيين. عند ذلك قطع فتيلاً واحداً لكل من الوعائين ووضع الفتيل في قلب الوعاء بعد أن فتح له ممراً بواسطة قضيب من الحديد لا تقل سماكته عن الستة سنتمترات. ثم أعاد فحصها بعد أن نزع الحلقتين المثبتين على أعلى حافة الوعائين. ولما سألته عن سبب نزعه تلك الحلقات، أجابني إن الحلقات لا تترك مجالاً للوعاء أن يتدحرج بشكل مستقيم، بل بالعكس تعرقل الدحرجة وتحرفها عن الاتجاه الصحيح لأن الطريق منحدرة، ومن المفروض عدم ترك أي شيء يعرقل الدحرجة. هذا العمل المتقن من هذا الرفيق البسيط الكادح صياد السمك أضاف إلي برهاناً جديداً على ماهية إفادة العمل بين بسطاء الناس وبالتحديد عندما يتعلق بالاختصاصات.

---

(٥٣) هذا التمركز كان هو دائماً إلى حين يريدون التدخل في بلد ما لحماية الممتلكات أو المصالح الأميركية.

تم هذا العمل كله في مدرسة عائشة أم المؤمنين حيث المركز الرئيسي للقيادة العسكرية للحزب الشيوعي اللبناني.

حملنا الوعاءين أنا ورفيقي الصياد وبمرافقة من أحد الرفاق العسكريين، واتجهنا سيراً على الإقدام حتى وصلنا متسللين إلى آخر طريق شارع المصارف من جهة رياض الصلح، ولم يكن ذلك الشارع كما هو الآن، بل كان لا يزال يحتفظ بطابعه القديم كونه كان سوقاً شعبياً تباع فيه جميع أنواع الخضر وغيرها من الألبسة القديمة إلى الأدوات المنزلية المختلفة.

لم ينتبه لوجودنا أحد في بادئ الأمر، وكنا قد أخفينا الوعاءين، فَبَدَوْنا وكأننا نفتش عن بقايا أشياء موجودة هناك ثم اختفينا في إحدى زوايا الدرج الموجود هناك في ذلك الوقت إلى أن غابت الشمس وبدأ الليل يرخي سدوله. عند ذلك اقتربت حاملاً الوعاءين حتى أصبحنا على أول نزلة الطريق المؤدية إلى بناية البان اميركان. ومن هناك قذفنا بالوعاءين دحرجة بعد أن أشعلنا الفتيلين.

تدحرج الوعاءان في خط مستقيم تقريباً ولكن لم نعلم ما هو الشيء الذي حرف أحدهما بعد مسيرة عشرة أو خمسة عشر متراً، وتشاء المصادفات أن يستقر واحد منهما بين حقائب الجنود المتمركزين هناك حيث حقائبهم مرتبة في أسفل البناء، وكذلك تابع الثاني تدحرجه ولم ينفجر قرب

الأميركيين كما كان مفروضاً أن يحصل بل بقيَ متدحرجاً حتى وصل إلى مسافة مئة متر تقريباً وبعيداً عن الأميركيين.

لعن الصياد حساباته، وأعاد سبب الخطأ إلى السرعة في الدحرجة، ولكن ما إن أوشك على الانتهاء من تفسير ما حصل حتى دوّى انفجاران هزّا الشارع هزّاً، وبتنا نسمع صراخ الجنود وأنينهم ونلاحظ تحركم السريع. فتبين أنّ الوعاء الذي انحرف وصل إلى الهدف المنشود وهو الذي أصاب ما يقرب من العشرين شخصاً، بينما ذكرت الصحف في اليوم الثاني بأن هناك سبعة قتلى وعدداً غير معروف من الجرحى. أما الوعاء الثاني الذي تخطى هدفه فانفجر وساعد بصوته الداوي على إرباك أولئك الغزاة وتحويل أنظارهم عن مكان وجودنا حيث بدأوا يطلقون النار في مختلف الاتجاهات ما عدا المكان الذي كنا نختبئ فيه. وهناك عرّجنا في طريقنا على الأخ أحمد الأرناؤوط وشربنا الشاي وأمضينا السهرة عنده حيث كان يتمركز مع رجاله على الخطوط الأمامية في ساحة البرج، ولم نخبره بالانفجارين خوفاً من تفشي الخبر بين حلفائنا الالدّاء واستغلال هذا العمل لأنهم كانوا ينتظرون أي خطأ منّا لتحويله وتسخيره، وخصوصاً أولئك الذين كانوا يسمّون أنفسهم "قوميون عرب"، والذين كانوا في كل طروحاتهم يقولون بأنهم هم البديل للفكر الماركسي اللينيني. ولكن أين هم الآن الذين يحملون هذا

الفكر؟ إنهم يتسابقون على حمل الماركسية اللينينية، وأصبح كل منهم يدعي أنه هو الماركسي اللينيني غير المزيف.

كادوا أن يقبضوا عليّ: عدتُ في إحدى الأمسيات إلى المركز في مدرسة عائشة ام المؤمنين فأخبروني بأن طانيوس الحكيم (أحد أصدقائي من حارة حريك) سأل عني وانتظرني كثيراً، وأخيراً ذهب إلى بيته قبل أن يأتي الليل وهو يريد أن يراني ضروري جداً.

وأنا بطبيعة تقديري للصداقة وحبي للخدمات العامة لم أكن أتأخر ولا مرة عن تلبية الواجب، خاصاً كان أم عاماً، هذا ما علمتني إياه مدرستي الحزبية.

بحثت الأمر مع الرفاق وكان الليل قد بدأ يُرخي سدوله. وقررت الذهاب ولكن ليس لدّي وسيلة نقل، فتطوع الرفيق نسيب نمر بنقلي ومرافقتي بسيارة السيمكا الرمادية إلى حارة حريك، وذهبنا إلى بيت طانيوس الحكيم عبر طريق سرّية كنا نسلكها أثناء انتقالنا ضمن المناطق الوطنية والبعيدة عن متناول الجيش. وما إن وصلنا إلى هناك حتى رحب بنا طانيوس المذكور وأبى إلا أن يقوم بواجب الضيافة والترحيب الزائد بضيوفه وهو المتميّز من هذه الناحية. أبى إلا أن نتناول العرق وبعده العشاء بحيث رفض أن يقول لنا ما يريد قبل الشراب والعشاء.

سألته ماذا يريد مني: وبعد كل هذا الانتظار نأمل أن يكون خيراً. فأجاب: يا ولدي تعلم أنني سائق شاحنة نقل

كبيرة وأتنقل بها ترانزيت بين لبنان والعراق، وقد قالوا لي هناك بأن عليّ الحصول على تصريح منك، فيسهّلون لي أموري الخاصة، لكن نظراً لأنني مسيحي فهم يفكرون هناك، أي في العراق، بأن كل مسيحي ماروني هو مع شمعون. أجبته: المسألة بسيطة، وغداً تذهب لعندي وتكون الورقة في المركز إذا لم تجدني هناك، وهذا ما حصل فيما بعد.

ودَّعنا طانيوس، وأردتُ العودة من حيث أتينا، ولكن نسيب قال لي: يلّا روح تانروح عالطريق العام ومن هونيك على مستديرة المطار نذهب إلى المركز. لم أمانع في سلوك خط سير كهذا لأن المنطقة هناك كانت حدودية تقريباً، فسيطرة الدولة ضعيفة عليها ولم يخطر ببالي بأنه يوجد هناك أي عائق يمنع وصولنا إلى المركز.

سلكنا طريق الغبيري واتجهنا من ساحتها غرباً، وما إن وصلنا إلى مستديرة المطار حتى دخلنا فجأة بين صفين من رجال الدرك يقفون على جانبي الطريق لحماية حاجز يقوم بتوقيف السيارات وتفتيشها ويتحقق من هويات أصحابها.

اضطربت في البداية بعض الشيء وسألني نسيب ما العمل؟ وقد أصبحنا في منتصف طوق الحاجز، والعودة إلى الوراء مستحيلة نظراً لوجود سيارات خلفنا، وأيضاً لفت نظر الحاجز لمحاولة فرارنا. قلت له لا بأس تقدم وسنرى ما سيحصل، لكنني كنت قد قررت بيني وبين نفسي أخذ أحد الجنود كرهينة فأحتمي به حتى أخرج من الطوق فيسهل عليّ الفرار عند ذلك وأطلق سراح الدركي.

وصلت إلى الجندي المفتش فقال: هويات يا شباب. قلت له إنّ الأستاذ صحافي وأنا رقيب أول بالجيش (كنت بلباس عسكري) ما في لزوم للتفتيش "أجابني اسمحلي ببطاقتك"، عند ذلك أبرزت له هويتي العسكرية. وما إن شاهد اسمي حتى فتح فاه دهشة وأغلق البطاقة وأعطاني إياها بسرعة قائلاً لنسيب: عجّل يا أستاذ وفل من هون متل الطير. وهنا أقلع نسيب بسيارته متجهين بسرعة فائقة إلى المركز، وكنا نتساءل عن معنى السرعة التي طلب منا الجندي أن ننفذها أثناء مغادرتنا الحاجز. وبالطبع كانت أحد الاستنتاجات بأن هذا الجندي من المتجاوبين مع المقاومة الشعبية وقد عرف اسمي الذي كان معروفاً جداً في ذلك الوقت، وأراد المساعدة على نجاتي من الوقوع في يد الدولة نظراً لأنه كان قد صدر عليّ الحكم بالإعدام.

وصلنا إلى المركز وبدأت الحياة تعود إلى وجه نسيب الذي كان ممتقعاً ومصفرّاً، وكان طيلة الطريق يرجوني بألّا أخبر أي إنسان بما حصل معنا، لأن الرفيق خالد بكداش إذا وصل إليه هذا الخبر فسيكون انتقامه من نسيب شديداً بسبب خطئه هذا غير المقصود كما أوضح لي. وبالفعل وفيت بوعدي ولم أخبر أحداً بالحادثة إلا بعد أن طُرد نسيب من الحزب وكنا قد استقلّينا عن رفاقنا السوريين وأصبحنا "الحزب الشيوعي اللبناني".

في اليوم الثاني وأنا في المركز - صدفة خير من ميعاد- وإذا برفاقنا المسيحيين يقودون اثنين من الدرك اللبناني إلى

المكتب وقد أفادوني مسبقاً بوجودهما وبأنهما يريدان مقابلتي، فسمحت لهما بالدخول وطبعاً بعد أن تم تجريدهما من سلاحهما الأميري، وما إن دخل أولهما حتى عرفته وكان ذلك الجندي الذي خلصني من التوقيف على الحاجز وأنقذني من حكم الإعدام الذي كان سينفذ فوراً فيما لو ألقي القبض عليّ.

فوجئت بحضوره وغلبتني الدهشة والفرح، ولم أعلم ما هو الشيء الذي انتابني في ذلك الوقت الذي أمضيت معظمه وأنا أفكر عن وسيلة توصلني للتعرّف على ذلك الدركي الشجاع. قفزت عن الكرسي وعانقته مقبلاً ومرحباً وصرخت للحرس بإعادة السلاح للدركيين ووضع القهوة والشاي وكل ما يمكن من تكريم وتقدير.

سألته يا أخي: هل عرفتني عندما رأيت بطاقتي؟ ولكن، قبل الإجابة، دعني أتشرف بالتعرّف إليكما، ومعرفة اسميكما، ومن أي بلد؟

أجاب: يا سيدنا أنا من المنيا ومن آل حمد (على ما أعتقد) أما الثاني فلم أذكر من أين؟ ولكن أيضاً من عكار.

فعدت إلى الترحيب بهما وكانت القهوة قد أصبحت جاهزة، وأعيد السلاح إليهما، ودخلنا في جو عائلي حميم لا يقل دفئاً عن أجواء الشيوعيين عند اجتماعاتهم العادية.

ـ "يا خيي والله نجاتك مبارح من الله" هكذا بدأ الأخ حمد كلامه. فقلت: "أخبرني كيف؟". قال: "والله والله يا ابو فريد إنو السيارة ياللي كنت راكب فيّا أول سيارة كنت عم

بفتشها بحيث كان يقوم بالتفتيش قبلي أحد الدركيين من ضيعتكم القبيات وهوي من جماعة شمعون والله لو عرف فيك كان ما في قوة بالأرض تخلصك منو. يا عمّي ما عرفت إيش الله لهمني وقمت عالتفتيش وساقبت إنو أول سيارة هي سيارة الأستاذ نسيب يا عمي يظهر إنو أنت قلبك طيب والله كبير". ولا شك أن بساطة كلام هذا الدركي المواطن وشجاعته في تحمل المسؤولية بغض النظر عني أثّرت فيّ كثيراً، وجعلتني أحتار في اختيار الأسلوب أو نوع الكلام الذي أوجّهه إلى هذا الوطني ـ الذي كان لو ألقي القبض عليّ ولم يتسن لي الهرب كما كنت مخططاً قبل وقوعي في الطوق ـ لكانت تنتظره مكافأة كبيرة بالإضافة إلى ترقيته الاستثنائية في الرتبة وفي الدرجة. وقد كان على علم بما ينتظره من مكافأة وترقيات، ولكنه كان يريد إنقاذي محتقراً كل الإغراءات التي كانت تُعطى لأمثاله عندما يُقدمون على تنفيذ هكذا مهمات معتبراً أن مساعدة الوطنيين أثمن بكثير من كل مكافأة أو ترقية مهما عظم شأنها.

كم أنت طيب يا ابن حمد وكم هم طيبون أمثالك من أبناء شعبي الذين يضحّون بكل شيء حتى بحياتهم في سبيل وطنهم وشعبهم. منكم نتعلم ومن أجلكم يدفعنا الحزب إلى التضحية والى التفاني في العمل حتى الاستشهاد، وحتى نبقى كحزب على مستوى تطلّعات أمانيكم يا أيها الطيبون من أبناء شعبنا.

جولة مع الخوري منعم: معرفتي كانت ثقافية بالخوري طانيوس منعم عندما قرأت كتابه "وعلى الأرض السلام"، وكان وجودي كمارونى على رأس القوات المسلحة في بيروت ومذاهبها بالإضافة إلى وجود الخوري طانيوس منعم هو واحد من البراهين الساطعة على إفشال تحرّكات كميل شمعون وأتباعه حول الخطر الإسلامي على المسيحيين. هذا بالإضافة إلى أن كل من يريد الخراب لبلد من البلدان كان يركّز على الحلقة الضعيفة، ولبنان كان منذ البداية يعاني من هذه الحلقة الضعيفة التي هي الطائفية، وقد وصلت إلى أوجها في عام ١٩٥٨، طبعاً بالإضافة إلى الانتكاسات التي حصلت لهذا البلد، فمنذ الحكم الانكشاري حتى يومنا هذا كانت الطائفية دائماً رأس الحية، وللآن لم يأتِ ذلك القائد الذي يبدأ بقتل الحيّة من رأسها لا من ذيلها.

وحفاظاً أيضاً على الوجود المسيحي المكثّف في المنطقة الغربية، ولإدخال الاطمئنان إلى قلوبهم، وكذلك تخفيفاً من تأثير الدعايات الطائفية التي كانت تُبث بين المسلمين في مناطق المقاومة الشعبية والتي كان يبثها بعض عملاء شمعون حول فظائع تحصل أو أنها حصلت للمسلمين في مناطق الانعزاليين، تقرر أن أقوم برفقة الخوري طانوس منعم بجولة على مراكز المقاتلين في طريق الجديدة والبسطة والزيدانية والى جميع مراكز القتال المتواجدة في بيروت الغربية.

لم نذهب إلى أحد المراكز إلا وكانت تسبقنا زغاريد النساء ورصاص المقاتلين ابتهاجاً بقدوم الخوري منعم. فكنا

كيفما توجّهنا نقابل بالترحاب من قبل وجهاء المنطقة التي نزورها وبالرصاص في الهواء من قِبَل المقاتلين، طبعاً بالرغم من تقبيحنا لعادات إطلاق الرصاص في الهواء. ولكن لم يكن لدى أولئك المقاتلين الأشاوس ما يرحّبون به بقدوم ذلك الأب الجليل وإظهار تقديرهم لقدومه سوى إطلاق الرصاص، وهي العادة المتبعة في بلادنا التي تبرهن على أقوى أشكال الترحيب بالمقاوم العزيز.

إن تلك الواقعة لم تُمحَ من ذاكرتي لأنها كانت تدل على عمق الأصالة الوطنية في شعبنا وبأن كل الدسائس والمؤامرات لا يمكن أن تنجح في تفرقة شعبنا بالعمق وإن نجحت بعض الأحيان بالمظاهر، ففي كل مرة كان يزداد وعي شعبنا ويعيد المتآمرين مع مؤمراتهم إلى جحورهم النتنة.

هدية خالد بكداش: كانت الستالينية في أوجها، خصوصاً بعد أن بدأت الجيوش الفاشية تتراجع أمام قوات الجيش الأحمر. وكان من الطبيعي أن كلمات ستالين هي وحدها المسموح ترادها، أي بشكل أوضح: إن القيادة والعبادة الفردية هي الطاغية في جميع الأحزاب الشيوعية. وكان الرفيق خالد بكداش "ستالين العرب"، كما كنّا نسمّيه نحن العسكريين، قد لعب دوراً هاماً في قيادة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان، وكان تركيزه وتأكيده كبيراً على تكثيف العمل لقيام حزب شيوعي جماهيري كبير في سوريا باعتبار أن الشعب السوري منفتح وطنياً على التيارات العلمانية أكثر من

الشعب اللبناني الذي تعشعش فيه جذور طائفية عميقة، ولا يمكن على المدى القريب إنشاء حزب شيوعي جماهيري في لبنان. وهذا الرأي كان سائداً في أوساطنا نحن العسكريين أيضاً، إذ إننا برغم تدعيم وتكثيف صلاتنا مع زملائنا السوريين فقد فشلنا فشلاً كبيراً في احتضان عدد من الرفاق السوريين بينما نجحنا نجاحاً كبيراً بين اللبنانيين. وباعتقادي أن هذا الاعتقاد البكداشي هو الذي جعل معظم رفاقنا يكرّسون عملهم للعمل في سوريا إلى أن كانت نتيجة هذا التخطيط السيء استشهاد رفيقنا وأميننا العام فرج الله الحلو.

قلت كان خالد بكداش معبوداً بالنسبة لنا نحن الشيوعيين في تلك الحقبة، وكان كلما ذهب واحد من الرفاق إلى سوريا يقولون لي بأن الرفيق خالد بكداش يفتخر بك ويوصيك ألّا تُقْدِم على أي عمل دون أن تحتاط لنفسك فأنت غالٍ جداً على الحزب، وقد حدّد لي اللقاء بأنه إذا حضر إلى لبنان فأول ما سيأتي لزيارتي أما إذا ذهبت إلى سوريا فالرفاق سيقودونني إلى مقره.

ولكن هذا اللقاء لم يتم ولم أرَ خالد بكداش طيلة حياتي إلا بالصور، وبرغم كل شيء ظللت أتمنى اللقاء به والتحدث إليه.

وقد أرسل لي بكداش هدية مع الرفيقة جورية غربية على ما أعتقد، وهي كناية عن عدة حلاقة كاملة مرصوفة بترتيب أنيق داخل حقيبة من الجلد، ولا أزال حتى الآن أحافظ عليها، ولكن ليس بالاهتمام السابق نفسه. وفي إحدى المرات

حاولتُ أعادتها إليه إظهاراً لعدم اقتناعي بصحة توجّهاته في تلك المرحلة، ولكن الرفيق ارتين مادويان منعني من ذلك.

تدريب الرفاق: إنها المرة الأولى التي يقوم فيها حزب شيوعي عربي بحمل السلاح ومناهضة حكم عميل. وكانت فرصة نادرة لتدريب جميع الكوادر وعناصر الحزب على القتال واستعمال السلاح، فكانت مدرسة عائشة ام المؤمنين هي قطب التجمّع.

بدأ التدريب دورياً حيث كنتُ قد جمعت أحسن المدرّبين من رفاقنا في الجيش اللبناني، وكان في طليعتهم الرفيق موسى شحادي فبدأوا بالتدريب ليلاً نهاراً دون انقطاع بحيث شمل التدريب ٩٠٪ من كادر الحزب وأعضائه، وهكذا كانت تتقاطر إلى هذا المركز جميع منظمات الحزب من مختلف المناطق اللبنانية. وكم كان فرحي عظيماً عندما كنت أرى الرفاق بعد نهاية تدريباتهم يقولون: الآن أصبحنا شيوعيين بكل معنى الكلمة، وإنّ رصاصنا بعد اليوم لن يذهب هدراً ولن تحط الطلقة التي نطلقها إلّا في صدر العدو.

الياس الهبر "الرئيس": كل دورة تدريبية كانت تنتهي عادة بالرماية، ويُصادف أن يكون الرفيق الياس الهبر أحد المتدرّبين، مع مجموعته في التدرّب على الرماية الفعلية بعد أن أكون قد أعطيت الأوامر بوضع الرامي انبطاحاً . (رقّموا الأهداف من اليسار إلى اليمين، سدد، إرمِ).

عند الانتهاء من المهمة ذهبتُ مسرعاً لأرى النتيجة فوجدت أن أحد الأهداف لم يُصب ولا حتى بطلقة واحدة برغم أن المسافة لا تزيد عن الخمسين متراً، والهدف كان بقياس رجل عادي.

عدت إلى خط الرمي وسألت عن صاحب الهدف (لا أذكر رقم الهدف) فقال لي أحد المتدرّبين: أنا صاحب الهدف. قلت" شو اسمك: قال: الياس الهبر. قلت يا رفيق مش انت يالليي بتكتب البيانات العمالية وبتهاجم الدولة بدفاعك عن العمال. قال مبلا. قلت إذاً يا رفيق رماياتك يجب أن تكون على مستوى بياناتك. فكانت نكتة ضحك لها جميع الرفاق ولا يزال يذكرها الرئيس حتى الآن، فهل أصبحت رماياته على مستوى بياناته.

أم فريد وعلي دكروب: كان يوجد لدينا شبل من آل العرب يعمل مساعداً في المطبخ. وفي معظم الأوقات، وأثناء غيابي في إحدى مهماتي المتعددة، كان هذا الشبل ينقل إلى البيت طعام الغداء والعشاء عندما يكون الأكل مميّزاً. لأنّ البيت الذي كنت أقطنه كان ملاصقاً لمدرسة المركز من جهة الشمال.

وفي إحدى المرات كنت على يقين من عدم عودتي على الغداء فأوصيت أم فريد بإعطاء الشبل إكرامية نظراً لأتعابه المتكررة.

وتشاء المصادفات أن يتغيّب أيضاً ذلك الشبل فيتطوّع

الرفيق علي دكروب لنقل الطعام، وهو بالمناسبة كان شبلاً أيضاً، وبالتالي غير معروف من أم فريد التي كانت تجهل معظم الرفاق تقريباً.

دخل دكروب حاملاً الطعام وأعطاه لأم فريد (هكذا أخبرتني) وبعد أن وضعه في المطبخ استوقفته فبقي علي منتظراً باعتبار أن أم فريد بحاجة لشيء ما يقضيها إياه، لكنه فوجئ بأم فريد وهي تحاول إعطاءه إكرامية، ولم تكتشف خطأها إلّا عندما قالت له أن ابو فريد قال لها ذلك. ولنباهته سألها: "ماذا قال لكِ ابو فريد"، قالت له: "إنه عند حضورك لعندنا ناقلاً الطعام عليّ أن أعطيك إكرامية". وهنا أجابها مفاجئاً: "يا أم فريد في غلط، يا أم فريد في غلط "بالنمرة"، الشبل ياللي قلك عنو ابو فريد ما إجا اليوم أنا علي دكروب". ومن يومها وحتى الآن كلما التقى علي وأم فريد يغرقان بالضحك فوراً.

زيارة انطون ثابت: كان هذا الرجل مالئ الأسماع في نضاله وتفانيه في خدمة القضايا الإنسانية، وهل يوجد في الدنيا أعظم من العمل من أجل السلام وإبعاد شبح الحرب وويلاتها عن الشعوب؟ كان لطيفاً وديعاً أليفاً تشعر منذ الوهلة الأولى التي تلتقيه فيها بأنك على معرفة به منذ مدة طويلة.

أخبروني في المركز بأن الرفيق انطون ثابت سيحضر لزيارة المركز، ومن الواجب استقباله باحتفالٍ عسكري وبكل مراسم التكريم العسكرية.

وكما أسلفنا كانت التدريبات لا تشمل فقط القتال والرماية بل تشمل أيضاً حركات النظام المرصوص مع ومن دون سلاح. إذ إنك منذ دخولك إلى المدرسة ينتابك الشعور الفوري بأنك داخل ثكنة عسكرية؛ فكل عنصر من العناصر في عمله، إضافة إلى مشاغل التدريب التي كانت تملأ الحرش الكائن بالقرب من المدرسة، والانضباط الحازم الظاهر على كل عمل ينفّذ داخل هذا المركز، وهذه الميزة لفتت نظر الكثير من مدّعي صداقتنا، بحيث باتوا لا هَمّ لهم إلا التآمر وبث الدعايات المغرضة ضدنا، وكذلك بث الخلافات بيننا وبين جيراننا، وخلق الفتن والكره من حولنا. ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل وارتدّت إلى صدورهم، حتى وصلت إلى أن واحداً من الأشخاص التابعين لهم أطلق النار على قائد الخريجين في طريق الجديدة عندما أصرّ عليه بخلق مشاكل مع الشيوعيين.

وطبعاً هذا الموقف الجماهيري الودّي من تنظيمنا ومن وجودنا هناك في مدرسة عائشة أم المؤمنين، الموقف الودّي والمؤيد، كان نتيجة سلوك عناصرنا وقيادتنا في ذلك المركز والذي ما ابتعد أبداً عن الناس هناك ومساعدتهم على قضاء حاجاتهم، كنظافة الشوارع وتأمين المياه والأكل، بحيث كنا نسعى لتأمين احتياجات الناس على قدم المساواة مع المقاتلين، حتى في معظم الأحيان كان يفوق اهتمامنا بالناس أكثر من اهتمامنا بالمقاتلين.

وقد تابعنا هذا العمل حتى انتهاء الأحداث، وساعدنا في

هذه العملية عمل رفاقنا الدؤوب في خارج المركز، بحيث كانوا يذهبون إلى جميع الأمكنة لتوعية الناس غير المعوزين وحثّهم على مساعدة الحزب، فكانت التبرّعات تأتينا بكثرة أحياناً ومتواضعة في معظم الأحيان. وكان رضى القيادة الحزبية عن هذا التنسيق جيداً مما جعل هذه القيادة تنوّه بعمل الرفيق محمد الخطاب السياسي وبعملي أنا العسكري.

في هذا المناخ من الجديّة والحماس، حضر الرفيق انطون ثابت إلى المركز بحيث كان الجميع على أهبّة لاستقباله: من سياسيين وعسكريين، فقدمنا له التحية العسكرية بالسلاح وتفقد الفصائل المنتظمة لتكريمه. وبروحه البشوشة وحديثه المتواضع أظهر إعجابه بالاستقبال. وقال "يا أبا فريد ما هذا الاستقبال، أهو لرئيس جمهورية؟"، فأجبته على الفور: يا رفيق ألست مارونياً؟ تعوّد على هيك مناظر وتفاءل بالخير تجدْهُ. وهكذا جو ودّي وتنكيت كان يزيل عنا شقاء العمل ونرفزتنا من بعض الشواذات التي كان يرتكبها بعض الرفاق بالرغم من علمنا المسبق بأن أجواء ثورية كهذه محاطة بالأعداء لا تخلو من الهفوات، فقد كنت لا أتسامح مع المخطئين وكان ردع الأخطاء قاسياً في معظم الأحيان.

حياة الرفاق في المعسكر: الحياة في المعسكر كانت عسكرية بكل ما في النظام العسكري من قساوة. فالنهوض للجميع الساعة الخامسة صباحاً مهما كان نوع المهمات التي كان قد قام فيها الرفيق ليلاً. ربع ساعة لترتيب أمتعة المنامة

ولغسيل الوجه، ثم الدرس الرياضي الذي كنّا نبدأه بأحد من الأناشيد العربية "نحن الشباب"، "هدى وطني"، "بلاد العرب أوطاني"، "موطني"، "الفخر في بلادنا" وننهيه بواحد الأناشيد الوطنية المذكورة. وبعد نهاية الدرس الرياضي نخصص نصف ساعة للغسيل والحلاقة والترويقة، تبدأ بعدها الدروس النظرية والعلمية، العسكرية منها والسياسية .

كان المركز يضجّ بالرفاق والأصدقاء، وكان كثيرون يأتون لمشاركتنا أعمالنا وتدريباتنا للرفاق، ولكن اليقظة كان لها ضروراتها، فكنّا بلباقة بالغة نتخلص من هكذا طلبات لأن وقتنا ما كان ليكفي الرفاق إلا بمضاعفة أوقات العمل.

من الرفاق أحمد غربية المعروف بميله التجاري منذ كان أستاذ مدرسة في إحدى قرانا العكارية. فماذا كان يفعل؟ كان عند كل مساء يجمع قيادة الحزب ويقول: يا رفاق كل واحد يدفع ليرة وأنا بروّقكم أحسن ترويقة "سودا أو حمص متبّل أو مقادم". فكنّا نساهم جميعنا بالتهيئة للترويقة. وفي الصباح وفي الوقت المحدّد يكون الرفيق أحمد قد نفّذ ما وعد به من تحضير للترويقة دون أن نعرف ما هي التكاليف، فتبيّن لنا فيما بعد بأنه كان يجمع ليرة من كل من المشاركين ويحضّر الترويقة دون أن يكون قد دفع من جيبه شيئاً وعندما سألته في إحدى المرّات: "يا أحمد طيب مش عم تدفع معنا وصحيح عمتتعب، بس مش عمبيفضل معك شي؟". قللي: "يا رفيق هيدا سر المهنة عمتتروق كل يوم ولا لأ". قلت: "طبعاً عم بتروّق"، فيقول "إذاً هذا شرطي الوحيد ألا يسألني أحد

منكم عن الخلفيات". وهكذا كنا ننصاع لعدّة مشاريع ترفيهية مشتركة يقوم بتهيئتها الرفيق أحمد دون أن نسأله عن الخلفيات، وطبعاً يكون على رأس المشاركين في الأكل وليس بالدفع والجميع كانوا يعلمون بذلك ويسرّون له.

يا لها من أيام كان يقضيها الرفاق مع بعضهم بعضاً، أيام لا يمكن لأي من المشاركين فيها أن ينساها؛ فالروح الرفاقية بكل ما تعني هذه الكلمة من مشاركة في السرّاء والضرّاء كانت سائدة بين الرفاق مندفعين ومستعدّين لتنفيذ أية مهمة. وكيف لا يكون أيّ منّا شعلة نضال وفداء وعدونا الأميركي كان لا يبعد عنا سوى أمتار، والكل مستعد للتصادم معه. ولكن "ماكو اوامر" كانت لا تزال سارية، بالرغم من أن الحزب وافق على القيام بعدة عمليات ضد الأميركيين، ولكن بسرّية تامة ودون أن نعلن عنها، خوفاً من أن ينقلب الجميع ضدنا، باعتبار أن من كان مسيطراً على القيادة السياسية في بيروت كان يركّز في دعاياته وفي أحاديثه بين أوساطه: بأن الشيوعيين يريدون خراب البلد في محاولتهم الصدام مع الغزاة الأميركيين.

الرفاق في المركز: وبما أنني ذكرت مسار الحياة في المركز داخل بناء "مدرسة عائشة ام المؤمنين" فلا بد من المرور، ولو بشكل عابر، على ذكر الرفاق الذين تواجدوا. فالرفيق المحامي محمد الخطاب كان المسؤول السياسي للمركز بينما كنت المسؤول العسكري يساعدني الرفيق

مصطفى... ثم بعده الرفيق موسى شحادي هذا الأخير الذي بذل أقصى الجهود حتى يتمكن جميع الرفاق من هضم التعليم العسكري، حسب البرامج الذي كنت أحددها أسبوعياً. أما الرفيق كريم مروه فكان رئيساً للحرس وقد أعجبتُ بهذا الرفيق لسرعة استيعابه العلم العسكري فقد كان يقوم بمهمته العسكرية وكأنه أحد المحترفين. أما بركة المركز فكان الرفيق يوسف خطار الحلو "أبو وضّاح" الذي كان مثالاً يُحتذى به في رعاية الرفاق والسهر على نظافتهم وحسن العلاقات الرفاقية في ما بينهم، وكان كثيراً وبكل روح طيبة يحتج لديّ على قساوتي في التدريب وحتى على بعض أساليبي القاسية في التعامل مع الرفاق، وقد شرحتُ له مراراً بأن العمل الشيوعي يتطلّب الشدّة والقساوة في الأسلوب، وقد اقتنع من خلال الممارسة من صحة أسلوبي، طبعاً في التعامل العسكري. أما الرفيق محمد دكروب والرفيق علي سلامة والرفيق محيي الدين الذي سبّب له استعماله لحصيرةٍ وضعها على الأرض تحته أثناء التدريب على الرماية انبطاحاً، سبّب له هذا العمل الزحف ما يقارب المئتي متر على الأرض عقاباً له حتى أصبح وكأنه أحد العاملين في المطاحن. وماذا أكتب عن الرفيقات جورية وسيسبان وميّ وبقية الرفيقات اللواتي أوكل إليهن مهمة تأمين التموين، بحيث كنَّ يأتين كل مساء وهنَّ ينقلن سيارات الطعام ومواد التموين، وكذلك كنَّ يجمعنّ يومياً مئات من الليرات التي ذهبت ثمناً لأسلحة لا يمكن استعمالها إلا بواسطة أقدم الجنود المحترفين، ومع ذلك كان الرفاق يُسرّون جداً عندما يتم شراء قطعة سلاح

مهما كان نوعها فنقيم حفلة على شرف القطعة الجديدة الآتية. وكانت فرحتنا كبيرة عندما اشترينا أحد الرشاشات الإنكليزية المتطورة، وكانت هكذا قطعة نادرة الوجود في المقاومة، فكان المركز فرحاً بذلك وكأنه في عرس، وقد علمت بأن الرشاش معطوب ينقصه النيشان ولم أخبر الرفاق بذلك العطب كي لا أقطع عليهم فرحهم، وقد بقي الأمر سراً، إلى أن تمّ إصلاحه وأجريت رماية بواسطته للمقاتلين بعد إلحاحهم الشديد على معرفة كيفية التسديد والرماية به. ونظراً لقلة الذخيرة فكنت أضع لكل مقاتل ثلاث طلقات في المخزن ليطلقها، لأن حصولنا على الذخيرة كان لا يقل صعوبة من الحصول على السلاح. لقد كانوا يعلمون بأننا مسلحون جيداً ومتدربون جيداً لأنني كنت قد جمعت معظم سلاح العسكريين الذين انضموا معي إلى المقاومة في المركز وكذلك فإن نخبة من المدربين كانوا رفاقنا.

الرفيق محمد دكروب كنتُ أعرفه من خلال مقالاته في جريدة "التلغراف" ولم أعرفه شخصياً إلا عام ١٩٥٨ في المركز، وقد نجا من الموت بأعجوبة خارقة لأنه بينما كان يقوم بالحراسة ليلاً أصيب بطلق في عنقه من الجهة الخلفية ولم تخترق الطّلقة سوى الجلد، وإنني أعتقد بأن ذلك القطوع هو أصعب ما مرَّ على هذا الرفيق الأديب مؤلف كتاب "جذور السنديانة الحمراء".

جورج حاوي في التدريب العسكري: قررت الحكومة اللبنانية عام ١٩٥٦ تعميم التدريب العسكري على جميع

تلامذة الصفوف الثانوية طيلة السنة الدراسية على أن تتوَّج نهاية تلك السنة بدورة عسكرية مدتها خمسة عشر يوماً[٥٤] يتم خلالها عرض المعلومات العسكرية التي يكون قد أقرّها أثناء التدريب وتترسخ في الذهن بحيث يجري تطبيق تلك المعلومات على الأرض. وكانت تلك الدورات تنفّذ في مختلف الأراضي اللبنانية.

ولقد علمت أن جورج حاوي، الذي سبق أن عرفته، قد انضمّ إلى المركز. أما سبب معرفتي بجورج فكانت في معسكر المتين بين حمانا وضهر البيدر، وبين المتدرّبين كان اسم جورج حاوي. وكنت أنا أحد الرتباء العسكريين الذين يشرفون على تطبيق التمارين العسكرية بمختلف موادها بدءاً بالنظام المرصوص وانتهاءً بالمناورات المشتركة بين مختلف الفصائل.

تذكرت اسم هذا الطالب وذلك لوروده عدّة مرات في جريدة "التلغراف" يتصدّر التظاهرات الطلابية كقائد لها ومتصدٍ للقوات التي تعترضها مهما كانت نوعيتها (جيش، درك، الفرقة ١٦، أمن عام)، لذلك بدأت أسأل عنه بعض الطلبة الذين كالعادة يحاولون التقرّب من مدربهم أو رئيسهم بمختلف الأشكال، وقد أخبرني أحدهم، وأعتقد أنه من آل بعقليني، بأن جورج عنده قدرة جسدية كبيرة بالإضافة إلى

---

(٥٤) لا تزال هذه الدورات مستمرة ولكنها انقطعت بسبب أحداث ٧٥ وما تلاها من حرب أهلية.

رباطة جأشه، وهو، أي جورج، لا يخشى عواقب أي عمل يقرر تنفيذه. سألت الطالب هل هو شيوعي؟ فقال لي: "لا أعلم شيئاً يُثبت هذا الانتماء". وهنا لاحظت بأن الاحمرار لم يشمل وجهه فقط بل شعرت بأن دمه يندفع بقوة في عروقه وكذلك نبضه.

قلت له: "لماذا أنت مرتبك فهل الشيوعية جريمة؟ أنا بالحزب الشيوعي". أجابني: "اصطفل بحالك يا سيدنا يعطيك العافية"، وغادر خيمتي مسرعاً، وقد علمتُ فيما بعد بأن هذا الشاب أصبح خارج الحزب. وفي فترة الظهيرة، وبعد انتهاء التمارين، وعودة الجميع إلى المعسكر، استدعيت جورج حاوي ليأتي إليّ.

تقدم ببطء الواثق من نفسه غير هيّاب من الاستدعاء كما هي حال معظم الطلاب الذين كانوا يُستدعون(٥٥). وعلى مسافة ست خطوات قدم التحية قائلاً: "نعم سيدنا ماذا تريد؟". قلت له: "أنت جورج حاوي صاحب المشاكل والمظاهرات"، أجاب: "كل شيء له دافع!" قلت: "طيب شو جايي تعمل هون، دير بالك هون لا في مشاكل ولا في مظاهرات يللّا روح".

قفل راجعاً وأنا لا أرفع عينّي عن هذا الشاب الممتلئ عزماً وحيوية ولكن... ما إن خطا ثلاث خطوات تقريباً حتى

---

(٥٥) استدعاء الطالب كان يعني فرض عقوبة، وكانت أقل العقوبات الجلوس في القبر الذي هو عبارة عن حفرة صغيرة في الأرض يقبع فيها المقاتل.

عاد وناداني: "يا سيدنا بدّي إحكي كلمتين بتسمح"؟ قلت: "نعم احكِ يللي بدّك إياه". فقال "في شغلي لازم تعرفوها، وهي إنو إنتو الجبتوني لهون ما أنا جيت لحالي". عند ذلك استدرت عنه مبتسماً ورجع كل منا إلى مقرّه. وأعتقد بأنه لم تُنزَل به أية عقوبة طيلة فترة التدريب.

هذه هي أول معرفة لي بأميننا العام الذي لم أعد ألتقي به منذ ذلك الوقت وحتى عام ١٩٦٨ حيث تكثفت تلك اللقاءات بقدر ما تضاعفت الأعمال.

(... إلى هنا ـ فقط ـ وصلت "مذكرات أبو فريد" الذي لم يتح له الوقت ـ ربما ـ أن يُكملها.. وكان يمكن أن تحمل أحداثاً وأسراراً ومنجزات عديدة ومشوّقة لهذا الشيوعي الواعي والمقاتل ـ دخلت هذه المذكرات إلى أحداث العام ١٩٥٨، والانتفاضة ضد حكم كميل شمعون ـ ولم تتجاوز هذه الفترة...

(... إلى هنا ـ فقط ـ وصلت "مذكرات أبو فريد" الذي لم يتح له الوقت ـ ربما ـ أن يُكملها.. وكان يمكن أن تحمل أحداثاً وأسراراً ومنجزات عديدة ومشوّقة لهذا الشيوعي الواعي والمقاتل ـ دخلت هذه المذكرات إلى أحداث العام 1958، والانتفاضة ضد حكم كميل شمعون ـ ولم تتجاوز هذه الفترة... توفي أبو فريد: /اسبر البيطار/ في 14 آب 1993).

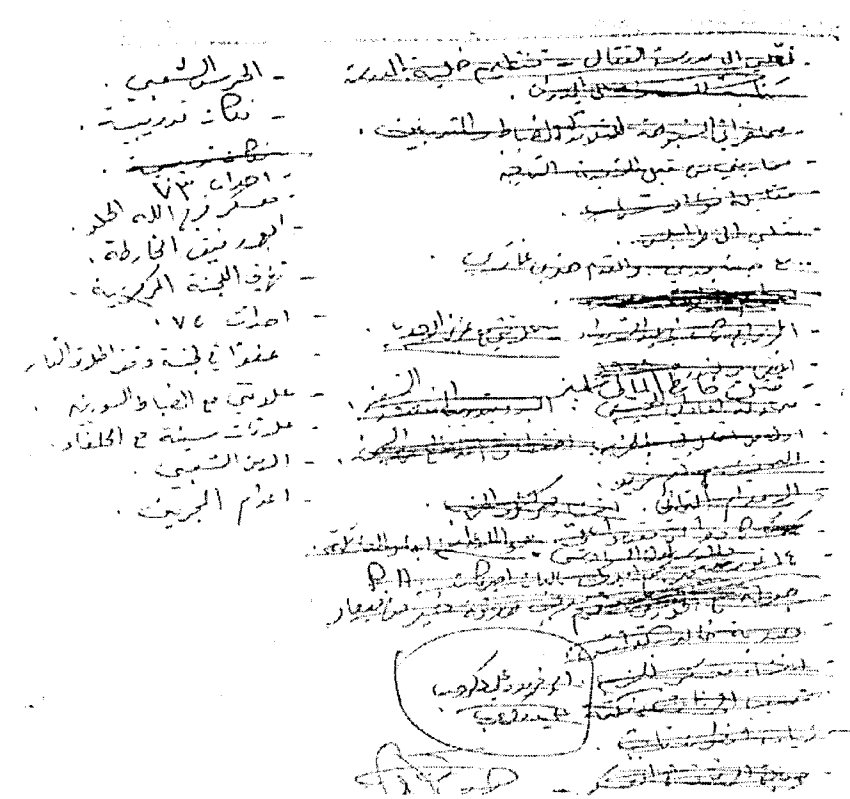

هذه الموضوعات كان أبو فريد قد وضعها كعناوين لاستكمال ما بدأه

- نقلي إلى مدرسة القتال
- تنظيم خلية مدرسية
- محاضراتي المشبوهة للتلاميذ الضباط والمتدربين
- محاربتي من قبل الشعبة الثانية
- مقابلة فؤاد شهاب
- نقلي إلى طرابلس
- مع جينادري والمقدم هنري غازي
- الزواج كان عشية عيد الشهداء
- علاقتي مع عزيز الاحدب

- انضمامي لثورة ١٩٥٨
- قتل ضابط الماني كبير
- محاولة اعادتي للجيش
- أول من اتصل بي بالحزب
- البدء بتدريب المقاومة الشعبية
- اختطاف احمد صالح من السجن
- التحقيق مع ام فريد
- الاعدام الثاني
- انشاء مركز للحزب
- كادوا أن يقبضوا علي
- ..... وإبعاد العائلة
- ١٤ تموزوالاسطول السادس
- تجمع اميركي بالبان اميركان (PA)
- جولة مع الخوري منعم
- رُبّ صدفة خير من ميعاد
- هدية خالد بكداش
- انشاء معسكر للحزب
- تدريب الرفاق نكتة
- ام فريد وعلي دكروب
- علي دكروب
- حياة الرفاق في المعسكر

- لقاء مع الرفيق نقولا
- مع كريم مروة

- جورج البطل نجا بإعجوبة
- علاقتي مع صائب سلام
- محاولة اعتقالنا مع معين حمّود
- التقيت الرفاق
- ملاحقتي من قبل المكتب الثاني السوري
- اغتيال ١١ بلغارياً والعفو
- تحسن العلاقات مع المكتب الثاني اللبناني
- عودتي إلى القرية
- عضني الجوع
- أم فريد تبيع مصاغها
- بعت خاتم زواجي
- عامل حفريات في الهاتف
- وجدت وظيفة مناظر
- الانشقاق بالحزب
- مونتفردي
- مع موريس نهرا
- أول تدريب لكادر الحزب القيادي
- الحرس الشعبي
- نكات تدريبية
- أحداث ٧٣
- معسكر فرج الله الحلو
- ابو رفيق الخارطة
- تهاني اللجنة المركزية
- أحداث ٧٥
- عضواً في لجنة وقف اطلاق النار
- علاقتي مع الضباط السوريين
- علاقات سيئة مع الحلفاء
- الأمن الشعبي
- إعدام المجرمين

المحتويات

مقدمة.....محمد دكروب ٧
مذكرات أبو فريد ٢٧
في مدرسة القلبين الأقدسين ٣٣
العمل قبل الذهاب إلى المدرسة ٣٥
مساعد لراعي البقر ٣٨
شماساً في الكنيسة ٣٩
الصلاة من أجل الفقراء ٤٠
عدائي للاغوات والبكوات ٤٢
عاملاً مع بداية الحرب ٤٤
كادوا أن يقتلوني ٤٥
مطالعاتي ٥٧
الانخراط في الجيش ٥٨
رياضي طليعي ٦٢
معرفتي بالسياسة ٦٤
أول صدام مع الفرنسيين ٦٥
أول لقاء مع القائد جميل لحو ٦٦
مع الكتائب اللبنانية ٧١
مع القوميين السوريين ٧٢
بعد النضال ضد الفرنسيين ٧٦
مع العرب الأحرار ٧٧

اللقاء مع المالكي ٧٩
مع الشيوعيين ٨١
أصبحت شيوعياً ٨٦
انضمامي الى الحزب ٨٩
الخيانة ٩٧
الجاسوس ديب يوسف ديب ١٠٢
النضال مع السنغاليين ١٠٤
النضال ضد جنود الاحتلال ١٠٧
قتلت ضابطاً فاشياً ١٠٩
القنبلة اللعينة ١١٣
الاعدام الأول ١١٥
إنزال العلم الفرنسي ١١٧
السجن المنفرد ١١٩
الحكم بالإعدام ١٢٣
يوم الجلاء ١٢٩
العهد الاستقلالي ١٣١
عمل منظمة الحزب ١٣٢
إضراب عام في الفوج الثالث ١٣٥
مقتل أحد الرفاق المدنيين ١٤٠
المؤامرة على فلسطين ١٤٤
معركة المالكية ١٤٩
الرفيق اميل طانيوس الحلو ١٥٢
مفجرّ ألغام بالصدفة ١٥٤
تقطيب الجرح ١٥٥
احتلال قَدَس بواسطة أسير شيوعي ١٥٨
أسطر جديدة من كتاب الخيانة ١٦٨

الأمير مجيد ارسلان في المالكية ١٧١
رفضت ميدالية فلسطين ١٧٢
محاضراتي المشبوهة لتلامذة الضباط ١٨٠
الشعبة الثانية ومضايقاتها ١٨٢
مقابلة قائد الجيش فؤاد شهاب ١٩٣
الزواج ١٩٦
الاحتفال بعيد ثورة اكتوبر ٢٠٤
الأحدب يحقق معي ٢٠٦
بعد اغتيال نسيب المتني ٢١١
الالتحاق بالثورة ٢١٤
البدء بتدريب المقاومة ٢٢١
أول اتصال بالحزب بعد انضمامي الى المقاومة ٢٢٣
اختطاف احمد صالح من السجن ٢٢٦
التحقيق مع أم فريد ٢٣٢
الإعدام الثاني ٢٣٦
إنشاء مركز للحزب ٢٤٠
صائب سلام حاول اعتقالنا ٢٤٦
الشيوعيون أوقفو زحف الدبابات ٢٥١
كادوا أن يقبضوا عليّ ٢٦٣
تدريب الرفاق ٢٧١
زيارة انطون ثابت ٢٧٣
حياة الرفاق في المعسكر ٢٧٥
جورج حاوي في التدريب العسكري ٢٧٩
خاتمة ٢٨٢